تغريدات في الحب والإنسانية

* الكتاب: تغريدات في الحب والإنسانية
* تأليف الدكتور/ هاني الغيتاوي
* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدى
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدى
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدى
* رقم الإيداع: 4652/ 2023
* **الترقيم الدولي:** 978-977-8954-21-0

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: +20 100 518 6476

فيسبوك: **دار المنتدى للنشر والتوزيع**

تغريدات
في الحب والإنسانية

تأليف

د/ هاني الغيتاوي

إهداء

إلى كل الكادحين.

إلى كل من يتلمس الإنسانية من شرفات القلب والروح.

إلى كل من يروم من نفسه وصالًا، وزاده في ذلك الحب والصبر والحلم والأُناة والعمل.

إلى كل نفس تتوق إلى الحب والسلام.

* * *

علينا أن نعيش حياتنا مهما كانت تعيسة أو مفرحة لأنها محسوبة علينا.

(سورين كيركيجارد)

* * *

ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك. وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه مُحيّر، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.

(مصطفى صادق الرافعي)

* * *

مقدمة

هذه تغريدات في الحب والإنسانية، وهي مجموعة مقالات إنشائية اشتملت على بضع كلمات نبعت من نفس اعترتها لحظات وخلجات أرادت أن تعبر عنها، وروح هبت عليه نسائم الحب أرادت أن تترجمها.

وربما يكون التعبير والترجمة فيهما من النقص، وهذا حال الإنسان الذي وإن سعى للوصول إلى درجة الكمال، فسوف يجد من العوارض والعقبات ما تحول بينه وبين غايته، لكن حسبه شرف الاجتهاد والطواف حول هذه الغاية، ولكي يحوز الإنسان هذا الشرف يتوجب عليه أن يكون زاده في ذلك الحب والحق والحرية، هذه الحاءات الثلاثة هي من تساعده على المضي قدمًا للطواف حول هذا الكمال المنشود.

وأنا في تغريداتي هذه لا أدعي الطواف، بل ما زلت أحاول الوصول إليه من خلال تلمسي للطريق الصحيح كي أقف على أعتابه، وسيلتي كلمات ربما يظن من يقرأها ويطلع عليها أنها لم تأت بجديد، ولكني أحاول وأجتهد، وحسبي أن تحريت الصدق قدر المستطاع، إيمانًا مني بأن الكلمة الصادقة تترك أثرًا فتنير البصيرة وتضيء حوالك النفس وعتمتها.

ولا شك أنه كلما كانت الكلمة صادقة، كانت معبرة –وبحق- عمّا تموج به النفس والروح، ويكون لها الأثر والمردود على من يقرأها أو يسمعها بغض النظر عن طريقة نسجها وحبكها ووضعها في قالب معين أو إضفاء الجانب الفني والبلاغي عليها، فالكلمة تكون أكثر بلاغة وفنًا إذا كانت صادقة ومعبرة عمّا تجيش به النفس وتختلج به الروح، فيكون لها أوقع الأثر على قلب من يقرأها أو يسمعها.

والصدق في الكلمة يصيب مواقع الشعور، ويثير مكامن الخيال، وهذه هي البلاغة الحقة، وأرى أن الصدق هو من يضفي على الكلمة بلاغتها وحبكها الفني، لأن الصدق يجعلها لها المقدرة على النفاذ في حقائق

الحياة ونقلها وتصويرها بطريقة راقية تؤثر في النفس وتستثير مواطن الجمال فيها.

إذن جمال الكلمة في صدق معناها وقدرتها بهذا الصدق على سبر أغوار النفس الإنسانية، وتفجير ينابيع الإيمان والحب التي تنعكس على هذه النفس فتوثر فيها وتتأثر بها، وفي ذلك يقول الشاعر عبدالرحمن شكري

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

وفي شدوك شعر النفس لا زور ولا بهتان

وأراني تحريت صدق العاطفة والشعور وأنا أكتب هذه الكلمات ما استطعت إلى هذا التحرّي سبيلًا، فما كتبت حرفًا إلاً واستثارتني عاطفة لكتابته، مدفوعًا بإجلالي وتعظيمي لقيم الحب والإيمان والجمال والخير.

* * *

أحبك لذاتك

قد لا يكرهونك لتفوقك ونبوغك،
بل يكرهونك لأنك أبرزت مواطن النقص فيهم.

من يحبك لذاتك أو لشخصك، سيظل يحبك كنت جذابًا وجميلًا، أو شائنًا وقبيحًا، كنت ناجحًا أو فاشلًا، ذائع الصيت أو خامله، مشهورًا أو مغمورًا، شريفًا أو وضيعًا، فالحب لا يعرف المسميات، ولا الامتيازات، ولا يهاب النقائص ولا الإخفاقات، فالحب مسألة تخرج عن إطار الاستدلالات والبراهين، وفكرة استخدام العقل والمنطق، فمن يحبك يحبك لذاتك، لا يريد منك جزاء ولا شكورا.

وقد يبغضك البعض لذاتك، وقد يبغضك البعض لنجاحك.

وهذه القاعدة ليست على إطلاقها، فقد تأتلف القلوب كنت ناجحًا أو فاشلًا، وقد لا تأتلف القلوب كنت ناجحًا أو فاشلًا.

إذن قد لا يعرف الحب تفوقًا ولا إخفاقًا، كذلك البغض، لكن هناك من يترصد للناجح ويبغضه، ليس لنجاحه؛ وإنما لأن هذا النجاح عمل على تعرية هذا المبغض أمام نفسه، فجعله يرى حقيقتها، والذي طالما أراد أن يخفيها عن نفسه.

منبع الكره هنا ليس ذات الناجح وشخصه، بل لنجاحه؛ لأن هذا النجاح أبرز فشل هذا المبغض أمام نفسه، لذلك قد نجد بعض الضالين يحقدون على أهل الهدى، لأنهم يذكرونهم دائمًا بتقصيرهم، ونجد أهل الباطل يحنقون على أهل الحق، لأنهم يظهرون باطلهم.

فالكره هنا ليس كرهًا لذات الناجح، بل لنجاحه لأنه عرّى هذا المبغض وجعله يشعر بنقصه، لذلك يعمد على تشويه هذا الناجح، ليس كرهًا في ذات هذا الناجح، بل لنجاحه ونبوغه، الذي يشعره بنقصه وضآلته وتقصيره.

كن على طبيعتك مع كل الناس

قيمة الإنسان، تظهر ليس في تعامله مع من يعلوه مقامًا، بل مع من هو أدنى منه.

عندما تتعامل مع من هم كفء لك، أو من هم على شاكلتك سواء من ناحية العلم أو الثقافة أو النفوذ أو المكانة الاجتماعية، الأمر يكون سهلًا ويسيرًا فأنت لا تحتاج إلى التصنع أو التملق أو التودد.

لكن، قد يتطلب الأمر منك بعض الملاطفة والتودد والتصنع، عندما تتعامل مع من يعلوك في الترتيب العلمي أو الثقافي أو الاجتماعي، أومن ناحية الجاه والسلطة والنفوذ، فمن يتعامل مع من يعلوه في هذا المجال، يكون أحرص ما يكون على أن يظهر تعامله على الشكل اللائق والمناسب، فيعمد إلى حسن الحديث والملاطفة والتودد والمجاملة، ولا يخلو في الغالب الأعم من تقديم مراسم الاحتفاء والإطراء والمجاملات.

هذا حال تعاملك مع من هم كفء لك، ومع من هم يعلونك مقامًا، وكما قلت ففي الغالب الأعم يكون هذا شكل التعامل. قيمتك في إطار هذا التعامل لا يمكن الحكم عليها، فمن الطبيعي أن يكون تعاملك على هذا النحو، لكن قيمتك وإنسانيتك الحقيقية تظهر بجلاء ووضوح عند تعاملك مع من هم أقل منك من حيث المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الفكري أو المادي، هنا وهنا –فقط– تظهر قيمتك الإنسانية، فهؤلاء البسطاء قد لا تحتاج إلى ملاطفتهم ومجاملاتهم والتودد لهم، لأن بمفهوم المنفعة، قد ترى أنهم لن ينفعوك بشيء، لذلك نرى البعض ممن تظهر الفروقات بينهم وبين هؤلاء الناس، يتنكرون لهم، وينظرون إليهم نظرة سطحية ودونية، كونهم ليسوا كفئًا لهم أو معادلين لهم، فيعمدوا إلى تهميشهم أو الحط من شأنهم بالقول أو الفعل أو الإشارة، اعتقد أن من ينحو هذا الاتجاه، يكون هو السطحي وأنه يفتقد لمعاني الإنسانية، وأنه بلا وجدان وبلا عقل ولا فكر ولا ضمير لأنه غلب العوامل والفروقات الثانوية، على جوهر الإنسان، وبتناقضه في تعامله مع من هم كفء له، ومع من

هم أعلى منه، ومع من هم أدنى منه مكانة بفعل الفروقات الثانوية، وليس الجوهرية، يكون بلا قيمة وبلا إنسانية

* * *

تصالح مع نفسك

إذا كنت متصالحًا مع نفسك،
فلا تبتئس إذا أظهرت لك الدنيا الخصومة.

أن تكون متصالحًا مع نفسك، يعني أنك أوتيت الحكمة، فالحكيم هو من يتصالح مع نفسه، ويري أحداث الحياة بمفهومه الداخلي، فلا يجعل الأحداث ولا الأشياء سلطانًا عليه، فرؤيته لها من منظوره الداخلي يجعله يتحكم فيها فيخضعها لسلطانه، ولا يخضع هو لسلطانها، فالإنسان المتصالح مع نفسه هو من يبني عالمه الذي يريد أن يعيش فيه، فيبسط فيه أحلامه وأفكاره وتصوراته وآماله، لتنعكس على العالم الخارجي، لذلك نجد أن المتصالح مع نفسه يكون أرق الناس عاطفة، وألينهم عريكة، وأصفاهم قريحة، وأنبلهم شعورًا، لا يرى الحياة مضمار تسابق على مجد أو سلطة أوجاه أو نفوذ، أو حلبة صراع يكون الغلبة فيها للأقوى، بل يراها رحلة صوفية يعرج فيها نحو قيم الخير والحب والجمال، يستمد منهم زاده الذي يعينه على السفر إلى عالم الخلود الأبدي.

والإنسان بتصالحه مع نفسه يعيش حياة بسيطة، يصنعها على عينه، لا يبتغي فيها الصراع مع غيره، بل يكون معه في وفاق، يسعد لنجاحه، ويأسى لإخفاقه، لا يروم المعارك التي تستنزف نفسه وروحه، بل يتمنطق بروح الوفاق والائتلاف مع الغير ومع الدنيا، وإن حدث وأظهر له الغير أو الدنيا الخصومة، لا ينزوي ولا ييّأس، ولا يصب اللعنات على الدنيا وعل الجميع، بل يمده تصالحه مع نفسه بآليات الجمال والحكمة، فيطوعها لمجابهة المشاق والآلام، فيستنفر عالمه الداخلي بما فيه من خيال وأحلام وأفكار وتصورات، ليواجه آلام الحياة ومشاقها، فيهدهد هذا الشقاء، ويخفف من هذه الآلام، وذلك بتقبل كل عارض في هذه الحياة، فالدنيا ليست جنة، بل فيها المخاوف والأحزان والآلام والمشقات، والإنسان المتصالح مع نفسه، هو من تكون لديه القدرة مع التعامل مع هذه العوارض من خلال تعامله مع عالمه الداخلي، وتحكمه فيه وسيطرته عليه، بما يتناسب مع مقدرته على التعامل مع العالم

الخارجي، فتصالح الإنسان مع نفسه، وفهمه لها، هو من يجعله يتحكم في انفعالاته، ويمنحه القدرة على التعايش بسلام وحرية مع عالمه الخارجي.

* * *

الأنانية وحب الذات

من يحب نفسه بكل عيوبها،
لا تنتظر منه أن يمنح الحب لأحدٍ.

أن تحب ذاتك، أمر طبيعي لا غبار عليه، ولا يستطيع أحد أن يلومك، فحب النفس، دليل على وجودها، وحبك لهذه الذات، يعني الاهتمام والاعتناء بها، وصقلها بكل ما ينميها ويجعلها تزهر، وبكل ما يجعلها فرحة سعيدة.

ولكن لا تجعل حبك لذاتك، يورثك الأنانية، فتفتئت على ذوات الآخرين، فتلحق الضرر بهم، كمن يحب مصلحته، فيسعى وراءها، ويجد ويجتهد للحصول عليها، وفي سعيه لا يرى أحدًا غير نفسه، فيحجب النور عن غيره، لكي يضيء لنفسه الطريق، حتى لو كان النور يسع الجميع، يحاول أن يستأثر به لنفسه ويستحوذ عليه، هذا الشخص يحب نفسه، ولا يرى غيرها، وإن كانت لفظة حب هنا لا تستقيم مع ما يجترحه تجاه غيره، فحجب النور عن الغير أنانية، والأنانية آفة خلقية لا تمت لقيمة الحب بصلة.

قديمًا قالوا اسع لمصلحتك، لكن مع الوضع في الاعتبار صلتك بالآخرين وتعلم العيش معهم، لكن بحبك لذاتك بهذه الطريقة المطلقة، فأنت تنحي الآخرين وتبعدهم، وتسبب لهم الأذى وتحيق بهم الضرر، ومتى كان هذا حالك، فأنت لا تحب ذاتك، بل تكرها وتبغضها، لأنك تظهر عيوبها، بل وتنميها، ومن ثم تسجنك في إطار ذاتك، وتجعلك لا ترى غيرها، فكيف يستقيم وحالك هكذا أن تمنح الحب للآخرين؟!

فمن لا يرى إلاّ ذاته، يفضلها رغم ما شابها من عيوب، من المستحيل أن يمنح الحب لغيره، فمن ابتلي بداء الكذب، الغيرة، الحقد، الحسد، الغدر الخيانة، الخ، من المستحيل أن يحب غيره، ولا يستطيع تقديم السلام إليهم، لأنه نفسه في حرب دائمة مع نفسه، فما يعتمل في داخله من عيوب وأدران، يسد عليه كل لطيفة إنسانية من حب أو رحمة أو إيثار أو بذل وعطاء، فكثافة عيوبه جعلته لا يرى غيره، وحبه لذاته

المشتملة على هذه العيوب جعلته أبعد ما يكون أن يرى غير نفسه، لذلك هيهات أن يحب شخص نفسه بكل عيوبها، وننتظر منه أن يمنح الحب لأحد، نحن بذلك نطالبه بالمستحيل، فهل من الجائز أن نطلب من نبتة الصبار أن تمنحنا العسل، أو نطلب من حبات الملح أن تذوب في كوب ماء وتمنحا طعم السكر.

* * *

اقرأ وفكر ثم تأمل.

للحظة بسيطة تأمل يومك، بدايته، وسطه، نهايته، ابسط شراع التأمل وامخر به حياتك كلها، ارصد الأحداث التي تمر فيها، اقرأ وفكر وتأمل وكن حرًا

لا تجعل لأحدٍ سلطانًا على فكرك، وكن له مليكًا. طف عوالم نفسك لتتعرف عليها، ومن ثم تتعرف على من حولك والعالم كله.

إذا نهضت من ضجعة ركونك وأعملت فكرك، سوف تتغير ذاتك، وتغيير ذاتك كفيل بتغير رؤيتك للعالم من حولك.

سوف يستحيل سكوتك إلى ثورة، وجمودك إلى حركة، وعبثك وفوضويتك إلى رؤية ونظام، سوف ترى الأشياء بعين الحقيقة، لا بعين الباطل، ستقرأها بعين ضميرك ووجدانك لا بعين غيرك والهوى، سيتحول قدرك المطمئن القار الوديع كما كان يخيّل لك، إلى قدرٍ فزعٍ مضطربٍ لا لنقص إيمان فيك، فأنت أكثر إيمانًا بإعمال فكرك وتأملك وقراءتك، فهم يجعلونك دائب الحركة والبحث والتنقيب عن وجودك وعن ماهيتك، عن المبادئ والقيم المجردة كالحق والجمال والعدل الخ.

ولأنك تحركت، ونهضت من غفوتك ومن سباتك، وخرجت من إسار الجمود، بفضل تفكيرك وتأملك، لسوف تهب عليك ريح عاتية، وسوف تتقاذفك العواصف الهوجاء لكي ينالوا من اطمئنانك وإيمانك، بأن عد إلى ما كنت عليه هادئًا مطمئنًا مستقرًا، فعلام تتعب ذهنك، وتكد قريحتك وتعبث بفكرك، ويوسوسون لك بأن التفكير عيٌ، والفلسفة كفرٌ، والعدل والحرية ضرب من ضروب الخيال، بل الجنون.

ستحاول الرياح العاتية، والعواصف الهوجاء أن تسلبك نفسك، وتنفيك عن إنسانيتك، بأن تعود بك إلى منفاك، تتمرغ في وحل التيه والسقوط، كعود كلأ تحت سنابك التغييب والجهل، تذروه رياح العبث في مجاهل الوجود والتاريخ.

لذلك إذا ثبت إلى رشدك، وفكرت وتأملت، وعملت فكرك، فاثبت على ما أنت عليه، ولا تهاب الريح وعواصفها، فثباتك يوهنها، وإن لم

يصدها، فلسوف يبددها ويمحوها، فثباتك وصمودك يحيلك إلى عالم فيه تنطوي الرياح وتذوى غوائلها وسمومها ولا تستطيع النيل منك مهما أوغلت في طرائقها ومحاولاتها.. فقط اقرأ وفكر وتأمل.

* * *

التكبر والكبرياء أعداء الحقيقة

من الناس من يعيش رهين أنانيته، وحب ذاته وعبادتها، وتفضيل مصالحه على الحق والحقيقة، فمن أجل كبريائه يسوف الحقيقة حتى ولو كانت واضحة مثل نور الشمس.

ينكر الحقيقة ليس بدافع المناقشة والتحليل، وأن له وجهة نظر ورؤية، لا، بل ينكرها لأنه سوف تحط من كبريائه أو تقوض مصالحه كما يعتقد.

وقد يخطئٌ امرَأً، ويصر على هذا الخطأ، ولا يتنكر له، وإصراره وعدم نكرانه له ليس لعدم معصمويته من الخطأ، فهو يعلم علم اليقين أن البشر لا معصومية لهم من الخطأ، وأن النقص يستولي عليهم جميعًا، لكن إصراره وعدم تنكره ينبع من إرضاء ذاته وما يتلبسها من داء العظمة والكبرياء، أو حماية لمصالحه.

قد يصر أحدهم على عناده، ويسلك درب الوعورة والباطل، وفِي قرارة نفسه يعلم أنه سلك الدرب الخاطئ، وأنه يمشي فيه على غير هدي، لكنه يستمر فيه، غير مكترث، يزهو بعناده وضلاله، يعتمر تاج الباطل، ليس حبًّا فيه، بل حبًّا لذاته وكبريائه ومصالحه.

لا شك أن هؤلاء من المستحيل إقناعهم بغير ما يَرَوْن أو يعتقدون، وسيعيشون ويموتون على اعتقادهم الضال ورؤيتهم الشاذة المنطوية على ازهاق الحق، وتسويف الحقيقة، وأراني في هذا السياق أذكر قصة عمرو ابن هشام هذا الضال الذي أنصت لصوت عناده، وفضل ذاته وكبريائه على الحق والحقيقة، فلقد هوى الرجل في بئر الباطل، رغم عقله وحلمه، فالرجل دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعز به الإسلام، وأن يكون في إسلامه المنعة والذود عن هذه الرسالة، وما كان اختيار الرسول له جزافًا أو على غير هدي، فالرجل مناقبه معروفة، ومكانته من قومه معلومة ومقدرة، ورأى الرسول أن في إسلامه هو أو عمر بن الخطاب نصرة للدعوة وشدًا من أزرها.

فقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» أسلم بن الخطاب وأذعن لصوت الحق، أما عمرو بن هشام أبى وتمنع وترك قياده لهوى نفسه وعناده وكبريائه ورام مصلحته، فرغم علمه بأن دعوة الرسول حق إلا أن نفسه أبت أن تخشع لهذا الحق، فقد سمع الرجل القرآن وعرف الحق، وعندما سئل عمّا دعي إليه من الحق، ظهر عناده وفضّل ذاته وظهرت النفعية والمصلحة في جوابه الشهير

لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!، فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به ولا نصدقه.

الرجل علم الحق، ولكنه تنكر له عنادًا وصلفًا وتكبرًا، فعجز عن ولوج طريق الحق، واستبدله بطريق الباطل، ليس لضعف في عقله، وإنما حبًّا لذاته، وحرصًا على منافعه ومصالحه المادية.

هكذا يتسربل منكري الحق والحقيقة في كل العصور برداء حب الذات، والتعالي والكبرياء والمصالح والمنافع، لا يهمهم

* * *

كن وفيًا.. كن إنسانًا

تتم الإنسانية وتطوف حول الكمال، إذا نضجت الروح فتمنح معانيها الراقية، فيكون الوفاء بلا شبهة، والعطاء بلا منّ، والحب ليس له حدود تلك الإنسانية من صفاتها أنها ساكنة هادئة مطمئنة، لا تعرف القلق والاضطراب، متورعه تقية، تعرف الفضيلة ليس بمفهوم الدنيا، بل بمفهوم الأبدية الخالدة.

خلق الله الكون من أجل الإنسان وسخر له كل ما فيه من أجله، وميزه وفضله عن جميع مخلوقاته، لعلمه بأنه الأكفأ والأجدر على حمل الأمانة، تلك الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، فالإنسان له قيمة كبرى، ومكانة عظيمة عند الله، لكن هذه المكانة مرتبطة بقدرته على معرفة إنسانيته، وتقديرها والارتقاء بها، من خلال حملها على استشراف قيم الجمال والمحبة والتعاون والسلام.

فلا قتل لأخيه الإنسان في الإنسانية، ولا خراب ولا حروب عسكرية أو بولوجيه، ولا صراع على موارد، ولا محاولات للاستئثار بالعيش دون أخيه في الإنسانية، لا عنصرية، ولا استغلال، لا رق ولا عبودية، لا تمييز بين جنس أو لغة أو عرق أو دين.

فالنفس الراقية عندما تعطي، تعطي بسخاء، لا تطلب جزاءً ولا شكورًا لعطائها، فمن فرط رقيها وإنسانيتها، وجدت أنها عندما تعطي، وكأنها هي من تأخذ، فجعلت من عطائها فرض عليها، تورق وتزهر عندما تقوم بالعطاء، وأجمل ما قيل في هذا العطاء، كلمات منظومة، تعتبر من أجمل ما قيل في النظم العربي، فها هو ذا زهير بن أبي سلمى يقول:

تراهُ إذا جئته متهللاً

كأنك تعطيه الذي أنت سائله

قمة التفاني في العطاء والكرم، والأثرة وحب الغير، يرتقي بصاحبه أعلى مراتب الإنسانية، فمن يعطي يفرح بمن يستجديه العطاء، كأنه هو السائل، والسائل هو المعطي.

والعطاء والكرم فضلًا على أنه يصقل إنسانية الإنسان، يستر عيوبه بل يبددها، فلذة العطاء ترقق القلب، وتهدهد نزعة الأنانية، وتقلص من حب الذات، يقول الإمام الشافعي:

تستر بالسخاء فكل عيب... يغطيه كما قيل السخاء.

والنفس الوفية عندما تتعهد بالوفاء، وتلتزم بعهدها، تكون نفسًا راقية أنيقة وأول صور الوفاء، هو الوفاء بالعهد مع الله سبحانه وتعالى، فيأتمر الإنسان بأوامره، وينتهي بنواهيه، ويأتي بعد ذلك وفاء الإنسان لأخيه الإنسان، فيفي بوعده معه، في كلامه ومعاملاته، في بيعه وشرائه، الوفاء للمعلم، للقدوة، الوفاء للوطن، الوفاء للجمال والحب، ومن الوفاء تتولد الثقة، فتستقر العلاقات، وتزداد وثوقًا، ويحل الأمن ويعم السلام، لذلك لا تتم إنسانية الإنسان وتحوم حول الكمال إلا بوفاء.

والحب رمز الإنسانية، ومحرابها الطهور، وقدس أقداسها، فالحب هو قصة الخلق ورأس القضية، وأساس الوجود، ومن يعمر الحب قلبه، وتجيش به نفسه، ويشف له وجدانه، تتم إنسانيته، فالحب هو جسر العبور إلى الأبدية الخالدة.

* * *

الألم نعمة.. الألم منحة

يبتلي الله الناس بالمحن والابتلاءات لحكمة مفادها، أنه يريد منهم أن يخرجوا من عالم أشغالهم وكدحهم وتنافسهم على الزائل، ليدخلهم عالم المعاني النبيلة من تطهر وتقوى وسمو للروح، وخشوع للجوارح، وعيش في حضرة الايمان، ربما يتعلقون بالأبدي الدائم.

من قديم الأزل وتتناوب على الإنسان المحن والأزمات، ولا يسلم من نوائب الدهر وصروفه وعادياته، فالمحن والآلام والنكبات، تصاحب الإنسان في وجوده، ولا يسلم منها ابدًا، وهي سنة كونية، وكتبت عند الله في لوح مقاديره، ابتلى الله بها الإنسان ليبلوه ويختبره، ليعرف مدى قوة تحمله وجلده على مجابهة هذه الالام والصعاب، وكان في مقدور الله أن لا يبتلي الإنسان بهذه الابتلاءات والمحن، لكنه لم يفعل لحكمة، وهي لجعل الحياة لها معنى، وتذكير الإنسان بأن الدنيا ليست بمستقر أبدي، بل أنها دار مرور (ترانزيت) للعالم الآخر السرمدي الأبدي، كما أن الآلام والأزمات والنكبات تجلي المعدن الإنساني، وتظهر قيمته وتجلوه من خبثه وشوائبه، فتجعله أكثر إنسانية، مثله كمثل معدن الذهب إذا مسته النار خلصته من شوائبه وأدرانه وجعلته أكثر توهجًا وبريقًا ولمعانًا.

وكل مبدع، وكل إنسان راق ولد من رحم الألم، فالإنسانية حافلة بنماذج كابدت الألم، واعتصرها الشقاء، لكنها لم تستسلم، لهذه الآلام وتلك المشقات، بل جعلت منها جسر عبور لنبوغها وإنسانيتها، وأرقى النماذج الإنسانية على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد عانى ما عانى، وكابد ما كابد، وتألم أيما تألم، لكنه لم يعبأ ولم يسلم قياده لهذه الالام والمشقات، بل حولها إلى جسر يعبر عليه لتحقيق رسالة التوحيد، رسالة النور التي تخرج العالم من ظلاميته إلى آفاق أكثر إشراقًا ونورًا، فنجح في ذلك بل تفوق، وكانت النتيجة أن أشرق النور

على جهالة كانت تسود الإنسانية بعتمتها الداجية وبؤسها المقيم، كذلك الأنبياء والمصلحين والثوار، الذين لم يذعنوا لسطوة الشقاء ومرارة الألم، بل جاهدوا هذا كله من أجل أهدافهم النبيلة وغاياتهم الراقية، فمن منا لم يسمع عن جان دارك هذه القروية الساذجة البسيطة، والتي عانت الألم منذ نشأتها، ففقرها المدقع، لم يحول بينها وبين صقل إنسانيتها، التي لازمتها حتى ألهمتها الذود عن وطنها فرنسا، وبنفس كبيرة وهي ابنة السابعة عشرة ربيعًا، اقتحمت أهوال الحروب وملاحم الوغى، وألهمت أبناء وطنها، فذادوا معها عن وطنهم، واستلهموا منها الصبر والعزيمة والكفاح، وعندما نجحت نقم عليها أعداء النجاح، فتربصوا بها، وكادوا لها، واتهموها بالهرطقة، وتم حرقها أمام أعين من كانت تذود عنهم، ومن رحم معاناتها ومعاناة شعبها، كانت جان دارك القديسة الفارسة، التي أعيد إليها اعتبارها بعد ثلاثين عامًا من موتها، وتم تبرئتها واعتبارها قديسة ومناضلة فرنسا وفارستها.

وبيتهوفن أحد أعظم عظماء الموسيقى الكلاسيكية عبر التاريخ، عانى الألم، ومن رحم هذا الألم كان الإبداع، فلم يحول بينه وبين العظمة الفنية فقده لحاسة سمعه، فصنع بموسيقاه وهو أصم عالم من الخيال والإبداع، فكتب أشهر سيمفونياته على الإطلاق وهو فاقد هذه الحاسة، لم يثنيه الألم عن التقدم بعزيمة ومضاء لتحقيق هذا الإعجاز والإبداع الفني.

كذلك توماس أيدسون مخترع المصباح الكهربائي، والذي أضاء الدنيا بهذا النور، كان فقيرًا معدمًا، كان يقيم أوده ويقتات من بيع الحلوى، والطواف في القطارات يبيع الصحف، لم يحول بينه وبين شغفه في العلم والتجربة هذا الألم، وحاول وفشل، ولم يفقد الأمل حتى كان ثمرة هذا الأمل المولود من رحم المحنة مصباحًا أنار الدنيا.

والإنسانية تحفل بالكثير ممن عانوا وكابدوا الألم والمشقات، ولكنهم لم ييأسوا ولم لا يستسلموا لها، بل صنعوا منها مشاعل نور تضيء لهم دربهم الذين عبروه لخدمة الإنسانية، فمنحهم الألم رقة، وأعطاهم الشقاء قوة للتفكر والأبداع، ونقاء لذاتهم وسموًا لأرواحهم، فأفادوا الإنسانية

بعطائهم وبذلهم، لذلك كان بلاؤهم نعمة، وألمهم منحة، ارتقت بهم نحو مدارج الإنسانية.

* * *

العقل هو أداة الحر

العقل أداة الحر، فإذا تنازل الحر عن عقله وجعله سيقة فقد حريته.

وقد يكون التنازل عن العقل تحت تأثير سلطة أو نفوذ أو مصلحة، وقد يكون لأغراض أو نزعات أو أهواء شخصية، وفي كل الحالات هذا أمر محط نبذ وكراهة وسوء.

وفي تصوري أن أقبح تنازلًا في هذا الصدد، هو التنازل من أجل الهوى أو النزعة الشخصية، لأن المتنازل يدافع عن رأي أو معتقد وهو متلبس بالهوى، فعوضًا من أن يأتي بالحجج والبراهين التي يؤيد بها رأيه، لا يتذرع في أن يسوق من الوسائل الصالح منها والطالح لنُصرة رأيه، ولا يكتفي بهذا فحسب، بل يذهب مذاهب السوء في ذلك، فيلجأ إلى السب والشتم والتعريض والتهميش والانتقاص ممن يعارضه الرأي، فيخوض مما لا شأن له أن يخوض فيه، فيتجاوز حدود الرأي، أو المسألة المعروضة للنقاش ويتعداها إلى الشئون الشخصية لصاحب من يخالفه الرأي، فيلغ في شخصه، ويستبيح ما لا ينبغي له أن يستبيحه، فيتناول صفاته وطباعه وكل ما يتعلق بأموره الشخصية، وهو بذلك لم يفتئت على قيمة الرأي والحوار وحسن الجدال والمناقشة، بل على شخص محاوره من خلال سومه سوء النكال والخسف.

وأرى أن ذلك الولوج، وهذا التعدي ناتج عن ضعف إنساني وخلقي لهذا المتجاوز، ففضلًا عن ضعف حجته وهوانها، وضحالة فكره وضيق أفقه وسطحيته وخواء نفسه وروحه.

ولا عجب في ذلك، فمن يتنازل عن عقله يكون هذا نعته، وهذا حاله، وليت الأمر يقف عند التنازل عن العقل، وترك الحكم على الأحداث والقضايا بموضوعية، وإنما يؤدي هذا التنازل إلى نتائج وخيمة على صاحبه وعلى من يحاوره، وعلى محيط مجتمعه كله، فعلى صاحبه يجعله موسومًا بعار الرزيلة الحوارية، ويعرف بين الناس بالمنبوذ حواريًا لأنه لا مجال لمحاورته، فهو يسلم برأيه، يصادر على رأي

الآخر، ويتجاوز الرأي إلى صاحبه لينهش فيه، لذلك يحرص من يعرف عنه ذلك من تجنبه واتقاء لسانه، فانتصاره لرأيه وتغليب مصلحته لأي غرض من الأغراض، جعله يفقد قيمته كإنسان، فعنفه، وحدة لسانه، أفقدته معاني الإنسانية، فأصبح خرب الروح، مهشم الوجدان، وهو بهذه الصفات، يؤثر على محاوره ومجتمعه، فمحاوره إن كان ضيق الأفق، سيعامله بنفس أسلوبه، وينهج طريقه في الحوار، مما قد يؤدي إلى تصادم بينهما ليس تصادمًا فكريًا فحسب، ولا يقف عند التنابز والصد والسب والطعن بفاحش الكلام وبذيئة، بل قد يتفاقم الأمر إلى الاعتداء الحسي والجسدي، مما يؤثر على السلام الخاص للأشخاص، والأمن العام للمجتمع، وقد رأينا مع انتشار الآلة الإعلامية، واتساع مساحة البرامج الحوارية، كم هائل ممن المتحاورين يتراشقون بالألفاظ، ويعتدوا على بعضهم اعتداءً جسديًا غير لائق، الأمر الذي ينعكس بالسلب على المشاهد، وعلى المجتمع، لأن أفراد المجتمع نسيج واحد، والمجتمع أحد روافد ثقافته هذه البرامج، ومن ثم هناك من يسهل خداعه، فيقع في شرك هذه الحورات ويقوم بمحاكتها وتقليديها، وهذا يؤثر على المجتمع.

ولكي ننأى بأنفسنا عن هذا المصير يجب أن نتعلم ثقافة الحوار، وأن نجنب المصالح الذاتية والشخصية أو الحزبية أو الفئوية، وأن نتعلم قول الحقيقة، واتباع الحق، وأن تعرف الحقيقة لذاتها، وليس بالأشخاص، وأن يتقبل الإنسان من يحاوره، وأن الاختلاف لا يستدعي التجاوز في حقه، واليقين بأن الاختلاف سنة كونية، وأن أي رأي أو قضية، كما قال الفيلسوف زكي نجيب محمود، هي حوار بين نعم ولا، وأن ما بينهما أطياف، فأنت ولا أنا نملك الحقيقة المطلقة

فيجب علينا في تحاوراتنا ومحاورتنا، أن لا نفقد عقولنا لأي غرض كان، لأننا عندما نفقدها تكون العواقب وخيمة، وأن نستند في حوارتنا إلى العقل لا نتنازل عنه من أجل مصلحة أو توجه، أو تحت دغدغة مشاعر، أو استسلام للوجدان.

* * *

العبقرية هي العمل والاجتهاد

العبقرية لا تعني القدرات التي منحها الله إليك من ذكاء وسرعة بديهة وقوة ملاحظة، وغيرها من المواهب والقدرات الذهنية، والبدنية والعقلية والجسدية، هذا كله يسمى الموهبة الفطرية التي ميّز الله بها بعض خلقه لحكمة، هذا ليس معناه أن من لم يؤت هذه القدرات هم أغبياء، أو دون أصحاب المواهب الفطرية، لا، بل تقديرًا لقيمة العمل جعل الله هذا التفاوت

إذن فللعبقرية معان ومفردات، لا يشترط أن يكون للإنسان الموهبة الفطرية ليدركها، فشرط الموهبة وإن كان يدخل في ماهيتها، لكنه لا يلزم لتحقيقها، وإنما العمل والاجتهاد وبذل الوسع والجهد والسعي والصبر وتحمل الالام والمشقات هو الركن الركين فيها، وبتحقق هذا الركن تتحقق العبقرية.

لذلك فالعبقرية عند توماس إديسون هي العمل والاجتهاد وبذل المجهود، وعند توماس كارليل هي تحمل الآلام اللامحدودة، وعن هذا الطرح والفكر كانت فلسفة الفيلسوف فريدريك نيتشه.

ومن أبلغ ما قرأت في هذا الصدد ما قاله المتنبي عن أن التفاوت بين الناس والترقي في الدرجات الإنسانية والدنيوية والأخروية هو رهين العمل والاجتهاد وبذل الوسع والطاقة، وتحمل كل المشقات في ذلك.

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

لذلك فالعمل والجد والاجتهاد هم أولى في رأيي من الموهبة، لأن الحرص على العمل، والتواتر عليه، سيكشف لصاحبه طرائق جديدة في مجال عمله، كما أنه سيكتسب الخبرة التي تجعله يقترب من الموهبة، فالعمل وبذل الوسع فيه يعطي صاحبه الخبرة التي تدنيه من صاحب الموهبة، فإن لم يتساوى معه، فهو لا يبتعد عنه كثيرًا.

وأرى أن من يعمل ويجتهد، يتفوق على صاحب الموهبة، الذي يتقاعس عن أداء عمله، أو صقل موهبته من خلال ممارسة العمل والاجتهاد، فتكاسله وتقاعسه يقتل موهبته.

لكن ما هو الوضع، إذا اجتهد الاثنان، صاحب الموهبة، ومن يعمل ولم يؤت حظًا من الموهبة، في النهاية لن يكون البون شاسع بينهما، فكما قال كارليل «العبقرية ثمانية وتسعون في المائة مجهود، واثنين في المائة وحي» إذن صاحب الموهبة ويصقلها بالعمل، وصاحب العمل دون موهبة حال اتقانه العمل يقل اثنين في المائة عن صاحب الموهبة، يتضح من هذه المعادلة أن الفرق ضئيل جدًا، هذا الفرق الذي مايز الله سبحانه وتعالى به بين البشر، وهو من أظهر نظرية التدافع بين الناس موجودة، ضمانًا لاستقرار الناس ووجود الأمان في معاملاتهم، وبذلك لا يختل ناموس الكون.

وبذلك فلا قيمة للموهبة الغير مصحوبة بالعمل، فإنها تبلى وتخلق وتزول مالم يصقلها صاحبها بالعمل، كما أن العمل الجاد يرتقي بصاحبه فيجعله وإن لم يغنم الموهبة، يحوم ويطوف حولها، ومن ثم فإذا كان الموهوب الفطري الذي يعمل يكون عظيمًا، فإن من يعمل ويجتهد ويتقن عمله ويتفانى فيه فهو عظيم أيضًا.

* * *

لكي تكون إنسانًا.. ابحث عن الجمال والفضيلة

لكي تكون إنسانًا ولّ وجهك شطر الحب لا تبغ عنه حولًا، وتلبّس بالجمال، وتحرَّ معانيه في كل معاملاتك ومناحي حياتك، قدرّ نفسك، واعلم أنك لست جرمًا صغيرًا، بل ينطوي فيك العالم الأكبر، واستعل بقيم الفضيلة، ولا تولي قيادك لغيرك إلاّ بالحق، واعرف من تتبع بالحق، ولا تعرف الحق به، وكن صاحب ذوق سليم، واحرص على الكلمة، وأن تخرج من فمك لتستقر في الأذهان وفي القلوب حياة تورق وتثمر ودًا وائتلافًا وحبًا ومودة... تحرَّ الأفكار البناءة والتي ترنو للمحبة والسلام، تتطلع نحو الأفضل لوطنك ولإنسانيتك، ولعالمك أجمع.

الإنسان الناضج الراقي، هو كندى الصبح، سهلًا طيعًا، يكون ككتابٍ مفتوحٍ من السهل قراءته، لا يحتاج إلى تفسير وإلى تأويل، يتنكر للجحود والجدال، يريح نفسه من هموم اللغو في الباطل، يطلق لروحه العنان على سجيتها طاهرة بريئة، يباعد بينه وبين سوء الظن، لا يداور، ولا يمالىء ولا ينافق، فالحياة لديه لا تستأهل المداورة ولا النفاق.

يعتمد في حديثه على الصدق وشرف الكلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، يتحمل عبء الفضيلة ويستجديها كي تهبه الحياة.

لا يتنكر لنفسه ويعطيها قدرها بحقها، ولا يُسقط منها مهما كانت المكاسب والمغريات، لأن في سقوط النفس الذل مهما كانت المكاسب والمغريات، حتى ولو صار صاحبها ملكًا. كذلك فالإنسان الراقي لا يتنكر لأحد مهما صغر، ولا يولي نفسه لأحد مهما عظم، لأن الصغير مهما صغر فيه عظمة، والعظيم مهما عظم فيه صغار، وهذه من تداول أقدار الله على عباده، فالكمال المطلق له وحده.

والإنسان الراقي أيضًا هو من يتحرى الجمال في نفسه وفي غيره وفي الكون من حوله، فهو يعلم أن الله خلقه على نحو مبدع في الجمال والروعة، لذلك يعمل على تقصي مواطن الجمال في نفسه دائمًا وينميها

لتزداد جمالًا، فترق نفسه وتشف روحه وينجلي فؤاده وتصفو دخيلته، فيكون عندئذٍ قادرٍ على النظر والرؤية فيما حوله، وينشأ لديه نوع من الجمال التأملي الذي يجعل الإيمان ينسرب إلى نفسه ويتغلغل في أعماقه، فتأمله لجسده وما يحويه من أجهزة، وتعمقه في تكوين جسده، وتركيب خلاياه وأمشاجه، وعظمة التراتيبة لكل ذرة في جسده، وأنه في بنائه وتكوينه يشبه الكون، بل أن مادة تكوينه، نفس مادة الكون، فالإنسان خلق من تراب ومن ماء، وهي نفس مكونات الأرض، ولقد أثبت العلم الحديث ذلك، فالعناصر المكون منها الإنسان هي نفس العناصر التي تتكون منها الأرض، فالكربون والأكسجين والفسفور والهيدروجين والحديد وغيرها من العناصر توجد في الأرض كما توجد في الإنسان، ولو نظرنا إلى عنصر الكربون الذي يشكل نسبة ثمانية عشر في المائة من وزن جسم الإنسان، نجد أن هذا العنصر يتغلغل في صخور كوكب الأرض، كما أنه يوجد بوفرة في الغلاف الجوي للأرض، والحقيقة الدامغة أن هذا العنصر البسيط يعد أساس الحياة. لذلك تحري الإنسان لنفسه والبحث عن الإبداع في نشأته وخلقه، يضفي عليه نوع من الجمال والإحساس بعظمته، وقيمته، ويسبغ عليه الإحساس الراقي، فيجعله مرهفًا وجلًا، في تعاملاته مع نفسه وغيره من الناس، بل والحيوانات والجمادات.

ويكون الإنسان راقيًا أيضًا، متى كانت معاملاته مع الناس على قدر من الذوق السليم، وحسن المعاملة، فيصدقهم القول، ويوفي بالعهد، ولا يفحش في القول، ويحرص على عدم ايذائهم بالفعل أو القول، فلا ينطق إلاً بالحسنى، ولا يضمر لهم الغل ولا الحقد ولا الحسد، يحب غيره، كما يحب نفسه، لا يعنف عليهم ولا يقسو، ومتى خاصم لا يفجر، ومتى اختلف لا يحقر، ومتى على لا يدني من غيره، ومتى دنى لا يغمز ممن هم أعلى منه، كل هذه القيم النبيلة، تقربه من الفضيلة، والفضيلة لا يرقى إليها إلاَ من يحمل لقب إنسان، لا يستطيع كائن من كان أن يساوم عليها، أو يحوزها بقوة، أو يبتاعها بمال أو جاه أو منصب أو نفوذ، فالفضيلة، لا تتأثر بمال أو جاه أو سلطان، وليست مشاعًا لمن يدفع أكثر فهي لمن يتحرى الجمال في إنسانيته وتعاملاته، ومن ثم تذعن لصاحب

القيم، وتأبى وتتمنع على من يتجرد منها، فالفضيلة عزيزة المنال، لا يزيدها مال ولا يُنقصها فقر، لا يتمتع بها إلا من كان إنسانًا، ومن يحوز الفضيلة يفيد منها، فيفيد هو مجتمعه ووطنه، بل عالمه كله.

* * *

وجادلهم بالحب والمودة

قالوا الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، فأنت لك رأيك وأنا لي رأيي والنقاش بيننا حول أي قضية هو محاولة لتقريب وجهات النظر، وليس لإبعادها، وإشعال فتيل الخصام والتناحر والتجافي والخصام والتفرق، فالود هو الذي يتوجب أن يبقى مهما كان لاختلاف، وكما قال زكي نجيب محمود «الأصل في الفكر-إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم – هو أن يكون حوارًا بين نعم ولا، وما يتوسطهما من ظلال وأطياف، فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكرًا، ولا القبول الأعمى المطلق يعد فكرًا، ففي الأول عناد الأطفال وفي الثاني طاعة العبيد»

لذلك لا تجعل اختلافك مع أحد، يجعلك تنال من الود، أو تفتئت على الحقيقة، وتجور على الحق، لا تجعل الاختلاف يحتدم إلى خلاف فتجرف الأخضر واليابس، وتستبيح الحق بالباطل، حاور غيرك وجادله بالتي هي أحسن، أدل بآرائك دونما تجريح أو تقريع أو انتقاص من قدر من يحاورك

اجعل مساحة بيضاء للتلاقي بينك وبين من تحاور تطوفون في حلقات من أطيافها، تحاولون الوصول إليها.

من أجل ذلك اجتهد بود، ناقش بسماحة، جادل بمعرفة، لا تسمح لنزغ النفس والشيطان أن يوردوك مورد الصغار والذلة.

وكن صاحب أفق واسع، وفكر راق، وكن كريمًا، واعلم أن الكريم هو من سهل ولان طبعه، وحاور وناقش من أجل نصرة الحق، ولا تكن لئيمًا فاللئيم هو من خبثت عريكته، وحاور وناقش من أجل نفسه.

فالإنسان متى تحكمت فيه أنانيته، تحجب عنه الحقيقة، وتجعل بينه وبينها سدًا أو غشاوة، تحول بينه وبينها، فتجعله يدافع وينتصر للباطل، دفاعه ونصرته للحقيقة، فيستحيل الباطل لديه حقيقة، ويستوي الظلم مع الإنصاف، وتتوه العدالة لديه في وحل ظلمه لنفسه، وبغيه على الحقيقة، وما وصل لذلك السوء، إلاَ باختياره سلوك الانتصار لنفسه، وتفضيلها عن الحق والحقيقة، فلقد أعمته أنانيته، وورثته الصلف والكبر والغرور

ومع تماديه في ذلك الاتجاه، وسلوكه هذا الدرب يخسر كثيرًا، يخسر نفسه، ويخسر من حوله، بل يخسر كل شيء، والخسارة الكبرى هي خسارته لإنسانيته.

ولعمري ما أنزل الشيطان وأسفله إلاّ مجادلته بالباطل، وانتصاره لنفسه به، فلا تصنع صنيعه لتردى، بل جاهد أن تنتصر للحق على نفسك، ونصرة الحق تكون بالإقرار اليقيني بأن الحقيقة المطلقة لا يملكها إلاّ الله.

* * *

لماذا نحيا؟ وكيف نحيا؟

الناس مختلفة الأهواء والميول والمشارب، منهم من يعيش الحياة لا يلوي على شيء إلاّ أن يعيشها، فأقصى طموحه أن يعيشها، لا فرق بين صعبها وسهلها، ومنهم من يعيشها متى كان الدهر ينعم عليه بالسعادة والراحة لكنه يتحيّر وتتفرق به السبل متى قلب الدهر له ظهر المجن، وأراه من عادياته ونكباته ما ينغص عليه هذه الحياة، ومنهم من يعيشها متفكرًا سواء عقد الدهر معه عقدًا بسهولة الحياة، أو خفر هذا العهد ونكبه وعاداه، ففي صعب الحياة ويسرها هم سواء يفكرون ويتساءلون لماذا يحيوّن؟ وكيف يحيوّن، من أجل أن يحيوّن.

ما من أحدٍ إلاّ وتتقاذفه أمواج الحياة، فالجميع تصطلح عليه أنواء الحياة وعواصفها، لذلك من الناس من يفضل السير فيها، غايته أن يعيشها رغم المشقات والإحن والأين والكلال، لا فرق عنده بين صعب وسهل في الحياة فالأهم هي أن يعيشها.

ومن الناس من يحار، ولا يستطيع أن يجابه، إذا ما داهمته المحن والخطوب، فيقف لا يدري أي طريق يسلكها، وأي وجهة يولِّي، وإن أنعم عليه الدهر بالراحة فهو يعرف الطريق.

ومن الناس – وهم قليل- من لا يفتأ يختلس اللحظة تلو اللحظة ليفيء إلى واحة ظليلة، يلتمس منها راحة من كدح ونصب ومن سموم ولوافح عرضت له في الحياة، فيتأمل ويتدبر الحكمة من وجوده ووجود الحياة، فينظر نظرة عميقة لكل من حوله وللحياة، وما يتداول فيها، ربما يجد ما يلامس شغاف قلبه، ويملك كيانه، ويستأثر بروحه، ويخرجه من حيِّز الزمان والمكان إلى زمان ومكان أرحب وأفسح يستغرقه ليدله على الحقيقة، هؤلاء الناس حالهم في سهل الحياة وصعوبتها واحد، ينهل من معين الفكر والتدبر والتأمل.

وأرى أن الأغمار من الناس الذين يعيشون الحياة لا يلوون على شيء، هم من عاشوا في الدنيا بلا تحقيق نتيجة لعيشهم، ظنوا أن في حياتهم تلك السلامة والنجاة، وإن كانوا ظفروا بلذة السلام، فقد حرموا لذة

الشغف والحماسة لعيش الحياة، لم يتأثّر بهم أحد، ولم يتركوا أثرًا، يقتفيه من ورائهم أحد، ومثل هؤلاء من يعيشون الحياة في سلام متى أنعمت عليهم بالدعة والهدوء، يستشيطون غضبًا، ويرسلون التذمر والآهات والتشكي متى سُلبت منهم النعمة، أراهم أشد بؤسًا ونكرًا من النوع الأول، لأنهم غلبت عليهم الأنانية، فصاروا يحبون أنفسهم كثيرًا، بل أكثر مما ينبغي، ولم يكتفوا بعدم تحقيق نفع في حياتهم، أو أنهم لا يتركون أثرًا بعد رحليهم، بل امتدت أنانيتهم أن يعترضوا ويتنكبوا لمشيئة خالقهم، ومن هؤلاء أيضًا يشتق صنفًا متى أنعم الله عليه بمال أو صحة أو رزق، لم يتدبر ولم يتفكر، وانزوى بما لديه، وترفع عن الخلق، بل عن الخالق بعدم حمده وشكره، ومتى سلب الله من هذا النوع هذه النعم من صحة أو ولد أو رزق، تذكر خالقه، فقط لكي يلتمس منه العون أن يعيد له نعمته الضائعة، هؤلاء أيضًا لا وجود لهم يذكر، ولا أثر لهم يترك، أمَّا النوع الثالث والذي يتمسك بعقيدة التفكير، وبفلسفة التدبر في أي حال كان عليها، غنيًا أو فقيرًا، ذائع الصيت أو خامله، حرًا أو عبدًا، فهؤلاء من يحققون نتيجة في حياتهم، ويتركون أثرًا جميلًا، يتتبعه من بعدهم غيرهم، ومن رحم هؤلاء ولد كُلّ أصحاب الرسالات الإنسانية الراقية.

* * *

الفقر هو فقر الروح

كل أنواع الفقر أتحمل إلاّ فقر الروح. إذا كانت الروح فقيرة، فلا تغني أموال الدنيا وكنوزها عنها شيئًا، فالفقر الحقيقي هو فقر الروح، فقر الفكر، فقر التأمل، فقر الحب.

المهاتما غاندي، يقوض حلم امبراطورية عظيمة مترامية الأطراف عتيدة البأس والنفوذ، امبراطورية كانت لا تغيب عنها الشمس «بريطانيا العظمى»

استطاع غاندي بسمو روحه وببساطته وتقشفه، وانحيازه للفقراء أن ينتصر على هذه الإمبراطورية، ليس بالسلاح والعتاد، بل بالكلمة الصادقة وبالحب والسلام، ومن خلال كوخ صغير صنعه بنفسه على ضفاف نهر، ومن خلال عنزة صغيرة كان يتغذّى على لبنها وبعض لقيمات يقمن أوده، كان يدافع عن وجود أمة وعن حرية أبنائها، وبفضل هذه القوة الروحية تمكن غاندي من تحقيق النصر والاستقلال لشعبه وأمته من هيمنة الاحتلال البريطاني.

لدي حلم، أخبرهم يا مارتن عن حلمك، يتحرك مارتن صوب المنصة ويخطب في الحضور قائلا: لدي حلم.. أقول لكم يا أصدقائي لدي حلم، إنه على الرغم من الصعوبات والإحباطات ما زال لدي حلم

«لدي حلم أنه في يوم ما ستنهض هذه الأمة، وتعيش المعنى الحقيقي لعقيدتها الوطنية بأن الناس خلقوا سواسية»

«لدي حلم بأن أطفالي الأربعة سوف يعيشون يومًا ما في دولة لا تطلق فيها الأحكام عليهم للون بشرتهم، بل لشخصياتهم».

«هذا هو أملنا.. دعوا أجراس الحرية تقرع وتنشد أحرارًا في النهاية، أحرارًا في النهاية، شكرًا يا رب، نحن أحرارًا في النهاية»

كانت هذه خطبة «مارتن لوثر كنج» الذي عانى من ألم العنصرية، ومرارة التفرقة والتمييز بين البشر بسب اللون، في موطنه الولايات المتحدة الأمريكية، ناضل هذه التفرقة وهذا التمييز بالحب وبالسلام،

مقتفيًا أثر المهاتما غاندي، بمقاومة الظلم بالحب والسلام، فنادى بنبذ هذه العنصرية، ودعا إلى المساواة، بالكلمة الطيبة، وبعرض أحلامه وآماله على الجماهير، فأسس عقيدته النضالية على السلام والمحبة، مشعلًا جذوتها بالحلم، أنه يحلم بالمساواة، يحلم بأن يتساوى البشر، لا فرق بينهم بسبب لون أو جنس أو معتقد، ولقد قوبلت نداءاته وأحلامه، بالترحيب والقبول من قطاعات عريضة من أفراد الشعب الأمريكي، واستقبلوا وميض حلمه بقلوبهم ووجدانهم، فلقد مستهم المحبة البادية من مارتن، وأسرتهم دعوته المبنية على السلام، فبالرغم من أن دعوة لوثر قوبلت بالرفض من قطاع عريض آخر، إلاّ أنه لم يتوجه إلى القوة، ولم يأمر بالعنف، ولاقت دعوته ونضاله حفاوة كبيرة من السود والبيض على حد سواء، وتجمع الالاف في مسيرات حاشدة يطالبون بتحقيق حلم مارتن لوثر، وقد تحققت أحلام لوثر بفضل غنى روحه، وثراء وجدانه، فالغي التمييز على أساس العرق في التوظيف والتعليم، وتم تحريم الفصل العنصري، وتوج نضال مارتن لوثر بحصوله على جائزة نوبل للسلام، وبعدها اغتالته يد الغدر، لتنال من جسده، لكن ظل أثر روحه وفكره ونضاله كجذور محبة وسلام متعمقة في وجدان الضمير الإنساني.

إن المهاتما غاندي ومارتن لوثر وغيرهم من المناضلين الحقيقين الذين غيروا مجرى التاريخ، بقلوبهم التي تتدفق بالحب، وأرواحهم النقية الصافية الشفافة، أثبتوا بما لا يدع مجالًا لشك أو ريبة، أن الفقر فقر روح وفقر تأمل وفكر وكرامة، وليس فقر مال أو جاه أو عزة أو سلطان أو نفوذ، لذلك بقي غاندي ومارتن لوثر بسيرتهما ونضالهما وبغنى روحيهما الحقيقي، وتعلمنا من سيرتهما أن فقير الروح سيظل عبدًا ذليلًا ولو كان غنيًا، وسيظل أسيرًا حتى لو ظن أنه حرًا. وأن الفقير هو فقير الروح، فقير الحب والفكر والتأمل.

* * *

أهل الوفاء فوق دنيا الناس

ما أجمل أن يكون الحب مقيمًا في حصن أهل الوفاء لا تنال منه قوة ولا سلطة، ولا تغشاه ظنون النفس وهواها.. يستظهر أهل الوفاء هذا الحب لا تمنعهم

عاديات الدهر ولا نازلات الأيام من أن يستظهروه بإيمانهم وقوة أنفسهم، ويمنحوه من وفائهم، فأهل الوفاء لا ينقطع ذكرهم، ولا تنفض ساحة كرمهم، قلوبهم بالحب تخفق، ونفوسهم بالعطاء والكرم تصدح، هم في دنيا فوق دنيا الناس، معانيهم فوق معانيهم، هم تجسيدًا للنور المنبثق من طهر النفس وصفاء الروح، ونقاء الفطرة قبل الهبوط إلى الدنيا.

من أجل القيم الخلقية وأسماها قيمة الوفاء، لأنه يبين مدى إنسانية من يتحلى به، فالإنسان الذي يحافظ على العهد، ويقوم بالوفاء، هو إنسان راق مهذب، ينبع رقيه من نفس نقية، وقلب رحب فسيح، فخلة الوفاء تحمل في طياتها لطيفة الحب والإخلاص، وتبعد صاحبها عن مواطن فساد القلب من غدر وخذلان، وخلف الوعد، ونكث العهد، ولا شك في أن أهل الوفاء يرتقون به مراقي الإنسانية، وللوفاء صور وأشكال متعددة وفاء الإنسان لنفسه، بأن يجعلها دائمًا تحرص على الوفاء، متى كانت الظروف والأحوال، ووفاء الأزواج لبعضهما، ووفاء الشخص لأهله ولوطنه ولإنسانيته كلها، ولعل أجمل ما قرأته في الأثر عن الوفاء هذه العبارة «لا ترم حجرًا في البئر الذي شربت منه» نعم قمة الوفاء لهذه البئر التي تحوي في قاعها الحياة، وعندما أعطتنا الحياة، فيلزم أن لا نكافئها بالإساءة ولو برمي حجر، ولعل الشيء بالشيء يذكر، وقول الرسول المأثور عنه وهو يخاطب جبل أحد بعد أن تقدم إليه واحتضنه قائلًا «أحد جبل نحبه ويحبنا» الوفاء لا يقدر عليه إلاّ أصحاب الهمم والعزائم، وأصحاب القلوب الصافية التي تمتاز بالحب والإخلاص.

ومن أحب منك وأكرم وأوفى يا رسول الله، فمن جميل كرم ووفاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان بارًا بأهله، ليس فقط الأحياء منهم، بل أيضًا الأموات، فكان صلوات الله وسلامه عليه، دائم التذكر لزوجه خديجة رضي الله عنها، لذلك كانت زوجه عائشة رضي الله عنها تغار منها، وهي في غيرتها منها أشد من زوجات النبي اللاتي هن على قيد الحياة، قلت عائشة لرسول الله ذات يوم، عندما وجدته يذكرها دائمًا، ما لك لا تفتأ تذكر خديجة، هل كانت إلاّ عجوزًا أبدلك الله خيرًا منها، فقال

لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا والله، ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء.

* * *

الإنسان هو مقياس نفسه

الناس مختلفة في تقييم تعاملاتهم الناس مع بعضهم البعض، منهم من يقيم هذه التعاملات بالعدل، فيتعامل بالمثل، ومنهم من يقيمها بالعدالة فيراعى حالة كل إنسان، وما يحيط به من ظروف وملابسات.

الإنسان مقياس نفسه، وترمومتر ذاته، ولا سيما في التعاملات الاجتماعية، فإذا رأى من يتعامل معه أغلظ واشتد في تعامله، فهو فقط المقياس الوحيد لنوعية هذا التعامل، فإذا كانت غلظة هذا المتعامل وحدته عفوية نابعة من نفس لا تضمر شرًا أو إساءة، أو نتيجة ضغوط عمل أو حياة، أو سوء تقدير، وكلها تفتقد إلى نية تعمد الإيذاء النفسي والمعنوي، فعليه أن يتغاضى بكل قناعاته، ويذهب إلى العفو والتسامح والرضا، وأن يتحمل ذلك حفاظًا على الود والمحبة وحفاظًا على اللحمة الاجتماعية ونشر قيم الجمال والمحبة والسلام، أما إذا رأى من يتعامل معه عكس ذلك، فكانت غلظته وحدته متعمدة ومقصودة وأن مشاعره الحقيقية مع من يتعامل معه هي أن ينزل من قدره، ويحط من شأنه، ويتناوله بالإساءة والغمز والهمز واللمز، ويفرط في إيذائه، يتوجب على من يتعامل معه أن يبعد عنه ويتجنبه، إيثارًا لكرامته، وحفاظًا على كيانه وذاته، وراحة لفؤاده، ويصفح عنه ولا يعامله بنفس معاملته ويكن كريمًا، لأن الكريم هو من لان طبعه، وصفت نفسه، واستعلى على النقائص والبذاءات، يقول تعالى «فأصفح عنهم وقل سلام»

على الإنسان أن يسامح فيمن جهل عليه بدون عمد أو قصد، لكن إياه أن يسامح فيمن يجهل عليه بعمد وقصد وسوء نية، لأنه إذا سامح هذا المعتدي المتعمد، فسيفسح له الطريق لاستغلال ضحاياه من المتسامحين، لذلك فالإنسان مقياس نفسه، وترمومتر ذاته، وهو الوحيد القادر على تحديد طبيعة من يتعامل معه، وفي ذلك كلما كنت أتصفح سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، كنت أجد من أهم صفاته الجليلة

كلها، والتي كانت سببًا رئيسًا في نشر دعوته هي صفة الحلم، فقد أسر القلوب بحلمه وعفوه صلى الله عليه وسلم، فقد كان شديد الحلم مع من يجهل عليه، يعفو عمن ظلمه، لذلك مدحه ربه قائلًا «ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» فهذا دليل على مدى ما كان يتمتع به الرسول صلى الله عليه وسلم من حلم وعفو، وقد حرص الرسول على العفو عن أسارى غزوة بدر اللذين ليس لهم فداء يفتدون به من الأسر بأن يقوموا بتعليم أبناء الأنصار الكتابة ويكون هذا فداءهم من الأسر.

* * *

خدمة الوطن فريضة

خدمة الوطن فريضة معلومة من الشرف والدين بالضرورة.

هناك بونٌ شاسعُ بين مسئول يعمل على خدمة وطنه وشعبه، وقد يصل الأمر به أن ينفق جلّ وقته في ذلك، ويتفانى ما استطاع التفاني إعمالًا لهذا المبدأ الراسخ بأن العمل على خدمة الوطن ورفعته والذود عنه هو فريضة، وبين مسئول آخر، يفرح بمنصبه ويتيه به ويفاخر، ويصعر خده ويمشي مرحًا مختالًا مزهوًا، يغلّب عناد الأطفال ونزق المسئول على حكمة الرجال، ولا يراع المبادئ التي كان يتوجب عليه أن يراعيها ويتحلّى بها في عمله وخدمة وطنه.

المسؤول الأول: غلّب مبادئ الشرف، وعمل بها بحب وكرامة في تأدية واجبه تجاه وطنه، وهو في رأيي فارس نبيل، لأنه قدم خدمة وطنه على أي اعتبار آخر، وقدمه على ذاته ومصلحته.

أمّا المسؤول الثاني، والذي غرّه موقعه ومكانته من المسئولية، وقامر بمبادئ الشرف ترضية لمصالحه وإشباعًا لعناده، فراح يستغل موقعه من المسئولية في غير موضعه، فيحيق الأذى بالناس، ويعثو في وطنه الفساد فهو في رأيي مسئول ضحل مجرود من العلم والنضج والثقافة والإنسانية والدليل تقديم ذاته ومصالحه على وطنه، وعلى شرف المسئولية الملقاة على عاتقه واعتبارها تشريفًا وليس تكليف وواجب يلزم بأدائه والقيام به وفقًا لمعاني الرجولة والشرف.

أرى أن الوطن إذا كان يملك من النوع الأول الكثير، فهو وطن آمن لا يخشى عليه، أمّا إذا كان النوع الثاني في زيادة واضطراد، فهذا ينبئ على أن أمن الوطن ورفعته وتقدمه على المحك.

وقد كان من أهم أسباب سقوط أتحاد عظيم ودولة قوية كالاتحاد السوفيتي في تسعينيات القرن الماضي، هو وجود مسئولين ضعاف الفكر والرؤية لا يعرفون غير الصلف والتنطع والكبر، وقد ساعد وجود مثل هؤلاء في أروقة سدة الحكم، والمناصب القيادية والتنفيذية

في هذا الاتحاد، على انهياره، فلقد استشرى الفساد والجهل، مما أدى إلى اختلال التوازن وعدم وجود رؤية، مما مهد الطريق لهذا السقوط، وإن كان هناك أسبابًا قوية أخرى عجلت بسقوط الاتحاد السوفياتي، فإن أهمها في عقدي فساد المسئولين، وانعدام فكرهم، وضعفهم الإنساني قبل الوظيفي، وأرى أن أي مجتمع أو دولة، لا تولي اهتمامها بموظفيها وعمالها، وأصحاب القرار، سيكون لذلك عواقب وخيمة، ففساد المسئول وجهله، يقضي على أمم، والعكس صحيح، اختيار المسئول على أساس الكفاءة والعلم سيجعله حريصًا على أداء دوره بحب وإخلاص، ويتفانى بعظمة الكبار في التواضع في خدمة وطنه وأبناء وطنه.

* * *

هؤلاء هم الصفوة

يداوون أنفسهم من الهموم والأحزان، يفتحون لأنفسهم طرقًا يسلكونها يلتمسون فيها معاني الصبر والسلوان على ما ألم بهم من ملمات وأحزان، لذلك عندما تراهم تجدهم باسمين متطلقًين، وكأنهم لا يعانون من شيء، ولو تركوا مساحة لتتطلع على حقيقتهم لوليت فرارًا ولملئت نفسك من أجلهم حزنًا وهمًا وكمدًا.

هم ولا شك صفوة الناس، فرغم ما يثقلهم من هموم وأحزان، تكلّفوا السرور، حتى لا يسببوا لغيرهم التعاسة، ولا يصدرون لهم اليأس والقنوط.

هؤلاء يشرفون على الحياة والابتسامة عالقة على ثغرهم لا تفارقهم، يقبلون على الدنيا متطلقين الوجه، يراهم الرائي فيغبطهم على حالهم، مغترًا بابتسامة ثغرهم وتطلق وجههم، ربما لو أمعن هذا الرائي قليلًا، وكشف عن أنفسهم، ووجوههم الباسمة المتطلقة لاسترد غبطته إلى نفسه، وترشف من القناعة ترشفًا تجعله يرضى عن حاله.

وهؤلاء في نظري هم المجاهدون حقًا، لأنهم يحاولون أن يعيشوا الحياة بسلام، لا ينغصون عيشهم، ولا عيش من يتعامل معهم من أهلهم وذوي قرباهم وأصدقائهم وكل من يعرفهم، فهم رغم ما يقاسونه من آلام، وما تنطوي عليه ضلوعهم من أحزان، يفضلون النأي بأنفسهم من حرج الشكوى للناس، وبثهم ما يشعرون به، ويرون أن النأي بأنفسهم عن ذلك فيه مصلحتهم، ومصلحة من يتعامل معهم، فهم يحرصون على أن لا تكون شكواهم إلاّ لله، لعلمهم أن ما يعانونه من آلام وأحزان هو من عند الله وأنهم مبتلون بها، فيصبرون عليها حتى يبددها الله عنهم، وهم بذلك يتعبدون لله بالرضا والحمد على ما أنعم به عليهم في السراء والضراء.

وما أكثر الأمهات اللاتي ينطبق عليهن هذه المداواة للجراحات التي تثخن في قلوبهن الجراح، وهذه الابتسامات التي تخفي الآلام التي تنطوي عليها ضلوعهن، فكم من أم تعاني الفقر والحرمان تنكب لها

الدهر ولفحتها نوائبه، لا تملك من الدنيا طارف ولا تليد، لكنها تكافح كفاح الفرسان، تحمي فلذات أكبادها، فلا تعبأ بحرٍّ ولا زمهرير، تمشي في الأرض وتسعى في مناكبها، تلتمس قوت عيالها بعرقها، تعمل بدون كلل ولا ملل، مهما كانت طبيعة العمل، طالما كان مشروعًا وشريفًا، تأبى الضعة والهوان، وتعتصم بالإباء والعفة، دمعاتها عزيزة، تظهر جلدة قوية أمام أبنائها كالجبل الأشم، وحالما تخلو وتنفرد بنفسها، وتأمن عيونهم، ترسل نفسها على سجيتها، وتخلع عباءة الرجولة، وتخاطبها غريزة الأنثى الضعيفة المهيضة، فتعتمل في نفسها كل أحاسيس العواطف والشجن، وسرعان ما تنهمر من مآقيها دموع غزارٌ تنفث عنها ما تحتسبه من أحزان، وما طوته روحها من آلام.

هذه الأم في خلوتها تكون كالأرض، ينفث عنها تدفق البركان ما يسبب لها الصدع والانفجار.

تبكي الأم ما شاء الله لها أن تبكي لتفرّج عن نفسها وروحها، لكنها ولعظمتها تتوقف عن البكاء، وتداري السيل المنهمر من مآقيها، وتطفق بردائها تمسح دموعها، وتضحى كالشمس المشرقة تتطلق بالابتسامة عندما يدخل عليها أحد من أبنائها، ويتلألأ النور في وجهها تلألؤ الشمس المشرقة المنيرة، كي لا يلم أبناءها بشأنها ولا يطلعوا على ما يلم بها، فرغم ذبولها وآلامها إلاّ أنها ومن أجل فلذات أكبادها تستحيل إلى زهرة يانعة جميلة، ورغم ما يحيطها من شوك تستحيل إلى روضة خضراء مورقة كي تشعرهم بالسعادة والأمن والأمان.

* * *

لماذا تستعصي مشاكلنا على الحل؟!

المشاكل والتعقيدات سنة كونية، وهي من دواعي الوجود الإنساني فالإنسان عندما هبط إلى الأرض، هبطت معه معاني سعادته وشقائه وأودع الله فيه عقلًا يستطيع أن يتغلب به على ما يعترضه من مشاكل وصعوبات فالحياة الدنيا ليست جنة كل شيء فيها سهل يسير، تحفها السعادة والدعة والاستقرار، وتغرد في سماواتها السعادة الأبدية، بل الحياة الدنيا شقاء فيها الاضطرابات والقلاقل والأزمات والمشاكل والإنسان بما وهبه الله من عقل يستطيع أن يتكيف مع هذه الحياة، من خلال إيمانه بأنه يعيش حياة ليست جنة، تعتورها الأزمات والمشاكل، وعليه أن يجد حلول لها إذا ما اعترضته.

إذن كل مشكلة في هذه الحياة يوجد لها حلّ، متى حكّمنا عقولنا، ومتى كانت لدينا الشجاعة والعزم والمضاء على حلها، فكما يقولون كل عقدة لها حلّال، لكن المشاهد على أرض الواقع، أن أغلب مشاكلنا تستعصي على الحل، فلماذا هذا العصيان؟ تستعصي مشاكلنا على الحل، إذا انزوينا، وتقوقعنا على أنفسنا، لا نواجه المشكلة، ندفن أنفسنا في الرمال، جبنًا واستخذاءً، أو ظنًا منّا أن في ذلك الانزواء والتقوقع السلامة، فلا نواجه ولا نجابه ولا نفكر للبحث عن حلّ، مفضلين الجبن والانزواء عن الظهور والمواجهة، ظنّا منّا أن في ذلك السلامة، وهذا عين الانهزامية والجبن، لذلك تستعصى مشاكلنا على الحل، لتعقد طبائعنا، لجبننا، وتفضيلنا البعد والانزواء والتقوقع، لا نواجه، ولا نعمل العقل والفكر، والنتيجة تغشى قلوبنا وأرواحنا الغشاوات، ونستسلم لجحيم مشاكلنا.إن المشاكل ليست لها قوة ذاتية، تحملها على التعقيد وعدم الحل، وإنما نحن من نعطيها هذا المفهوم، وهو مفهوم خاطئ، لأن تعقيد أي مشكلة ليس لجبلة فيها، أو سر من أسرارها، وإنما تعقيدها، ينبع من تعقيدنا نحن، تعقيد طبائعنا، لذلك ما استعر الشر ولا استفحل، ولا نما الطغيان وتجبر، ولا عثا الفساد وانتشر بقوة ذاتية فيه، وإنما نحن من نمنحه هذه القوة وهذا الانتشار، نحن من نصنعه على

أعيننا، بسلبيتنا، بخوفنا بطمعنا، بأنانيتنا بالتسليم والخنوع، بتغليب عوامل الاستقرار المحفوف بالمهانة على قيم الحرية والكرامة.

* * *

العبودية هي أن تذعن للقانون خوفًا من العقوبة

إن الانصياع والامتثال للقانون كرهًا خوفًا من العقوبة هو عبودية، أمّا الامتثال له طواعية امتثالًا للأخلاق وبوازع من ضمير هو مطلق الحرية.

قد يذعن البعض للقانون فيمتثل له ولا يخالفه جهرًا مخافة العقوبة، وربما لو أتيحت له الفرصة في الخفاء أن يتعدى عليه ويخالفه لفعل، طالما لم يره أحد، وطالما هو في مأمن من العقوبة، مثل هذا يعد عبدًا لنفسه وهواه، حتى إذا امتثل وانصاع للقانون، ولم يجر مخالفة طوال عمره مخافة العقوبة، فهو لم يكن حرًا قط.

أمّا من يمتثل للقانون ويستوي عند السر والعلن فهو حر، فالإيمان بأن مخالفة القانون هي إثم وذنب سواء في السر أو العلن في رأيي هي الحرية

فالحرية هي أن تمتثل للقانون استجابة لضميرك وخلقك، وليس خوفًا من عقوبة أو جزاء، ولعل القصة الشهيرة للأم وابنتها «قصة خلط اللبن بالماء» خير مثال على ذلك، فأثناء تجوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ليتفقد أحوال رعيته، سمع أمًا تقول لابنتها اخلطي اللبن بالماء لكي تزيد من اللبن، ومن ثم يعود عليهم بالربح، فأبت البنت وامتنعت امتثالًا لقانون كان قد سنه الحاكم عمر بن الخطاب بمنع خلط اللبن بالماء، فإذ بالأم تقول لابنتها: إن عمر لا يرانا، فردت عليها ابنتها بالعبارة الخالدة «إن كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا» إن امتثال هذه الفتاة للقانون الذي سنه عمر بن الخطاب ليس خوفًا من العقوبة، بل من وازع من ضميرها وإيمانها بالله، وبما خلقه الله في نفسها من فطرة وحاسة خلقية جعلتها تميّز بين الخير والشر والحسن والقبيح.

إن التحلّي بالأخلاق والتمسك بأهدابها، يجعل المخاطب بالقانون ممتثلًا له طواعية واختيارًا، لا يرهب عقوبة ولا جزاءً، وهو بذلك حرًا طليقًا يطوف نحو الكمال الإنساني، أمّا إذا أذعن وانقاد للقانون خوفًا من العقوبة والجزاء، فهو في رأيي ليس حرًا، لأنه اضطر للامتثال للقانون مرغمًا ومجبرًا، وأنه لولا الجزاء والعقوبة لتهرب من تطبيق القانون واحترامه يقول الفيلسوف اللورد شافتسبري«أنه على الإنسان أن يكون شريفًا مهما واتته الفرصة ليكون دنيئًا، ولو بعيدًا عن الناس».

وهذا يبين أن الأمر الأخلاقي النابع من الضمير أو الفطرة أهم من الأمر الصادر من القانون، فالأمر الصادر من القانون إذا امتثل إليه الإنسان مرغمًا أو لأنه لا خيار أمامه إلاّ الامتثال إليه خوفًا من جزاء أو عقوبة، فهي بلا شك أخلاق العبيد، وإن من أمتثل للأمر استجابة لفطرة أو ضمير فهي أخلاق الأحرار، وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم وجهه قولًا مأثورًا يقول فيه «إن قومًا عبدوا الله خوفًا فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا الله طمعًا فتلك عبادة التجار، وإن قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار»

* * *

لماذا نحنّ إلى طفولتنا؟

الإنسان بطبعه يغلبه الحنين إلى الماضي، وحنينه إلى ماضي الطفولة أشد فلماذا الهُيام والحنين إلى الطفولة؟

لأن في الطفولة لم يتفتح الوعي بقدر ما تفتحت القلوب للحياة، لا تداعيات لقلق ولا توتر ولا اضطراب.

قالوا «إذا أردت أن تكون سعيدًا فجالس شيخًا مُسنًا أو طفلًا، فالشيخ لم يعد لديه ما يخسره، والطفل مقبل بشغف البراءة نحو الحياة»

لقد غمرتني السعادة، ورأيتني مقبلًا ومبتهجًا لقراءتي هذه العبارة، وتنامت سعادتي وازدادت، وحفني الشجن والحنين إلى الطفولة.

غلبني الحنين إلى الالتفاف والتحلق حول أصدقاء الطفولة، والذي كان التفافًا ملائكيًا، لا يعرف التطاول أو التفاخر أو الزهو، تجمع ليس فيه مصالح ولا منافع، بل كانت غايته مطلقة وهي الحب.

الحب الذي كان يستغرق الزمان والمكان، لا تحُده حدود أو أُطر، بل كان متناهيًا وغير محدود، ولشد ما أذكر هذا الفزع الجليل عندما كنّا نتراص جنبًا إلى جنب لنتسامر ونتفكه، وتتعالى ضحكاتنا الصافية الراقية، والتي لم تشوبها شوائب الحياة.

كنّا نستمتع بالراحة لسماعنا وإصغائنا لنُتفٍ من قصص وحكايات منها الواقعي، ومنها المغلف بالخيالات والأساطير، وإن كانت للأساطير والخيالات وهجًا وبريقًا، ووقعها على النفس أكثر إبهارًا وجمالًا، فكانت تملك علينا الأرواح والقلوب، كانت راحة تمتح من حب، وليست راحة بعد قلق، فالاتجاه العام والعقيدة السامية في هذا الوقت هما الحب والتسامح والإخلاص.

أجواء الطفولة سهلة بسيطة معطرة بالجمال، ومزينة بالألوان، متسربلة بالسحر، كنا فيها لا نتردد ولا ننكر، وما كان ينبغي لنا أن نعرف التردد والنكران، وأنّى كان لنا أن ننكر أو نتردد في النهل من معين هذه الأحاسيس العذبة الشجية، الصافية والنقية كماء الغدران.

* * *

الطفولة هي الأمان والطمأنينة

عالم الطفولة يُختزل في الأم، فمنها يبدأ، وعندها يكون، وحولها يستمر لذلك عالم الطفولة كالأم هو محط الطمأنينة ومستودع الأمان.

في عالم الطفولة يتجسد الجمال الإنساني ويكتمل، هذا العالم الرحب الفسيح مترامي البراءة، حيث لا يوجد قبحًا، ولا يعرف معنىً غير الجمال الأطفال فيه يبصرون كل شيء بفطرتهم، فالطبيعة بك ما فيها، وبكل ما تحتويه، تترك فيهم أثرًا شاجيًا عذبًا، فالورود تبعث فيهم البهجة والسعادة وتزيدهم أغاريد الطيور وألحانها فرح على فرح، والحيوانات الداجنة والأليفة يسرحون معهم ويلعبون، يتحدثون بلغة الطبيعة، يحنون على بعضهم بحب نابع من الفطرة السليمة.

كل شيء يسعدهم، يفرحون بالسماء، ويحبونها صافية كانت أو غائمة، ممسكة أو ممطرة، يحبونها بشكلها وما بها، وما تزدان به، ولطالما التحفوها في أمسيات الربيع وليالي الصيف الساحرة، فيطيلون النظر إلى صفحتها، يودون أن يعرجون إليها كي يلعبون بالنجوم ويستولون على القمر. يحبون السماء، ولا يعرفون معنى الوداع، ولا معنى أن تودع السماء كل مساء آخر شعاع للنهار!

يحبون الورد، ولا يعرفون معنى أن يحاصر الورد الشوك، فهم لا يعرفون معنى الشوك!

يتجمعون في ليالي الشتاء لسماع القصص والحكايات، ويسافرون بعيدًا يحلقون في سماوات وعوالم السحر والخيال الغير متناهية ولا محدودة.

وكما كل إنسان يحنّ إلى أمه سواء كانت موجودة معه، أو فقدها، ومن يفقد أمه يكون الحنين إليها أشد، نحن إلى الطفولة، وسبب الحنين إليها أنها لا تعرف إلاّ الفرح، فلا معنى للحزن، لا معنى للقلق واليأس والاضطراب فالطفولة لا تعرف أنه يوجد من يستتر بالليل المحروم من قبلات النهار! ولا تعرف معنى هبوب عاصفة الذكريات لتؤجج أمسيات الشتاء الباردة بالحنين نحن إلى الطفولة لأنها لا تعرف معنى أن تكسف

الشمس أو يخسف القمر! لا تعرف معنى الابتلاء بالحنين!، فالطفولة كما الأم أمان مطلق.

* * *

الأخلاق هي نبض الإنسانية

إن الأخلاق هي نبض الإنسانية وعماد وجودها، والإنسان الذي تنبعث منه صفات الأخلاق، حريّ به لقب إنسان، فليس كل كائن حي من البشر يستحق هذا اللقب

روي عن فضيلة الشيخ «على الطنطاوي» أنه قال: رأيت ابنتي البارحة تأخذ قليلًا من الفاصوليا والأرز ثم وضعتها في صينية نحاس، وأضافت إليها الباذنجان والخيار وحبات من المشمش، وهمت خارجة، فسألتها لمن هذا؟ فقالت: أنه لحارس العقار، فقد أمرتني جدتي بذلك، فقلت: أحضري بعض الصحون، وضعي في كل صحن نوع من الطعام ورتبي الصينية، وأضيفي كأس ماء ومعه الملعقة والسكين، ففعلت ثم ذهبت، وعند عودتها سألتني لماذا فعلت ذلك؟ فقلت إن الطعام صدقة (بالمال) أما الترتيب فهو صدقة (بالعاطفة)، والأول يملأ البطن، والثاني يملأ القلب، فالأول يُشعر الحارس أنه متسول أرسلنا له بقايا أكل، أمّا الثاني فيُشعره بأنه صديق قريب أو ضيف كريم، وهناك فرق كبير بين عطاء المال وعطاء الروح، وهذا أعظم عند الله وعند الفقير.

ويقول: «أبو عُيّينة» الكاتب المعروف في الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: اختلفت إلى القاضي أحمد بن داؤود، أربعين عامًا فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي خذ بيده، بل يقول أخرج معه يا غلام. إن الشيخين ابن داؤود والطنطاوي، ورغم التباعد الزمني والمكاني والمجتمعي إلاّ أنهما اقتربا والتقيا في نقطة واحدة رغم هذا التباعد، هذه النقطة هي منطلق الجلال الإنساني، وهي الظل الظليل الوارف الذي ينطلق منها كل من يحاول أن يصل إلى الكمال الإنساني.

ولاريب أن الشيخين ضربا لنا مثلًا في ثقافة التعامل مع الناس واحترام مشاعرهم، وأن احترام مشاعر الناس فضيلة كبرى لا يتحلّى بها ولا يمارسها إلاّ ذو الخلق الرفيع الرافد من نبع الفطرة، هذبه وأصّله وزكاه الدين. إن الإنسان صاحب الخلق هو من يتسع أفقه ووعيه وإدراكه عند التعامل مع كل الخلائق، فيكون سمحًا طيبًا عطوفًا رحيمًا، يترك أثره

على من يتعامل معه، ولهذا فالأخلاق هي نبض الإنسانية، وهي وتين قلبها، وبها تكون الإنسانية وبدونها تنزوي الإنسانية، بل تذبل وتموت.

* * *

وقفة تأمل

التوقف للحظات وأخذ استراحة من مضمار الحياة، هو أمر متطلب بشدة لكي نستطيع الاستمرار بدون تعب أو مشقة، وكي لا يرهقنا الزمن وما في وعائه من أحداث.. الوقفات القصيرة مع النفس لطالما تسفر عن نتيجة طيبة، تجعلنا ننظر إلى الحياة بصورة مختلفة أكثر وضوحًا وشفافية، أفضل بكثير من الصورة التي نراها ونحن نجري في مضمارها دون توقف.

نحتاج إلى وقفة تأمل، وقفة مع النفس، فمضمار الحياة طويل، والجري فيه دون توقف سوف يهلك قوائمنا، سوف يرهق أرواحنا، لذلك نحتاج إلى لحظات سكون وطمأنينة بعد قلق وحيرة واضطراب.

نحتاج إلى نظرة عميقة، نجب بها النظرة العابرة والتأملات الخاطفة، نحتاج إلى الحديث مع النفس الغريبة الغائبة ربما تحن ّ، حديث فيه إقبال ومصارحة ومكاشفة، نتخلى فيه عن العلائق والمتعلقات، ننفض عنه آلام الحياة وملماتها.

نحتاج إلى نور الحكمة، يشفينا من عضال العبث، لا شواغل ولا حوادث ولا محاكاة لهم، ولا اختلاق لغم ولا هم ولا استسلام لوصب ولا نصب.

نحتاج إلى بعث للخيال نرحل معه، ونسافر إلى عوالم الأمل نسبر غورها ونستميلها ربما تمنحنا الراحة والسكون والأمان في أدواحها، وتحت ظلالها.

نحتاج ابتسامة أمل، لا صرخة يأس وضجر، نحتاج أن نلوي كاحل العتمة ونقذف بأنفسنا في هدأة الحياة، ومستقر سلامها وهدوئها، نصاحب الحنين، ونتصفح الجمال في أسرار الكون، نحادثه، نفضي إليه بما تيسر لنا من حديث الحب والأمل ربما يحن ويطلعنا على سر الحياة.

لذلك التوقف للحظة مع النفس تسفر عن ومضات إيمانية، تجعل الإنسان يحاسب نفسه، يفعل ضميره ويؤنبه، يحزن على ما فات ويتداركه، بأن يفعل الأفضل في الحاضر والمستقبل، وأهم ما في لحظات التوقف هو تذكر أصل القضية وسر الوجود.

الأم والصلاة يهبانك كل شيء بدون مقابل

اثنتان فقط، تهبانك كل شيء بدون مقابل، إحداهما تتجلى عليك شمس مشرقة تُنير ظلمة حياتك، وتصلك بأسباب النعيم الخالد، والأخرى هي نعمة الخالق إليك، وهي من تهبك الحياة، كلتاهما يعرّجان بك إلى السعادة الأبدية إذا قدرتهما حق قدرهما، أمّا أولاهما فهي الصلاة، والثانية هي الأم.

الصلاة أجلّ العبادات، وهي عبادة تؤدى وتقام، وكثير من الناس يؤدونها لكنهم لا يقومونها، وهناك فرق بين الأداء والقيام، فالأداء أن تؤدي حركاتها من قيام وركوع وسجود في المسجد أو أي مكان تتخذه مصلى أمّا القيام فهي أن تنعكس صلاتك على حياتك فتعمل الخير والمعروف، وتتجنب الشر والمنكر، وتحسن تعاملك مع الناس، والصلاة من يؤديها ويقيمها أدركته رحمتها وجلالها وإشراقها، أما من يؤديها فقط فيحرم من نعيمها.

والأم هي الحياة، هي سبب وجودها، هي الوجود، وتضيف له وجودًا آخر من حنانها وروحها الطيبة، ومن نفسها الجلدة التي خلقت لتتحمل الآلام والمشقات، فالوجود يتسع بوجودها، وإذا كان الوجود يعرف معنى السعادة، فإنه يعرف زيادة هذه السعادة وتضاعفها لوجود الأم، فالأم تمنحنا الحياة والوجود، وهي في ذلك كالوردة تمنحنا عطرها بدون مقابل ويظل عطرها يلازمنا في الحل والترحال، في الحضور والغياب، فعطرها سرمدي لا يريم ولا يفنى، لأنه يظل قابع فينا ما بقيت الحياة، والسر في ذلك العطر أنه يستمد تأثيره وفاعليته من نور الله، ويظل نور الله يلازمنا بقيت الأم في الحياة، وفي غيابها يخفت، لذلك سنظل في حضور الأم أطفالًا ولا نعرف البلوغ والهرم الحقيقي إلاّ برحيلها.

تشرق دنيانا بوجودها، وتغرب ويخبو نورها إذا رحلت عنّا، بها ينمو ويزدهر العالم، ومن غيرها يتراجع ويضمحل وينحسر، هي كل حدود الدنيا ونهايتها.

ونحن في حضور الأم أطفال نيّفنا على المئة، وفي غيابها بالغين ولو كنا نحبو

الصلاة والأم يهبانا كل شيء بدون مقابل، إذا قدرناهما حق قدرهما ومنحناهما من أنفسنا العناية والرعاية والاهتمام، فلسوف يتجلون علينّا بالراحة والهدوء، وسوف يصلوننا بأسباب الرحمة، فهما وبحق النعيم الخالد.

* * *

طف حول الكمال الإنساني وكن حليمًا

من يروم أن يصل إلى الكمال الإنساني فعليه بالحلم والأناة والعمل، وأن ينهل من مراشف الحب والسلام، ويتغاضى عن الجاهلين، ويعرض عن ضعاف العقول، فبلوغ العلى يستأهل الحكمة وتحمل الصعاب.

يقول تعالى «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا»

هناك البعض من الناس ما يكون لديه قصور في النواحي الإنسانية ، فيحكم على الآخرين بمنطقه ووفق رؤيته، دون أن يتحرّى الموضوعية في حكمه فينتقد من أجل الانتقاد، بدون سبب أو مسوغ يحمله على ذلك الانتقاد، إمّا لحقد تغلي به نفسه، وإمّا لغلبة الطبع السيء فيه، فيشهر وينكل ويسوم الخسف، غير مراع في ضحيته إلّا ولا ذمامًا، من يفعل ذلك يعتقد أنه انتصر لنفسه، ولا سيما إذا رأى من ضحيته استسلامًا ونكوصًا بعدم الرد، فهذا الواهم يرى في صمت ضحاياه وإشاحتهم عنه نخب الانتصار ويظل في وهمه وغيه سادرًا، ولا يعرف أن عدم الرد عليه من قبل ضحاياه ليس مرجعه ضعف أو خذلان، أو نكوصًا كما شبه له، بل هو قوة وجسارة فعدم الرد عليه هو قمة التسامي بالنفس من أن تنزلق إلى غياهب التدني والسقوط في بئر الظلمات، وعدم الرد نابع من كونهم أبصروا النور، فلا يريدون أن يسلبون هذه النعمة، والنور هو «الحقيقة»

لذلك فالإنسان الذي يفطن إلى الحقيقة ويستوعب كنهها ومراميها، ويتذوق حلاوتها، يلازمها ويتسربل بها، ويتمسك بناصيتها، ويألو على نفسه أن لا يبرح ساحتها أبدًا، لهذا لا يلقي بالًا أبدًا لأصحاب النفوس الضعيفة الذين اهترأت قلوبهم من الغل والحقد والحسد، لأنه يرى أن هؤلاء هم في أشد الحاجة إلى من يعزيهم في أنفسهم، لأن هذا الضرام والسعار أحرقهم وجعلهم كأعجاز نخل خاوية، لا يقدرون على شيء، والعاقل الأريب هو من يعمل في صمت، ويجتهد في عمله، ولا يرجو المثوبة إلاّ من الله ويعلم أنه لن يبلغ الأيفاع إلاّ بالصبر والحب والتغاضي عن السفهاء، وتحمل الالام، وبث روح السلام

* * *

يتجلى الله بالحكمة على المخلصين

الحكمة هي نور الله تعالى يتجلى بها على من يشاء من عباده، ويمنحها لمن تخلى عن علائق الدنيا وأدرانها وشوائبها، وتحلّى بالعبودية لله وحده لا سلطان عليه من أحد، يحب في الله ويبغض فيه، لذلك من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا عظيمًا، لذلك نجد أن أهل الحكمة هم أُناس ربانيون ملهمون إذا أقسموا على الله لأبرهم، لأنهم عرفوا فضله واستوعبوا تعاليمه فحقوا الحق ودحضوا الباطل، لم تستميلهم الدنيا، ولم تستطع محايلتهم فانتصروا للضعيف من القوي، وحموا القوي من نفسه، لم يعيثوا في الأرض فسادًا، إذا مُنحوا لا يتغطرسوا ولا يتكبروا، وإذا سلبوا لم يتأففوا ولم يتملقوا ولم يراءوا، خيرهم دائمًا لغيرهم ولمجتمعهم ووطنهم وعالمهم، ديدنهم الإثرة والكرم، والحلم والأناة من سجاياهم، وخير من أوتي الحكمة الأنبياء، ويأتي من بعدهم الصالحين من الناس، وهم من تصالحوا مع أنفسهم ومع الناس، ومن قبل ذلك مع الله، لذلك فلا نجد كائنًا واحد مهما كان، وكان يتمتع بالحكمة إلاّ وكانت تجليات الله ورحماته تفيض عليه وتستغرقه، فالحكمة نور من الله تعالى يمنحها من اختص ومن اختار من صفوة خلقه، وجاء هذا الاختيار بعد علمه الأزلي أنهم سوف يكونون أهلًا لهذا الاختيار.

لذلك فالحكمة يتجلى الله بها على عباده المخلصين، ومن يتحلى بها يكون محبًا راقيًا مسالمًا الحب مبدأه والسلام ديدنه وعقيدته، هذه الحكمة من يملكها يكون إنسانًا عف اللسان، كريم الطبع، يسلم الناس من لسانه ويده هذه صفاته، أمَا من يدعي الحكمة يتخبط دائمًا، ويخيّل إليه أنه ملهم من السماء، وهي في الحقيقة تجليات شيطانية، يتجلى بها الشيطان على عبيده وخاصة المخلصين منهم، وهم بهذا الادعاء للحكمة ما يروجون إلاّ للعبث، لذلك تجد من صفاتهم النفعية وتقديم المصالح، ولا يسلم من لسانهم وبذائتهم أحد.. فبادعائهم الحكمة ما كان إلّا ترويجًا للعبث.

الاختلاف الحظوظ والمواهب سنة كونية

ليس كلنا حكماء، هذا هو المنطق الطبيعي لسنة الخلق، فالتفاوت والاختلاف بين الناس هو سنة كونية أصيلة، فالله لم يخلق كل الناس بمواهب واحدة، فمواهبهم وحظوظهم مختلفة، وما فعل الله ذلك إلاّ لحكمة ولا شك أن من يحاول الإفتاءات والتجني على هذه الحكمة فقد ضل الحق.

الحقيقة التي لا مراء فيها ولاشك هي التفاوت والتباين في حظوظ الناس ومواهبهم في أي بقعة من بقاع الأرض، وفي أي مجتمع من المجتمعات، فهذا الاختلاف والتباين أمر حتمي للوجود والتقدم والاستمرار.

هذا التباين بين الناس في الكفاءات والقدرات والحظوظ والمواهب لا يقدح في إنسانية أحد، فالناس أصلهم واحد، والجميع عند الله سواء، وما سن الله هذا التباين إلا لحكمة، وهذا التباين والتفاوت ليس له أدنى تأثير على مكانة الإنسان الذي لم يؤت نصيبًا من الحظوظ والمواهب ولربما يكون هو أفضل عند الله من وهب هذه الحظوظ، فالإنسان باعتباره عبدًا لله سوف يسأل عن كل ما يفعله في دنياه وفقًا للخطاب الذي وجهه الله تعالى إليه وما يتضمن من أمر ونهي

فالجميع باختلاف مواهبهم ومشاربهم وتوجهاتهم لسوف يسألون أمام الله، لا فرق بين صاحب المواهب وقليلها، لا تفاضل بين الناس وفقًا لاختلاف مواهبهم، وإنما يكون التفاضل بينهم وفقًا لعملهم وما بذلوه في حياتهم

لذلك فإن صاحب الفضيلة والمكارم والأخلاق الطيبة والعمل الصالح هو أعلى شأنًا ومكانة عند الله ممن هو دونه

هذا هو المعيار الحقيقي الذي يتفاضل به الناس، فلا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى، يقول تعالى «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»

ويقول صلى الله عليه وسلم «لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى والعمل الصالح»

هذه سنة الله في خلقه، وهذا هو العدل المطلق والاستحقاق النزيه الذي يجري على سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير

لذلك فإن الرضا بكل ما كتب الله هو الراحة، وهو الإيمان الذي يطمئن النفس بأن الكون كون الله وأن كل شيء بقدر وأن سلبك أو عطاءك ما هو إلاّ لحكمة

والشقي هو من يجحد هذه السنة، ويحاول أن يفتئت على هذه الحقيقة ويحرف الكلم عن مواضعه، ويشرئب بعنقه إلى عنان السماء محاولًا أن يبلغ الجبال طولًا، وهو لم يؤت نصيبًا من الحظوظ والمواهب التي ترقى به إلى هذا الادعاء.

وما أكثر هؤلاء الذين يتكالبون على الدنيا ويصطرعون عليها استخفافًا وطيشًا ونزقًا في تحد سافر لميزان العدل وناموس الكون.

إن هؤلاء يتحدون عدل الله سبحانه وتعالى رب الناس جميعًا الذي قسم بين خلقه حظوظهم من الدنيا قسمة عدل لا جور فيها ولا محاباة لأحد على أحد، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

إذن كل شيء خلق بقدر، ووزعت الأرزاق والمواهب والحظوظ بالعدل، فلماذا التحدي والتنطع والاجتراء على سنة الله؟!

نرى ضحلًا مجرودًا من المواهب والحظوظ يتوسط أمور الناس، ويجلس على سدة أمورهم ينصح لهم ويشير ليس لكفاءة فيه ولا موهبة وإنما لقدرته على النفاق والمداهنة والمداورة والتزلف، والعجب أن ترتقي به قدرته هذه إلى مكانة هو ليس أهلًا لها، مما ينتج عن ذلك أضرارًا لا حصر لها على بيئته ومجتمعه.

والمجتمع الذي يوجد فيه مثل هؤلاء المجرودين هو مجتمع مريض لا تشرق فيه شمس الحضارة، ويظل قابع في التشرذم والتخلف، لأنه سمح لهؤلاء أن يتحدوا ناموس الكون، محطمين ميزان العدل على صخرة أنا نيتهم وعبثهم المجافي والمجانب للحكمة، والذي بانتشاره تعم الفوضى ويتحكم الجهل.

الأم هي الوجود.. وهي من تبُثه فينا

إن أكبر استحقاق في الدنيا لأي امرأة هو أن تكون أمًا، فالأمومة رمز الحياة المقدس، وهي أساس الوجود كله، والدنيا والوجود، معناهما كله يختزل في الأمومة.

وكل مرادفات العطاء والجود والإيثار والبذل والتفاني والتضحية هي مزيج من الأم.

وكما قال قبران خليل جبران «الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران.. فالذي يفقد أمه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه»

إن من يفقد أمه يا جبران، يفقد نضارة نفسه، لأن النفس بفقدان الأم، تفقد ربيعها الأخضر، فتتساقط أوراقها، ويصير لحاءها مجرودًا، تتداعى عليها غبر السنين وصروف الدهر.

كلنا في حضور الأم ملوكًا متوجين، كنا أغنياء أم فقراء، وفي غيابها سجناء بلا محبس ولا قيود.

الأم هي الوجود، وهي سبب من أسباب الحياة، هي الوجود، وتضيف للوجود وجودًا آخر من نفسها وحنانها وعطفها واحتوائها.

تضيف للوجود وجودًا من روحها الطيبة، ومن نفسها الجلدة التي خلقت لتتحمل الآلام والمشقات.

الوجود يتسع، ويكون أكثر رحابة بوجودها، وإذا كان الوجود يعرف معنى السعادة، فإن هذه السعادة تزيد وتتضاعف لوجودها.

الأم هي الوجود، وهي من تبثه فينا، ويكون حاضرًا معنا لحضورها

فهي تمنحنا عطرها بدون مقابل، ويظل عطرها يلازمنا في الحل والترحال، في الحضور والغياب.

عطرها سرمدي لا يفنى ولا يزول، يظل قابعًا فينا ما بقيت الحياة، والسر في استمراريته وبقاءه، أنه يستمد فعاليته وتأثيره من الله.

إن نور الأم من نور الله، يلازمنا ما بقيت الأم في الحياة، وفي غيابها وإن كان يخبو، لكن على رفيفه الخافت نعيش الحياة.

لذلك نحن في حضور الأم أطفال، ينتابنا العجز والهرم برحيلها.

فنحن في حضورها أطفال، ولو نيفنا على المئة، وفي غيابها بالغين ولو كنا نحبو.

* * *

أنت من تستطيع أن تحدد مصيرك

الإنسان هو من يستطيع أن يحدد مصيره في هذه الحياة، ربما تكون للنشأة، والتربية، والعوامل الاجتماعية والبيئية تأثير على الإنسان لكنها لا تستطيع أن تؤثر على اختياره لطريقه في هذه الحياة، وتحديد المصير الذي سوف يؤول إليه.

الإرادة، الإنسانية له الدور العظيم في الاختيار، وتحديد المصير، ولعظمة دور الإرادة الإنسانية، كرم الإنسان، وميز عن سائر المخلوقات، فالمخلوقات كلها مجبورة، لا إرادة لها ولا اختيار.

فالإنسان فقط هو من بيده أمره، وتحديد مصيره، وهو الذي يستطيع أن يبرهن على فشله أو نجاحه في الحياة.

فهو لب القضية، وهو محورها، فلم يخلقه الله عبثًا، بل خلقه وأحسن خلقه، وفضله وميزه عن سائر مخلوقاته، بأن منحه الإرادة، والتي من خلالها يستطيع أن يختار أي طريق يسلكها، فقد خلقه الله حرًا لا سلطان عليه من أحد.

فلإنسان بإرادته يحدد مصيره، ويعد هذا كرمًا تجلى به الله على الإنسان فلم يجبره ولم يقهره، بل منحه من نفسه مقومات يستطيع أن يرتقي بها إذا قدر نفسه حق قدرها، فنفخ فيه من روحه، وتجلى عليه ببعض صفاته، لذلك إذا صلُح الإنسان وصلُحت نفسه، كان عبدًا ربانيًا يرى بنور الله، فيتحقق له ما يريد، وعلى النقيض يسقط الإنسان إذا لم يقدر نفسه، وترك قيادها لهواها والشيطان، لأنه بذلك يحرم نفسه من مقومات ربه وبعض صفاته، ويكون مُدخلًا سهلًا للشيطان يتجلى عليه بصفاته، فيرى برؤياه، ويبصر ببصره، فلا يتحقق له ما يريد هو، بل ما يريد الشيطان.

والإنسان إن لم يكن له إرادة في تحديد موطنه أو جنسه، أو شكله، أو لونه، أو من أي عائلة ينحدر، إلاّ أنه يستطيع أن يحدد مصيره من خلال تحديد نسبه الذي يشكله وفقًا لإرادة الخير أو الشر التي يختار بينهما، فإن أراد الخير كان نسبه شريفًا راقيًا، بغض النظر عن موطنه أو جنسيته، أو شكله، أو من أي سلالة أو عائلة ينحدر.

وإن أراد الشر كان نسبه وضيع متدني.

وبذلك فكل إنسان يستطيع تشكيل، وصياغة نسبه الحقيقي، فمن يريد أن يكون نسبه رفيع وراق، فيتوجب عليه أن يغالب طبعه، وينتصر على رغباته وشهواته، والبعد عن هواه، والتخلي عن أنانيته والتحلي بمكارم الأخلاق، وبث روح الحب والسلام، عندما يفعل الإنسان ذلك، ويقوى عليه، كان حقيق على الله أن يساعده في الظهور على هذا النسب وهذا الاستحقاق، ومن ثم تصفو نفسه، وتشف روحه ويتحصل على هذا النسب الشريف الراقي.

أما الإنسان الذي يترك نفسه لقيادها، وهواها، واستسلامه لطبعه، والخنوع لسعار رغباته وشهواته، كان خليقًا بالشيطان أن يمده مدًا ويتجلى عليه بصفاته، ومن ثم تجثم الذنوب على صدره، وترين على قلبه الغشاوات، فتغبر نفسه، وتنغلق سريرته، ويتحصل على نسبه الوضيع المتدني.

وهذا عدل الله أن منحنا حرية الإرادة والاختيار لأي نسب تنتسب، ولأي عائلة ننحدر.

* * *

ألم يأنِ للإنسان أن يستريح؟!

في ظل إيقاع الحياة السريع والمتلاحق، حيث يركض الجميع بحثًا عن الكينونة والذاتية والوجود، ومع اختلافات غايات البشر وتنوع سبلهم في تحقيق هذه الغايات، فإن النتيجة واحدة، هي التعب والمشقة من جراء اللهث المتلاحق لإيجاد مكان في هذه الحياة.

فالغالبية من البشر يبحثون عن المال والمجد والشهرة، أو بالأحرى يبحثون عن المكانة الذاتية لأنفسهم، عن وجودهم.

وفِي ظل هذا الصراع المحموم، والتكالب المضني والشاق، ينسى الإنسان نفسه، ويحجب عنه فطرته، الأمر الذي يجعله يعاني من القلق والاضطراب، وتجانبه الراحة والسكينة والهدوء، وتتحول حياته إلى عناءٍ ومشقة وفِي أحايين كثيرة إلى جحيم.

لذلك ألم يأن للإنسان أن يستريح، أن يعقد هُدنة مع نفسه الغائبة عنه، وذلك بمحاولته البحث عنها، وإبرام هذه الهدنة معها، والبحث في مكامنها عن مواطن إنسانيته وأصل نشأته ووجوده، وذلك من خلال بعث فطرته، واستنفار ضميره، والتمسك بأهداب فطرته.

أرى أن الإنسان إذا وجد ذاته، وأفلح في عقد تصالح معها، واتخاذها صاحبة له، ومكاشفتها ومصارحتها بكل ما يأمله ويطمح إليه من مسعاه في هذه الحياة، لجادت عليه بفيوضاتها وكرمها، وأشارت عليه، ودلته على الحقيقة التي تكمن في أنه لم يُخلق للخلود بل خُلق للفناء، ومن ثم عليه أن يحرص على حياته بأن يعيشها بكل هدوء، أن يهدأ، أن يتخلص من كل ما يسبب له الشقاء والألم، أن يعيش حياة بسيطة قوامها الوسطية والاعتدال في التعامل مع كل مناحي حياته، فيرضى بالقليل مما يقيم أوده من طعام، وما يرويه من شراب فلا زيادة ولا نهم ولا طمع ولا شراهة في ذلك.

أيضًا عليه أن يُحب نفسه، بأن لا يضعها في موضع مقارنة مع أحدٍ أيًّا كان، ويرضى بها كما هي في حدود سعيه، وبذل وسعه وما يقدر عليه للنهوض بها.

كذلك يبعد عن كل ما يُقلقه ويؤلمه ويتعامل مع الناس بحب ورضا، ويقتصد في انفعالاته ومشاعره، ويتحرى الصدق فيها، ويحاول أن يترفع ويستعلى عن كل ما يُدني من نفسه، ويحاول أن يجعل سعادته في القيم والفضائل كالصدق والمروءة أو الإحسان والإخلاص والحب والإيثار الخ، وأن لا يختزلها في الأشياء المادية كالاقتناء والتملك، بل عليه أن يصنع سعادته بنفسه من خلال أبسط الأشياء، والتي تكون في مقدوره واستطاعته إتيانها والتعامل معها، كإدخال الفرحة على حزين، ومواساة مفجوع ومكلوم، وإغاثة ملهوف، بالتأمل في الطبيعة، باستنشاق هواء الصبح، بسماع صدح الطيور وأغاريد العصافير وزقزقتها، بالنظر إلى زرقة السماء، وزرقة البحر، التأمل في قسمات الأطفال وبراءتهم، والنظر إلى وجوه العجائز، واستلهام الحكمة منها، أو بالانفراد في خلوة يحاكي الفطرة والجمال.

* * *

اعرف نفسك تطمئن لقدرك

كلنا نعلم أن أحكام القدر مشمولة بالنفاذ علينا جميعًا، لا راد لما كان منها، ولا لما سوف يكون.

وطالما أن هذه الحقيقة، التي لا يرقى إليها أدنى شك، لماذا إذن نتذمر ونضجر من أقدارنا؟!

لماذا نُهدر طاقتنا، وحياتنا في هذا الضجر والتذمر؟!

أرى أننا نقبل على ذلك، لأننا لم نعرف أنفسنا بعد، لم نفهمها، لم نطلع على خباياها ولم نسبر غورها، لم نراها بصورة واضحة، يحول دائمًا بيننا وبينها، غايات أخرى، غاياتٌ مبنية على الاعتداد بالنفس، وحب الظهور والتواجد، وإثبات ذلك بكل الطرق والوسائل، مشروعة وغير مشروعة، وفِي خضم هذا الصراع، ننسى أنفسنا وماهيتها وحقيقتها، والتي لو اطلعنا عليها وعرفناها جيدًا، لتقلصت الغايات، وتبددت وسائلها من جشع وطمع وأنانية، وعندئذٍ سوف يتبخر التذمر والضجر من القدر.

نعم، إن فهمنا لأنفسنا يجعلنا نُبصر القدر، نتعرف عليه، نتعايش معه، ونتيقن بأنه حتمية لا مفر منها ولا مناص، سواء رضينا أم أبينا.

بفهمنا لأنفسنا سوف نؤمن بالقدر، وبإيماننا به، سنحاول هدهدته، بالوقاية منه أو بمسايرته، فالوقاية والمسايرة خياران لا مفر منهما إن أردنا أن تستمر حياتنا على النحو المُقدر له.

والوقاية من القدر، تكون باتباع الطرق والوسائل المقاومة له، كمحاولتنا تدارك فشلنا وإخفاقاتنا، ومرضنا، وخسارتنا، طالما لم تصير بعد قدرًا نافذًا، كمرضنا نستطيع اتباع الطرق والوسائل التي تعمل على شفائنا منه، طالما لم يصر بعد مزمنًا لا شفاء منه ولا براء؛ لأنه لو تحول إلى مرض مزمن، في هذه الحالة لا تجدي المقاومة، وإنما لا يكون أمامنا إلاّ الخيار الثاني، ألا وهو المسايرة، مسايرة المرض، والرضا به، وهذا يعني الرضا بالقدر.

إذن بمعرفتنا لأنفسنا، سوف تقر قلوبنا، وتطمئن، وباطمئنانها سوف ترضى بالقدر، لأننا سوف نُشعرها بأننا أكثر عقلانية وصمودًا

ومن ثم نستطيع التعامل مع أقدارنا، فنتأقلم مع أوضاعنا الحياتية بكل ما فيها من مدٍ وجزر فرح وحزن، يأسٍ وأملٍ، إقبالٍ وإدبارٍ، ارتفاع وسقوط، نجاح وفشل، لقاء وفِراق، سوف نستطيع التعامل مع كل مرادفات الحياة ومتضادتها.

نخلص من ذلك، أن عدم معرفتنا لأنفسنا، يجعلنا نرفض القدر، نشجبه، نتذمر منه ونضجر، مما ينعكس على حياتنا بالسلب، ويورثنا القلق والاضطراب، أمّا معرفتنا لأنفسنا سيجعلنا نقر بأحكام القدر، ونرضى بها، وعندئذٍ سوف نستدل على سبيل الراحة، وتنبض قلوبنا بالسكينة والاطمئنان.

* * *

لا تطلب الثناء من فانٍ مثلك

يفرح الكثير منّا إذا أثنى عليه غيره، ويزداد فرحًا إذا زاد الثناء والمديح، فنفس كل منّا تتوق إلى من يرفع من شأنها، يُشعرها بالقيمة وبالوجود، لذلك فغالبيتنا يسعى إلى تحقيق منجزٍ أو إبداع حياتي ينهض بالذات، ماديٌ كان هذا المنجز أو معنوي.. في الأخير فإن غاية تحقيقه هي استقطاب الإشادة، ونشدان المديح من الآخر.

لماذا نفعل ذلك؟ لماذا نقدم عليه؟ لسبب وجيه جدًا لنشعر بوجودنا، بذاتنا، بقيمتنا، وهل تتحقق قيمتنا، ويتحقق وجودنا بإشادة ومديح الآخرين؟!

نحن نظن ذلك، فنحن نعمد إلى فعل ذلك لخوفنا من الفناء، ولشعورنا بأن وجودنا رهين هذا الاهتمام والمديح والثناء، فنحن نعلم في قرارة أنفسنا أن وجودنا ليس ضروريًا للآخر، فقد يتم الاستغناء عنّا في أي وقت، وجودنا ليس ضرورة، فكل ما نفعله يمكن الاستغناء عنه، وإذا تم الاستغناء عنه لن يحدث فوضى في الحياة، أو تتوقف عن المسير، لذلك ولعلمنا اليقيني بهذه الحقيقة، نركض وراء استجداء المديح والشكر والثناء من الآخر، لنشعر بوجودنا، بذاتنا، بقيمتنا، لذلك نعمل على أن ننجز ونبدع لنشعر بأهميتنا ووجودنا.

هذه الحقيقة توضح مدى عجز الإنسان وقلة حيلته، ومدى حرصه - على خلاف الحقيقة..بديمومته، التي ينشدها في رأي الآخرين من حوله، ولو فطن إلى الحقيقة لعمل على غير ما يقوم به، فيعمل ويبدع وينجز لا يرجو المثوبة إلاّ من خالقه، فلقد أوجده الله لحكمة، وعليه أن يعي ذلك، فلا يرهق نفسه وجسده وروحه فيما لا طائل منه، وأنه عندما طلب الاستحسان واستجدى المديح من غيره، ليوهمه على وجوده، فقد حاد عن جادة الصواب.

فكيف يطلب برهانًا من فانٍ مثله؟!، ففاقد الشيء

لا يعطيه، والعدم لا يمنح وجودًا، إذن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا غالبيتنا يقدم على هذا الفعل؟!

في تصوري إنه وهم التواجد، الإحساس بالذات التفاخر الإنساني.

وأرى أن بهذه الطريقة، وتواترنا واستمراريتنا على هذه الطريق، لا يغني عنّا شيئًا مما نرومه، ويرهقنا، ويوردنا مورد القلق والتعاسة، وقد يهلكنا اليأس ولا سيما إذا تلاشى الإطراء والمديح، وتقلص الاهتمام لتغيّر الظروف والأحوال، وهي حتمية لا مناص منها، أو لأي سبب آخر.

لذلك فعلينا، أن نعمل وننجز ونبدع، لنشعر بوجودنا وقيمتنا في ما نعمله وننجزه وما نبدعه

وليس في مديح وثناء واهتمام الآخر.

وعندما نفطن إلى هذه الحقيقة، ستكون حياتنا أجمل وأبسط وأرقى.

* * *

تفاءل وساعد نفسك

لا تُهدر طاقتك، ولا تستنزف روحك في اليأس والإحساس بالعجز والفشل، إذا صدقت نفسك بأنك سوف تفشل، فإنك ستفشل لا محالة.

يجب أن تحرص على مساعدة نفسك، ولا تركن إلى أفكارك الهدامة التي تسيطر عليك، لا تجعلها تستغرقك وتستحوذ عليك، وعندما تهب عليك عواصف الأيام ونوائبها، قف بكل قوة، وإن وهنت عزيمتك حاول مجددًا، وإن خارت قواك عاود مرة أخرى، لا تستسلم، ولا تُسلم قيادك لليأس والعجز والفشل.

كن هادئًا مطمئنًا في التعامل مع ما حاق بك من أزمات، وما ألم بك من ملمات، أعلم أن مطالبتك بالهدوء والاطمئنان في ظل الأزمات والآلام أمرٌ يشق عليك، وصعب تقبله، لكن لا مناص من أن تحاول، فهدوئك سيساعدك على أن تفند أفكارك، تنخلها، وترمي الغث منها، وتختار الصحيح الذي يساعدك على تجاوز مرحلة الإخفاق والفشل، والأزمات والصعوبات

قف بكل قوة وبرباطة جأشٍ، ضد هذه الإخفاقات والأزمات والملمات، لا تجعلها تنال منك وتسيطر عليك، وضع نُصب عينيك أن الأحداث تتداول، والزمن يتغير، وماء النهر في سريان لا يتوقف، فقد يحدث أمرًا، يزيح عنك الألم، أو يخفف من حدته، أو يكون بمثابة الترياق للداء الذي تعانيه، فإن لم يداويه مباشرة، حتمًا سيقضي عليه في المستقبل ولا يضير إن كان الشفاء على مهل.

فقط عليك التفكير بهدوء وروية، وعدم الاستسلام والخنوع، والانبطاح لتيار الإخفاق والفشل.

واعلم أن في استسلامك هذا قبول به، وأنه واقع لا محالة، لكن عندما تجابهه بجمع أفكارك، وإيمانك بتداول الأحداث والتغيير في غمرة عملك على التصدي لهذا الفشل والإخفاق والألم، سوف ترى نتيجة إيجابية، فمن رحم المِحنة تولد المنحة، واشتعال النار في معدن الذهب

لا تعني انعدامه، بل تجعله طاهرًا مجلوًا بعد أن نقته من الشوائب والخبث.

إبكتيتوس كان عبدًا، وسامه سيده سوء العذاب، حتى أنه من شدة العذاب، فقد قدمه وصار معاقًا، لكنه لم يستسلم، وعمل بجد واجتهاد، حتى صار بعد ذلك أشهر فلاسفة الرواقيين في التاريخ، والأمر ينطبق كذلك على صاحب رواية «دون كيشوت» معجزة الأدب الإسباني، وواحدة من أفضل الروايات العالمية على الإطلاق، كتبها وهو يعاني الألم وراء قضبان السجن، والأمثلة التي تدلل على ما أقوله كثيرة، لا يسع المجال لحصرها، لكن الأكيد أن معناها كله ينبعث من مشكاة واحدة عدم الاستسلام للفشل، وعدم السماح لليأس أن يتسلل إلى النفس، واجتثاث جذور العجز بالتفكير، وتقبل الأمر، والإيمان بالقدر، ومقاومة القدر، وإن لم تنجح مقاومته، فيكون ذلك بمسايرته، ولن يتأتى ذلك إِلَّا بشحذ الهمة والعزيمة، والثقة بالنفس والإيمان بالله.

* * *

السعادة ليست بعيدة منا إذا تأملنا

ينظر الناس إلى السعادة بأنها مصطلح ينطوي على معانٍ ومفاهيم كبرى، يرى الغالبية من هؤلاء الناس أن هذه المفاهيم تكمن في الراحة والغنى وسعة اليد أو الجاه والسلطان والنفوذ أو الشهرة، وغيرها من المفاهيم التي تحد هذه السعادة بحدود وأطر ألفوها وتعارفوا عليها وألبسوها ثوب آمالهم وتوجهاتهم وشهواتهم وطموحاتهم؛ فالسعادة من وجهة نظرهم هي مجموعة من الحقائق الثابتة التي لا تقبل التزييف ولا التغيير، وهم بذلك حددوها بمعاني أنفسهم المادية، وأرسوا لها مدلولًا ذاتيًا ينبع من الذات ويجري فيها ويصب إليها.

هم بذلك لم يعوا مفهوم السعادة، وجانبهم التوفيق في معرفة معناه الحقيقي، فقد افتأتوا عليه وجاروا عليه، وحرفوه عن موضعه، وألبسوه ثوب الأنانية والذات؛ ولو أنهم تعمقوا ببصائرهم أكثر في حدود السعادة وحقائقها لعرفوها معرفة تامة، وعرفوا أن معناها يكمن في البساطة والهدوء، والقناعة والحب المنثور في طرقات الحياة ودروبها وملايين قصص الكفاح التي تدور أحداثها وراء الأبواب المغلقة، وهل هناك سعادة توازي فرحة مسكين بثوب جديد يستدفع به برد الشتاء، أو فرحة أب يدخل على أبنائه ببعض لقيماتٍ يتبلغون بها بفرح وسعادة، وأم لديها من الوقت تنفقه في مسامرة أطفالها، تروي لهم القصص والحكايات، ويتحلّق حولها أبناءها يسترقون السمع بشغفٍ وحماسة.

السعادة هي حكايات الفرح الثاوية في زوايا الأماكن المنسية، كشيخ محب يتفانى في حبه فلا تجده إلاّ وقد خضّب الطرقات بوقع أقدامه الحانية في ذهابه إلى المسجد، يعتمد على قلبه الخاشع دليلًا في الطريق

أو امرأة بسيطة تقوم في الصباح تلتحف ندى الصبح تستقبل يومها بالبشر والسرور تباشر أعمالها، فتوقظ أسرتها، تعد لهم الطعام، تساعدهم في استقبال يومهم، وبعدها تتعهد أعمالها وتلزمها بالصبر والفرح.

ويوجد غير ذلك الكثير من حكايات الفرح والسعادة التي تخرج عن حدود ومفاهيم المصطلح الذي تعارف عليه غالبية الناس الذين حددوا

مفهومه وحصروه في الذات يبدأ منها وينتهي إليها، وهم بذلك أفقدوه معناه الحقيقي؛ فالسعادة في البساطة، في الرضا، في القناعة، ليست في العد ومسائل الحساب، بل معرفتها تكون من خلال نظرة إلى صفحة السماء، أو الاستمتاع بالنظر إلى مجرى نهرٍ، أو التأمل في ضحكة طفلٍ أو استنشاق عطر وردة.

* * *

لن ترضى عنك الناس ولو حرصت على رضاهم

قد يدنيك البعض من قلبه ليس محبة فيك؛ بل في نفسه، فقد تكون مصدر لسعادته في غناك أو سلطانك أو نفوذك أو شهرتك أو قوتك أو ما تحوزه من قدرات وملكات يستفيد منها، فأنت بتلك المقومات والقدرات مفيد له جدًا، فيحرص على قربك منه، ويبذل في ذلك ما يستطيع من مودة زائفة، وحب مصطنع، واهتمام مبالغ فيه، ليتحقق له ما يريده وهو المصلحة والمنفعة من وراءك، واعلم أنه لولا تلك المقومات والملكات ما تقرب منك قيد أنملة.

وقد يقصيك البعض عن قلبه ولو كنت ملاكًا، فقد تكون مصدر لتعاسته لأنك فقيرًا، فربما تكون صاحب خلق ومروءة، وتملك صفحة بيضاء وقلبك نقي، وسيرتك عطرة، وتزرع الدنيا بالمحبة والسلام؛ لكنك فقير لا تملك مالًا، ولا تحوز منصبًا ولا جاهًا، وتفتقر إلى النفوذ والشهرة، فإقصائك عند هؤلاء فرض عين، وضرورة ملجئة، حتى لا يصابوا بعدوى فقرك، أو سوء حظك، وكذلك لأنهم يرونك أقل منهم مكانة وقدرًا بل يرونك أقل منهم في القدرات والملكات، ولو كان فيك الخير ما كنت لتكون فقيرًا مهمشًا من المال والقدرات والنفوذ.

وقد يؤمن بك البعض، ولو كنت منزوع الثقة، لست أهلًا لأن تؤتمن؛ لكن لهوىً في أنفسهم، ولمصلحة وجدوها فيك، قربوك ابتغاء هذه المصلحة، وما أن تحقق لهم ما يريدون أقصوك وأبعدوك متى أرادوا ذلك.

وقد يكفر بك البعض ولو كنت أهلًا للثقة، وكنت أمينًا ومؤتمنًا، لهوىً في أنفسهم أيضًا، ولتحقيق منفعةٍ أو مصلحة، أو بداع مجاملتهم لأهل باطل.

وقد يراك بعضهم أطهر من نتف الثلج، ولو كنت بعيدًا عن ذلك بُعد المشرق عن المغرب، لتحايلك عليهم وخداعك إياهم وقدرتك على التزييف والتزوير عليهم.

وقد يبغضك البعض ولو كنت أنقى من ماء المطر، حسدًا من عند أنفسهم، أو كبرًا وصلفًا لاختلافك معهم في معتقد أو فكر أو عمل.

والحقيقة أنك مهما كان وضعك، ومهما كانت غايتك ومواقفك، كنت في حركة أو سكون، تطوف حول الكمال، أو يشوبك النقص، في عليين، أو أسفل سافلين، كنت قريب أو بعيد، من الشرق أو من الغرب، جميلًا كنت أو قبيحًا، في حالة انحطاط أو ازدهار، مؤمنًا كنت أو كافرًا، لديك عقل أو سفيه، وفي أي بقعة كنت أو طريق، لن تسلم – حتمًا – من القيل والقال، ولم ولن تصل لرضا الناس عنك ولو حرصت؛ لأن الناس عبيدُ لأهوائهم، رهائن لتوجهاتهم ورؤاهم ومصالحهم.

* * *

لص الكلمة أخطر أنواع اللصوص

السرقة لها مفهوم واحد، اختلاس ما هو ليس حقك من غيرك، والسارق وهو يسرق يقدم على سرقته بدافع الطمع فجشعه ودناءة نفسه هما من يدفعانه للإقدام على هذا الفعل المنكر.. ودرج الناس على أن السرقة تقتصر على المال فقط أو الأشياء التي تقوم بمال، لكن الحقيقة أن السرقة تتعدد فكما هي في الأشياء المادية تكون في الأشياء المعنوية، فمن يسلب غيره فرحه فهو سارق، ومن يسلب غيره سعادته فهو سارق، ومن يسرق غيره استقراره وطمأنينته فهو سارق.

وفي فعل السرقة لا تفرقة بين غني وفقير، جاهل وعالم، رئيس أو مرؤوس، من علية القوم أو من أسافلهم، فمن يقترف السرقة ويقدم عليها أيًا كان مسماه أو نعته هو إنسان دنيء ووضيع وغير شريف، وسارق الكلمة من أخس السارقين وأحقرهم؛ لأن الكلمة مخاض وثمنها غالٍ جدًا، ولا تأت بمحض الصدفة، بل تكون وليدة تجربة، وقدح ذهن، وقراءة كتاب مسطور، وتأمل أخر منظور، وينظمها صاحبها أو ينثرها بعد شحذ ذهن، وقدح خيال واشتعال وجدان وإذكاء قلب؛ فالكلمة لكي ترى النور تسبقها ثورة من الحراك والخيول الضابحة التي تثير نقع غبار الأفكار لتترجمها فكرًا، وتنظمها قصيدًا، وتنثرها حبات لؤلؤ تسر الناظرين، وتكون سبيل حق، ومشعل هداية لمن ضل الطريق، وتثري ذاكرًا، وتذكر ناسيًا، وتؤنس وحيدًا، وتلهم متأملًا، وتواسي مكلومًا، وتغيث ملهوفًا، وتصبر مكلومًا، وتداوي مجروحًا.

لذلك فسارق الكلمة أخطر أنواع اللصوص وأشرسها، لأنه لا يعرف للكلمة قيمة، ويفتئت عليها، ولا يراعي فيها ولا في نفسه ولا لصاحبها حرمة ولا وقارًا، لأنه إن عرف قيمة الكلمة وقدرها ما أقدم على سرقتها وعزوها إليه دون الإشارة إلى صاحبها، أو حتى ذكر أنها منقولة، وما أكثر الكلمات المسروقة في إطار بحث، أو كتاب أو قصيد، أو حتى على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، فهناك من يسرق الكلمات وينسبها إلى نفسه فرحًا مزهوًا بمردودها وأنه صاحبها وهو من أبدعها، طلبًا للمكانة والتصفيق والتهليل من الناس، وقد ينبهر العامة

من الناس بهذا السارق ويصفقون له اعتقادًا منهم أنه صاحب الكلمة، فليعلم هذا السارق أن العامة دائمًا يغرهم ما يلمع، ولا يستطيعون تقييم المعادن، لكن السؤال الذي يطرح نفسه لهذا السارق، أين أنت من ذاتك؟! من دينك؟! لا ريب إنك بفعلك هذا تأتي منكرًا من القول وزورًا، وحسبك أنك تكتب في لوح المقادير كذابًا.

وليعلم هذا السارق أن أهل الحق لا ينطلي عليهم حيل وأراجيف أهل الباطل.

قد يقدم العامة من الناس على هذا الصنيع وهو ذنب وخطيئة؛ لكن أن يقدم عليه من يحسبون أنفسهم ويحسبهم الناس من أهل العلم ومن تحف أسماؤهم الألقاب والنعوت فهو ذنب أعظم، وهو من الخطايا والآثام ومن أكبر الكبائر لشبهة الخداع والمكر وعدم الأمانة وهي صفات أبعد ما تكون عن أهل العلم.

* * *

اخرج من محبسك لترى النور

لماذا لا نخرج من محبسنا؟! لماذا نقف في مكاننا لا نرصد إلّا حركات قوائمنا، ننظر إلى ما هو تحت أرجلنا، لماذا ندور في نفس الدائرة ولا نحاول الخروج عن مركزها؟ أمحكوم علينا أن ندفع نفس الحجر للأعلى، ونعاود دحرجته للأسفل، لماذا لا نتمرد، نحلم، نضج، نثور، نحب، نأمل، نتوق إلى الجنة؟

الوقوف في نفس المكان هو انتحار، الاعتياد على النظر لنفس اللون يسبب العمى، عدم تغيير المكان يبعث على الملل، التعامل مع زمن واحد وأخذه كأساس وتقويم لحياتنا يجعل حياتنا باردة جدًا.

يجب علينا أن نخرج من محبسنا، نتحرر من قيودنا، نفك أرسانا، ننفض كل العلائق التي علقت بعقولنا، وشابت أرواحنا ووجداننا، نتخلص من كل شيء يكدر صفو حياتنا، نسلم قيادنا للحرية نجوب كل الأماكن، ونسافر عبر الأزمان، نستلهم العبرة منها، نرصد الأحداث التي وقعت فيها، نحاكي جميلها، ونعتبر من سيئها، نستمد منها الحكمة لنعيش حاضرنا، ونستشرف بها مستقبلنا.

علينا أن نعيش الحياة كما هي بذاتها، لا نملي عليها شروطنا، فالحياة كما هي لها لون واحد، نفقد رصد هذا اللون وتمييزه، متى حاولنا طلائها بألوان من عند أنفسنا، ولن يخسر في النهاية إلاّ نحن، فلماذا القلق، والانتظار، لماذا العد والحساب، لماذا محاولة عيش الحياة ببعد واحد والحرمان من كل أبعادها، لماذا نضيف لوعاء الزمن أزمانًا أخرى من عندنا؟!

علينا أن نعيش زمننا الطبيعي، زمن اللحظة التي نعيشها، نتجرد من أي زمن آخر، سواء مضى، أو مازال في الأفق، فما مضى أصبح ذكرى فإن لم نفيد منه ونستلهمه، فلا مجال لأن يؤثر في كينونتنا، وما سيحل من الزمن لا يساورنا قلق بشأنه، ولا نرهق أنفسنا بألم الانتظار، فالحياة التي نعيشها لا تخضع لمنطق التقدير ولا لعلم الحساب، وإن كان يتوجب علينا فعل ذلك لتدبير شئون الحياة، فيتوجب أن لا يشغل حيز

تفكيرنا، ولا ينال من راحتنا، ولا يكون أكبر همنا أن نحققه، فنحن نجد ونجتهد ونعمل ونتقن العمل، لكن لا نصادر على نتيجة، ولا نؤمل فيها، لأننا لو أملنا أكثر ما ينبغي، وقلقنا أكثر من اللازم، فالنتيجة الحتمية هي سرقة حياتنا منا، وضياع حاضرنا، ومرارة اللحظة، وضياع حياة نعيشها بالفعل، من أجل حياة لم تحل بعد.

لذلك علينا أن نعيش الحياة بعقيدة طائر، يذهب خماصًا ويعود بطانًا، يكفيه أن يعيش لحظته وهو يحلق في الهواء ليكون سعيدًا، فتحليقه في أجواز الفضاء هو عين سعادته، لا ينظر إلى أسفل، ولا ينال من سعادته ما سوف يحدث غدًا، ولا يأخذ من هذه السعادة أن يحلق معه غيره، وإن حاول أحدهم عرقلته عن الطيران، لا يرى إلاًّ أمامه واتساع المساحة الرحبة، فيواصل تحليقه غير عابئ ولا مكترث، فلماذا يبدد طاقته في الصراعات، ويستنزف مجهوده في الانفعالات التي لا طائل منها؛ فالسماء تسع الجميع، فلا ما مضي ولا ما هو آت، ولا من يعترض حاضره له سلطان عليه ليخرجه من متعته الحقيقية في عيش الحياة.

* * *

قد نحتاج العزلة لترتيب الأوراق

انعزالك لبعض الوقت لا يُعني الهروب، بل هو هدنة لتتعرّف فيها على هدوء سرقه الضجيج، وسكينة سلبتها الفوضى، وطمأنينة جار عليها الخوف، والأهم هو البحث عن نقاءٍ كاد أن يموت في غياهب التلوث والفساد.

قد نحتاج العزلة ليس بدافع الهروب من مضمار الحياة، بل لتقنين أوضاعنا وترتيب أوراقنا التي بعثرتها الفوضى ورياح العبث.

نحتاج إلى هذه العزلة، لتناول جرعات من الراحة بعد العناء المرير الذي لازمنا في مضمار الحياة الصعب المملوء والغاص بالاختلافات والتباينات في الرؤى ووجهات النظر، والمحتشد بالعراقيل والعقبات الناتجة عن حب الذات والأنا وتهميش الآخر، ومحاولة البعض الوصول بأي وسيلة ولو على إخفاق الآخر.

في العزلة قد نجد أنفسنا، ونسترد ضوئها المتلاشي في زحمة الأيام وصراع الأحداث، واصطراع وتكالب المصالح؛ ففي العزلة تخف وطأة المنافع، وتذوب الأنا، ويطل نور الحقيقة يحمل في انبعاثه روح الفطرة التي تغمرنا بنقائها وصفائها، فنسلم قيادنا لها، ونسمع لصوتها الرخيم الذي يطرب أرواحنا بالإيمان، ويثري وجداننا بالفضيلة والحكمة وننعم بحضنها الدافئ الذي يحتوينا احتواء حضن أم لوليد غائب.

انعزالنا لا يعني الهروب، بل هو هدنة لنتعرف فيها على هدوء سرقه الضجيج، وسكينة سلبتها الفوضى، وطمأنينة جار عليها الخوف، والأهم البحث عن نقاءٍ كاد أن يموت في غياهب التلوث والفساد.

لذلك كم نحتاج إلى العزلة، لنتعرف على أنفسنا مرة أخرى ولنستدعي فطرتنا، نجاورها، نسكنها وتسكن فينا، ننعم ببراءتها، ونأنس بطهارتها،

ونظل نحاكيها، ربما حال عودتنا مرة أخرى إلى مضمار الحياة، نتلبس بها، وتسربلنا وتظل مقيمة فينا لا تبرحنا ولا تذهب عنّا.

* * *

ابتعد.. فأنت تحجب عني الشمس

القدرة على التخلي والاستغناء، تجعلك طبيعيًا غير متكلفٍ ولا مُتصنع، لا تُحابي ولا تُجامل ولا تُصانع من ولا تتسقّط من أجل مصلحة أو منفعة.

متى استغنيت استكفيت.. وعند الاكتفاء يُفتح أمامك المُغلق، ويُصفى الرَّنق ويسهُل الصعب، وينبسط المُقبض، ويدنو البعيد، ويلينُ الصلب، ويبينُ المُشكل، وينجلي الغامض وتسمو نفسك فوق كل مطلوب، وتهفو روحك لكل راقٍ ويلهج قلبك بالإيمان.. ويصدح لسانك بالحق والعدل، وتضيء كُلّك وتكون فوق معاني الحياة.

أثناء تجوال القائد المقدوني العظيم الإسكندر الأكبر في شوارع أثينا، شاهد الفيلسوف ديوجين اللافرسي قابع في جوف برميل متهالك، فسأل الإسكندر ديوجين هل لك من حاجة، إنني أستطيع مساعدتك، اطلب ما تريده، فقال ديوجين إجابته الشهيرة التي خلدها التاريخ: أريد منك شيئًا واحدًا، فقال الإسكندر وما هو؟

قال ديوجين: «ابتعد فأنت تحجب عني أشعة الشمس»

ديوجين هنا يعلم من يخاطب، فهو على علم بأنه يخاطب الإسكندر الذي يملك الدنيا، وأنه باستطاعته أن يلبي له أي طلب، ويفعل له ما يريد، ورغم ذلك لم يطلب منه شيئًا، بل رد عليه ردًا حكيمًا، يقرر به أنه يستغني عن كل ما يستطيع تقديمه ديوجين، وأنه يزهد في كل ما معه من أموال ونفوذ، وهنا تبين وتتضح قدرة ديوجين على التخلي عن كل شيء، لم يكتف ديوجين بالقول، بل طبق ذلك عمليًا بالفعل، فرفض دعوة الإسكندر لمساعدته، بل طلب منه أن يتنحى جانبًا، لأنه بإغرائه بما يعرضه عليه يفسد عليه سعادته واطمئنانه، فسعادته في التخلي عن الأشياء التي تعيقه عن حياة البحث والتأمل.

من هذا الحوار الذي دار بين الإسكندر وديوجين، ورد ديوجين المنطوي على الفضيلة والحكمة، يتبين لنا أن القدرة على التخلي والاستغناء تجعل صاحبها إنسانًا طبيعيًا غير متكلف ولا متصنع، لا يحابي ولا يجامل ولا يصانع ولا يتزلف من أجل مصلحة أو منفعة؛ لأنه فطن أن هذا التخلي يجعله بريئًا نقيًا طاهرًا، أقواله وأفعاله مادة واحدة ويخرجون من مشكاة واحدة، نورها نقي شفيف، وهذا النور لا يصاحب إلاّ حرًا.

لذلك فالحرية باهظة وكثيرة التكاليف.

* * *

النفوس النقية لا تنكر نور الشمس

«لا كرامة لنبي في وطنه»

«زامر الحي لا يطرب»

قولان مأثوران يحملان نفس المعنى، وفحواه التقليل من شخص نعرفه، عاش معنا على نفس الأرض، وأظلته نفس السماء، لكنه اجتهد ونبغ في علم من العلوم أو تفوق في مجال من المجالات، وأصبح ذا شأن ومكانة بسبب عمله واجتهاده، هذا الشخص المجتهد لا ريب أنه يكون في أمس الحاجة للتقدير من قبل من يتعامل معه، ليشعر بقيمة ما قدمه وما أحرزه في هذه الحياة؛ لكن على ما يبدو أن التقدير لهذا المجتهد يكون محفوفًا ببعض التحفظات من أهله وبني جلدته ومجتمعه اللذين لا يقدرونه حق قدره، بل يصل الأمر في بعض الأحيان لمحاولة التقليل منه ومن منجزه والتهميش من الذي وصل إليه.

لذلك يعد من الرزايا أن تجد البعض من أهلك وذويك ومجتمعك لا يقدرونك ولا يكبرونك جزاء ما قدمت من عمل واجتهاد ونبوغ، بل تجد منهم يضمر لك السوء ليس لعيب فيك، وإنما لاجتهادك ونبوغك؛ لأنك بنجاحك ونبوغك أثرت مواطن النقص فيهم، فنقموا عليك، وقد يدفعهم نجاحك ونبوغك أن يترصدوك ليس حبًا فيك، بل انتظارًا لهفوة منك أو كبوة، ليستثمروا فيهما، محاولين النيل منك والانتقاص من قدرك، يقدمون على ذلك ليس بداعي النقد والتقييم؛ ولكن بهدف الهدم والسقوط، لعلة في نفوسهم، قد تكون جهل أو عقدة ذات، أو طمعًا في مصلحة أو تشويه لصورة.

في المقابل تجد التقدير من بعض أهلك وذويك وهم – قليل جدًا – ومن الغرباء عنك الذين تجد منهم الاحتفاء والإقبال والإكبار والتقدير، هؤلاء جميعًا بينهم قاسم مشترك وهو صلاح أنفسهم ورقي فكرهم، لذلك يقدروك، ويشدون من أزرك ويحترمونك ويجلوك، طالما اجتهدت وأفرغت وسعك في الاجتهاد، لا ينكرون مجهودك ولا عملك لأي سبب كان فالتقدير عندهم يعطونه لمن يستحق.

لذلك من لا يقدرك وينتقص من عملك ومجهودك وانجازك ولوكان ذا قربى فهو دعي هدم وتقويض، ولا تنظر منه مكرمة ولا تقدير، لذلك لا تلقي لهم بالًا، وأعرض عنهم، واستمر في عملك، ومهما حاولوا انكار نبوغك أو التقليل من اجتهادك، لن ينتقصوا منك ولا من عملك شيئًا، فنكرانهم وإعراضهم أدنى من أن ينال منك أو من عملك، واعلم أن الشمس لا ينكر نورها إلاّ من كانت بعيونه رمد.

أمَا من يكافؤونك بالتقدير والاحتفاء والإكبار سواء كان من أهلك أو من ذوي قرباك أو من الغير، فاعلم أنهم أصحاب قلوب نقية وصفحات بيضاء، متصالحين مع أنفسهم، سوف يرفعونك على الأعناق حال نجاحك، ويُشدون على يديك ويؤازرنك حل إخفاقك؛ لأنهم باختصار لا ينكرون نور الشمس حتى ولو كُسف نورها، لعلمهم اليقيني النابع من أنفسهم النقية وأرواحهم الشفيفة بأن السماء يوجد بها نجوم كثيرة ولا حصر لها؛ لكن لا يخسف غير الشمس والقمر.

* * *

من هو الأحمق؟

قالوا«إن الأحمق كالثوب الخلق، إن رفأته من جانب انخرق من جانب آخر، مثل الفخار المكسور، لا يرقع ولا يُشعب ولا يُعاد طينًا»

وقالوا أيضًا «مثلُ الأحمق إن صحبتهُ عنّاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك منّ عليك، وإن أعطيتُه كفّرك، وإن أسرّ إليك اتهمك، وإن أسررت إليه خانك، وإن كان فوقك حقّرك وإن كان دونك غمّزك»

لا ريب أن هذه الصفات مجتمعة تكون في الأحمق، وفضلًا على هذه الصفات تجده كذابًا، يستمرئ الكذب على نفسه حتى تصطبغ مصابيح دخيلته بالسواد الفاحم، فينعكس هذا السواد على جلّ معاملاته ينزع منها الفضيلة والحكمة، ويمحق بركتها ويجعلها دون فائدة، وإن ظن هو عكس ذلك، فهو ظن يرفد من نفسه السيئة وقلبه المتفحم بالسواد واللذان يجعلانه غير قادر على فهم ما يقوم به فهمًا صحيحًا، فيشكل عليه معرفة الصواب من الخطأ، ولا يميّز بين الفرض والسنة، فيهيم على وجهه غير عابئ ولا مكترث بما يجترحه من أخطاء وخطايا.

هذا الأحمق يخلق لنفسه عالمًا يعيش فيه وحده، يستن فيه قواعد تمتح من رؤيته المشوشة وفكره السقيم المعتل، فتختلط أوراقه ويوهم نفسه بأنها منتظمة، وتتبعثر رؤاه ويظن أنها مجتمعة، وتتبدد معانيه والتي يظن أنها متراكبة ومتكاثفة.

يرى هذا الأحمق في الكذب سبيلًا لتحقيق ما يريد، وفي الخداع والنفاق والتزلف والمداهنة والمداورة والتصنع أسبابًا مشروعة لتطلعاته، فسواد دخيلته يبرر له كل الدنايا والموبقات في سبيل ما تطمح إليه نفسه، ولهذا تراه في كل واد يهيم، فتجده متواضعًا ليس بمفهوم التواضع وإنما تواضع الذل لمن يعلوه تارة، ولمن يدنوه تارة أخرى، وما أن يحقق مبتغاه من هذا التواضع المرذول حتى يزدري من هم دونه ويصعرّ خده لهم، ويتنكر لمن هم فوقه ويشمخ عليهم متى سنحت الفرصة.

كذلك تجده عند كل مصلحة يُنكس رأسه ويتهافت على الكبير والصغير والعظيم والحقير، فلا يتورع في أن يخالط الهمج والرعاع وسفلة القوم متى رأى في هذه المخالطة نفعًا يعود عليه.

يزدري أهل الفضل، وتمتلأ نفسه بالبغض والشنآن عليهم؛ لأنهم دائمًا يذكرونه بمواطن النقص فيه، فيعمد إلى محاولة تشويههم بالانتقاص من قدرهم بهمزهم واغتيابهم وبهتانهم والافتراء عليهم بمنكر القول وزوره، يهمش من شأنهم بين الناس أو بينه وبين نفسه، وإن كان ذلك يُعنّيه ويرهقه؛ لأنه أعلم الناس بفضلهم وقدرهم وعطائهم؛ لكن ما هي إلاّ أماني زائفة وأوهام باطلة يُمني ويوهم نفسه بها.

ويبلغ الهوان بهذا الأحمق أن يتحرّز ويستقوى بمن هم على شاكلته أومن احتال عليهم، فيرى العزة في نفسه متى أثنوا عليه أو مدحوه، فيزداد صلفه وغروره وكبره وتسقط همته أكثر وأكثر، ويتلبّسه وهم العظمة فيتيه ويشمخ متطاولًا مختالًا فخورًا يزهو بمفاخره الواهية، ويزدهي بمناقبه البالية، ويفاخر ما استطاع المفاخرة، وهو الساقط في حمأة الجهل لا يفرق بين الفتيل والقطمير، يختفي وراء رداء يلبسه هو أغلى ما فيه.

مثل هذا النوع من الحمقى رغم وضوح حمقه؛ لكن بكذبه وتحايله ونفاقه يصعب ويشكل على العامة من الناس معرفته؛ لكنه لا يستعصي فهمه ومعرفته على أهل الفضل أبدًا؛ فلقد وهبهم الله من فضله القدرة على فرز الغث من السمين، ومعرفة المعدن النفيس من الرديء والتمييز بينهما.

* * *

العبودية هي الطموح الذي يتجاوز القدرة وتمني حياة الآخرين.

قد تطمح فوق حدود قدراتك، وتعجز قدراتك عن تحقيق ما تطمح إليه.. قد تتجاوز حدود المتاح إليك بالنظر إلى ما لدى الآخرين وتتمناه لنفسك.. وفي الحالين أنت تكلف نفسك ما لا تطيق.

هذا ليس معناه المطالبة بالكف عن الطموح، بل ما أرمي إليه هو أن توازن بين طموحك وقدراتك؛ لأنه إذا كان الطموح أكبر من القدرات، حتمًا ستخفق في تحقيق هذا الطموح، وحال الإخفاق سوف تُصاب باليأس، ومن ثمّ سوف تلازمك الكآبة وينخر في روحك القلق والخوف، والنتيجة سوف تكون السقوط والانهيار، وستتحول من شخص طامح إلى شخص يائس مكبوح، تتهاوى شخصيتك وتضعف، ولسوف تشعر بالدونية، كلما ارتقى طرفك إلى أشخاص آخرين تراهم يفوقوك نجاحًا وتقدمًا.

أرى أنه بطموحك الذي يفوق قدراتك أدخلت نفسك في هوة اليأس والانبطاح، وأفقدت نفسك الثقة، وفقدان الثقة يعني فقدان الهوية، وعدم القدرة على التكيّف مع الناس والمجتمع لأنك ستظل عرضة لجلد الذات وتأنيب الضمير.

وكما قلت آنفًا هذا ليس معناه أن تكف عن الطموح، بل ما أقصده هو أن توازن بين قدراتك وبين الطموح الذي تروم الوصول إليه، فإذا كنت لا تُجيد السباحة، فلا تطمح لعبور المانش، ، وإذا كنت لا تجيد الرسم، فلا تطمح لرسم لوحة كالموناليزا؛ لأن تحقيق الطموح سوف يكون مستحيلًا. وإذا كنت تجيد السباحة أو الرسم، فاطمح في حدود همتك وما تمتلكه من مقومات لتحقيق هذا الطموح والمقومات التي أعنيها قوة الإصرار والعزيمة، الصبر، السعي الحثيث للارتقاء ومواصلة الطريق، التخطيط ووضع منهجية لما تريد الوصول إليه.

يرى الفيلسوف «فريدريك نيتشه» أنه يتوجب علينا أن لا نضع ثقلنا في شيء إلاّ إذا كانت قدراتنا تتجاوزه «وأراني أوافقه فيما نحا إليه فالقدرة

المتمثلة في الموهبة أو العمل الدؤوب وردفهما بالقوة والعزيمة والاجتهاد والسعي يمنحنا العزيمة الداخلية ويُعزّز من قدرتها على تحقيق ما تريد الوصول إليه، وبمفهوم المخالفة فإذا كانت القدرات أقل من الطموح، ووضعنا ثقلنا وتفكيرنا في تحقيق هذا الطموح، فإنه لن يتحقق، وبذلك نكون قد ألقينا بأنفسنا في هوة الفشل والإخفاق، ونكون بذلك قد غامرنا بأنفسنا وبحياتنا، وأورثناها القلق والاضطراب، وأفقدناها الحرية على حد قول الفيلسوف أبكتيتوس «ليس ثمة غير طريقٍ واحدٍ إلى الحرية، أن تضرب صفحًا عمّا ليس في قدرتك»

كذلك قد تكلف نفسك بما لا تطيق بعدم رضائك عن حياتك، والنظر لحياة الآخرين، وتمني حياتهم، هذا التمني فضلًا على أنه يورّثك الحقد والأنانية، ويجعلك أقرب للشر منه إلى الخير لأنك ترى –بدون وجه حق– أنك كنت أحق منهم بهذه الحياة؛ يجعلك تعيش حياة البؤس والشقاء، لفقدانك معنى الحياة بعماك عن حقيقة النعم التي أنعم الله بها عليك، والتي تراها قليلة ولا ترقى إلى ملء عينيك؛ لكنها – لو تعلم – كفيلة إذا أمعنت النظر إليها وقنعت بها لبعثت في نفسك الرضا والاطمئنان والمحبة.

وعدم رضاك عن حياتك، وتمني ما لدى الآخرين يصيبك بأمراض نفسية أهمها الإحساس بالدونية والنقص، وفقدان الثقة في الذات، ويجعلك تعيش حياة القلق والتوتر، وحال تحقيقك أي منجز، لا تشعر بالاكتفاء، بل تتطلع إلى المزيد، ليس بهدف التطور والترقي، بل بهدف الامتلاك والاستحواذ الناتج عن شره النفس وطمعها ومقارنتها بالآخرين.

ولكي تكون حرًا يجب عليك أن لا تنظر إلى حياة الآخرين ولا تتجاوز بعينيك ولا بقلبك ما أنعم الله به عليهم من هبات وعطايا.

يقول الفيلسوف إبكتيتوس «من يريد أن يكون حرًا فليكف أن يرغب في أي شيء في قدرة غيره، وإلاّ فإنه يكون لا محالة عبدًا»

إذن ولكي تكون حرًا وتعيش حياة هادئة مطمئنة لا يشوبها القلق والاضطراب، عليك أن تعرف قدر نفسك وتؤمن بها، وأن تعرف ما

لديك من قدرات ولا تتجاوزها بمحاولة إنجاز ما يفوق هذه القدرات ويحمّل نفسك فوق طاقتها، كما عليك أن تقنع بما لديك، وتسعى في حدود قدراتك للتطلع للأفضل دون المساس بحقوق الآخرين وبما لديهم، وعليك أن توقن بأن الحياة خليقة بأن تحياها مهما كانت أحوالها حلوة أو مُرّة، يحفها اليأس أو تزخر بالأمل، ينبت فيها الورد أو الشوك، يعلوها الضجيج، أو تترامى في أحضانها الطمأنينة، وفي ذلك يقول الفيلسوف سورين كيركيجارد «علينا أن نعيش حياتنا مهما كانت تعيسة أو مفرحة لأنها محسوبة علينا»

* * *

أشباه الرجال

احذر أن تحملك لحظة غضب، أنانية، طمع، مصلحة، شهوة، نزق، على أن تجعلك تتخلى عن مبادئك، واحرص على العمل بمبادئك التي آمنت بها، وأخذتها دستورًا لحياتك، واحرص على تطبيقها، واصدح بها قولًا وعملًا، لا تتبرأ منها، أو تسقطها متعللًا بظروف فقر أو عوز أو مصلحة أو خوف أو تهديد لأن من يفعل ذلك فهو بلا مبدأ، ويكون كأشباه الرجال

الفيلسوف (زينون) لا يؤمن بنظام الرق، بيد أنه يضرب عبدًا لديه ارتكب ذنبًا، ولعلم العبد بمعتقدات زينون ومبادئه، راح يتوسل إليه أن يخفف من ضربه قائلًا له: إن فلسفتك تقول «أنّي مُسيّر في ارتكاب ذنبي»

العبد يطالب زينون بإعمال مبادئه ومعتقداته وتطبيقها عليه، فالذنب الذي اقترفه لا دخل له فيه، وإنما هو مجبر على فعله، هكذا تعلم العبد من فلسفة زينون، لذلك هرع يناشده أن يعفيه من العقاب من واقع فلسفته ومعتقداته ومبادئه، غير أن الرد جاء قاسيًا من زينون بأنه أيضًا مُسيّر لا مخيّر في ضربه، زينون هنا غلّب أنانيته واستسلم لنزقه، مستهينًا بمعتقداته ومبادئه، مقدمًا ذاته على مبادئه.

وفي رأيي أن زينون ومن يحذو حذوه إذا غلّبوا الذات والمصالح على المبدأ والاعتقاد أيّا كانت المكاسب والمخاطر هم أشباه رجال، لأن من يُعلي مصلحته على اعتقاد أو مبدأ هو من أشر الناس وأخسسهم، فمن يقامر بمبادئه لغضب تملكه، أو أذىً حاق به أو لشهوة تلبّسته، أول تغليب مصلحة، فهو من أشباه الرجال، فلا قيمة للرجولة بدون مبدأ، ولا إعلاء لمبدأ بدون رجولة، ولا حياة ولا كرامة لرجل بدون مبدأ.

لذلك عندما يكون الإنسان بلا مبدأ، تتغير مواقفه ونوازعه حسب الهوى والمصلحة، بغض النظر كان هذا الإنسان عبقريًا أو أحمقًا، عاقلًا أو به فدامة، مشهورًا كان أو خاملًا، مؤمنًا كان أو كافرًا، الأهم هو ما يؤمن به لذاته، وليس ما تؤمن به ذاته في سبيل الحقيقة وقيم العدل والعدالة

والحرية والإنصاف، وكما كان زينون بلا مبدأ، كان (سلفادور دالي) وهو أحد أشهر رسامي القرن العشرين كذلك ولا سيما حينما سئل ذات يوم عن سبب أخذه وسامًا من الجنرال (فرانكو) الطاغية والمستبد، والذي كان يسوم المفكرين والأدباء والفنانين سوء العذاب من أجل معارضتهم إياه، بل قتل منهم الكثير، أجاب دالي بطريقة دبلوماسية فيها من التحايل والمراوغة ولطالما ما نراها في أصحاب المصالح والأهواء والمجرودين من القيم والمبادئ والذين في سبيل مصلحتهم يبررون أية وسيلة، حتى ولو كانت ضد المبادئ والقيم العليا.. قال دالي «إن الملتزمين هم الخدم وأنا أريد أن أبقى سيدًا على الدوام»

كان رضا سلفادور دالي بتقلد هذا الوسام خيانة لكل من عُذِّب وقتل من أجل الحقيقة والحرية والعدالة والإنصاف.

زينون وسلفادور دالي قامروا بمبادئهم، وجعلوها مجرد شعارات، لا تسمن ولا تغني من جوع وكانت مجرد كلمات لا قيمة لها، فتجريدها من مضمونها بعدم تطبيقها جردها من تأثيرها، وجرد من يحملها وينعق بترديدها من مبادئه، فجعلته يشبه الرجال.

* * *

لا تيأس فجوهر الحياة هو التغيير

لا تجعل اليأس يتسلل إليك، ويملك عليك نفسك وحياتك، ما بين الصباح والمساء تتبدل الأحوال وتتغير الظروف، بل كل ثانية تمر تحمل التغيير والتبديل، فقط عليك العمل والاجتهاد، لا تركن إلى التشاؤم والسلبية فالزمن لا يتوقف، وكالماء الجاري، تتداول الأحداث والأقدار، وفي جريان هذا التداول لا تعرف ما يخبئه لك القدر، وكما يقول (هرقليطس) «لا يخطو رجل في نفس النهر مرتين» فجوهر الحياة التغيير، لذلك اعمل واجتهد وأحسن الظن بالله، فالكون كون الله لا ملكية لأحدٍ عليه ولا استحواذ على تسييره وتقدير أحوال الناس وأقدارهم، ومهما حاول بعض البشر أن يتحكموا في الكون وفي الناس، فلن يفلحوا في ذلك، لأن هذا الأمر فوق طاقتهم، وفق تصورهم، ومن رحمة الله ورأفته ولطفه بعباده، أنه هو من يتحكم في مصائر الناس وأقدارهم وفق مشيئته وإرادته.

فالكون بما فيه ومن فيه رهين أمر الله وحكمه، وتتداول الزمن والأيام حكمة إلهية ستظل باقية وسرمدية لا تريم حتى يلفظ الكون نفسه الأخير.

لذلك فلا تيأس مهما اشتد الحصار، ولا تنكسر مهما كان وقع طرقات الألم

ومهما كانت عواصف الحزن والمآسي والآلام في داخلك ابني سورًا وسياجًا منيعًا حولها يحصرها ويقيدها كي لا تنال منك أو تهد قوائمك، لملم شعث نفسك وركام روحك واسق زهرة قلبك بالأمل، تتفتح أوراقها، وما يدريك لعل الله يحدث لك ما يجعلها في اخضرار دائم لا ذبول فيه ولا شحوب.

فقط اعمل واجتهد، ولا ترجو المثوبة من عبد، فالكون وما يتداول فيه من مقادير بيد الله، وأجدني وأنا أكتب هذه السطور يحضرني حادثة وقعت لبابلو بيكاسو الفنان والنحات المشهور وأحد أشهر الفنانين في القرن العشرين عندما قدم إلى باريس تنهشه الفاقة فكان فقيرًا معدمًا، وليس معه إلاّ نتاج عمله لوحات فنية، حاول أن يبيع إحداها بدولار

واحد، ليشتري به طعامًا لكنه لم يفلح في بيعها، وجفل راجعًا إلى غرفته المتواضعة التي يسكنها ووضع اللوحة جانبًا و التي لم تسلم من البلل بماء المطر، يبيت بيكاسو طاويًا وحزينًا وتمر الأيام ويبيع اللوحة التي بللها المطر والتي لم يتقدم أحدٍ لشرائها بنصف مليون دولار.

ولعل أبلغ ما قيل في تغير الظروف وتبدل الأحول، وتداول الأيام هذه الكلمات الماتعات.

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلاّ خالي البال

ما بين غمضة عين وانتباهتها يُغير الله من حال إلى حال.

* * *

الحب أو البغض قد يغيبان عقلك عن الحقيقة

إن كرهنا لتوجه ما وحبنا لآخر؛ قد يغيّب عقولنا، ومن ثم نفقد الثقة عند الحكم على الأمور لخلل الأدلة التي يعتمد عليه العقل، لذلك ينبغي علينا أن نحرص على أن لا يحملنا كرهنا لتوجه ما، وحبنا لآخر أن نتبنى الضلال ونهدر الحق.

وأجد أن هذا ما يحدث بين كثير من الناس على اختلاف أهوائهم وميولهم ومشاربهم، فهم يميلون لمن يميل لهم هواهم، ولمن يستريحون له بغض النظر هل هو على حق أم على باطل، فلو كان الحق أو مع من يبغضون أو يختلفون معهم في وجهات النظر، لن ينصفوهم ولن يسلموا لهم بأنهم على حق والسبب البغض أو الاختلاف، والعكس هو الصحيح، يصدقون من هم على باطل لأنهم يحبونهم أو متوافقون معهم في الميول والاتجاهات

ولعلّ المثل الشعبي الشهير الذي يجري على ألسنة العامة من الناس والخاصة منهم «عدوك يتمنالك الغلط وحبيبك يبلع لك الزلط» هو خير مثال على ذلك، فالناس تغفر زلات غيرهم ولو كانت مثل زبد البحر لو كانوا يحبونهم، أو متوافقين معهم في الميل والاتجاه، والحب والرضا هذان يغلقان أبواب التفكير، فيتغاضى من يحب عن نقد من يحبه ويرضى عنه، وبمفهوم المخالفة، فإن بغض إنسان لإنسان واختلافه معه، يجعله يتبع زلاته واخطائه ولو كانت قليلة، ليتعمد إظهارها، ويصورها أنها من الموبقات والمهلكات التي لا تغتفر، ويذهب مذاهب أكبر من ذلك فيغيب عقله عن الحقيقة حتى ولو كانت ناصيتها بيد من يبغض أو يختلف معه، هكذا تم تجسيد هذه الحالة في المثل الشعبي السابق، وهذا المثل من الشيوع والانتشار في بلادنا العربية، وربما في العالم، لكن في بلادنا العربية وجوده بصورة أكبر، ولعل في تراثنا

العربي ما هو ترجمة لذلك وهو بيت شعر فصيح اعتقد أنه المصدر الذي استقى منه المثل الشعبي السابق مادته وفحواه، والبيت هو:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدي المساويا

* * *

فانوس الطفولة

في طفولتنا كنّا نحمل فانوسًا مضيئًا لنلعب به، لم نكن نعلم أننا سوف نحتاج لهذا الفانوس عندما نكبر، ليس لكي نلعب به، وإنما لنبدد وحشة الظلمة التي رانت على قلب الإنسانية.

نريد هذا الفانوس كي نبحث به عن فطرتنا التي سقطت في غياهب الدنيا الزائفة المخادعة، دنيا النفعية والمصالح والشح، وعبادة الذات وتهميش الآخر، والتمييز بسبب اللون أو الجنس أو العرق أو اللغة أو الوطن.. الخ.

نحتاج لهذا الفانوس كي نبحث عن إنسانيتنا، لكي نرى في نوره ثوب الحقيقة، ربما نرتديه، ونخلع عنّا ثوب الباطل، نعم نحتاج فانوس الطفولة

وفانوس الطفولة الذي أقصده ليس فانوس (ديوجين اللافرسي) هذا الفيلسوف الذي أمسك بفانوسه المضيء في وضح النهار، وتحت نور الشمس راح يجوب شوارع أثينا والناس ينظرون إليه ويضحكون، لأنهم ما عاهدوه إلاّ رجلًا عاقلًا حكيمًا، فكيف يعقل لمن هو مثله أن يقدم على مثل هذا التصرف بأن يمسك فانوسًا مضيئًا في ضوء الشمس ويبحث عن ضالته؟! وعندما سألوه عن أي شيء تبحث؟ أجابهم الجواب الحكيم والمشهور عنه «إنني أبحث عن إنسان»

إن ديوجين كان يبحث عن ذلك الكائن البشري الذي يحمل علامات الإنسانية، هذا الكائن الذي تتجسد فيه قيم الخير والحب والجمال والحق والعدل والإخلاص، الإنسان الذي يحب ولا يكره، الذي يمد يديه للجميع بالمحبة والسلام، الإنسان الذي يغرس النبتة لتنمو بالخير والمحبة، والذي يلقي شراع وده يخفق بالجمال والأمل، الإنسان الذي يوزع بطاقات وصكوك ممهورة بطابعه الإنساني، ربما كان ديوجين مغالٍ في فلسفته، لكن لا ضير أن نجرب هذه الفلسفة، وأرى أننا فضلًا على فانوسه هذا، نحتاج إلى فانوس طفولتنا، ليساعدنا أن نبحث في دواخلنا،

وأن نتلمس حقيقة إنسانيتنا من شرفات قلوبنا وأرواحنا، وأن نستدعي فطرتنا لنحاكيها، ونستلهمها، ربما لا تذهب عنّا، وتظل معنا، ربما نجد إنسانيتنا، والتي إذا وجدناها لسوف تكون لحظة ميلادنا الحقيقية.

* * *

كبرياء أبو جهل هو من أرداه الجحيم

إن من سمات منكري الحق والحقيقة في كل العصور، حب الذات والتعالي والكبرياء، والبحث عن المنافع والمصالح، لا يهمهم الحق والحقيقة بقدر ما يهمهم ذاتهم ومصالحهم. هؤلاء يعيشون رهائن الأنانية، وحب الذات وعبادتها، وتفضيل المصالح على الحق والحقيقة، فمن أجل كبريائهم يسوفون الحقيقة حتى ولو كانت واضحة مثل نور الشمس، ينكرون الحقيقة ليس بدافع المناقشة والتحليل، وأن لديهم وجهة نظر ورؤية، بل ينكرونها لأنها سوف تحط من كبريائهم، أو تقوض مصالحهم كما يعتقدون.

قد يخطئ امرأً ويصر على هذا الخطأ ولا يتنكر له، وإصراره وعدم نكرانه له ليس لعدم معصوميته من الخطأ، فهو يعلم علم اليقين أن البشر لا معصومية لهم من الخطأ، وأن النقص يستولي عليهم جميعًا، لكن إصراره وعدم تنكره ينبع من إرضاء ذاته وما يتلبسها من داء العظمة والكبرياء أو حماية لمصالحه، وقد يصر آخر على عناده، ويسلك درب الوعورة والباطل، وفي قرارة نفسه يعلم أنه سلك الدرب الخاطئ وأنه يمشي فيه على غير هدي، لكنه يستمر فيه غير مكترث، يزهو بعناده وضلاله، يعتمر تاج الباطل، ليس حبًا فيه، بل حبًا لذاته وكبريائه ومصالحه.

ولا شك أن هؤلاء من المستحيل إقناعهم بغير ما يرون أو يعتقدون، وسيعيشون ويموتون على اعتقادهم الضال ورؤيتهم الشاذة المنطوية على إزهاق الحق وتسويف الحقيقة.

وأراني في هذا السياق أذكر قصة عمرو بن هشام (أبو جهل)، هذا الضال الذي أنصت لسطوة عناده، وفضل ذاته وكبريائه على الحق والحقيقة، فلقد هوى الرجل في بئر الباطل رغم عقله وحلمه، فالرجل دعي له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعز به الإسلام وأن يكون في إسلامه المنعة والذود عن حياضه، وما كان اختيار الرسول له جزافًا، فالرجل مناقبه معروفه، ومكانته من قومه معلومة ومقدرة، ورأى الرسول أن في إسلامه هو أو عمر بن الخطاب نصرة للدعوة وشدًا من أزرها، فقال عليه الصلاة والسلام «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» أسلم بن الخطاب وأذعن لصوت الحق، أما عمرو بن هشام أبى وتمنع وترك قياده لهوى نفسه وعناده وكبريائه، ورام مصلحته، فرغم علمه بأن دعوة الرسول حق إلاّ نفسه أبت أن تخشع لهذا الحق، فقد سمع القرآن وعرف الحق، وعندما سئل عمًا دعي إليه من الحق، ظهر عناده وفضل ذاته ومصلحته، وظهر ذلك في جوابه الشهير «لقد تنازعنا نحن وبني عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الخبر من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به ولا نصدقه»

الرجل علم الحق، ولكنه تنكر له عنادًا وصلفًا وتكبرًا، فعجز عن ولوج طريق الحق واستبدله بطريق الباطل، ليس لضعف في عقله، وإنما حبًا لذاته، وحرصًا على منافعه ومصالحه المادية.

* * *

الحقيقي فقط في هذه القصة عظمة فيلمنج وتشيرشل

افعل الخير، لا تنتظر جزاءً ولا شكورًا، تطلع إلى المثوبة من الله، فهو لا يضيع صنيع خيرك.

يحكى أن فلاحًا أسكتلنديا فقيرا أثناء تواجده في حقله تنامى إلى سمعه صيحات استغاثة آتية من بعيد، فتتبعها فوجدها لفتىً موحول في بركة من الطين يستغيث، فهرول الفلاح لنجدته وبعد عناء أخرجه من البركة، وبعد ذلك جفل الفلاح عائدًا إلى كوخه بعد أن شكر الله أنه ساعده على إنقاذ هذا الطفل، وفي اليوم التالي والفلاح جالس في كسر بيته يسمع طرقات على الباب، فينتهض واقفًا ليفتح الباب فإذ برجل عليه أثر النعمة يرفل في الثراء والغنى، ظهر ذلك من ملابسه الأنيقة وعربته المزركشة التي تجرها الخيول المطهمة الرابضة أمام الكوخ.

استفسر الفلاح من الرجل عن سر زيارته، فأجابه قائلًا: «جئت أشكرك على حسن صنيعك مع ابني الذي أنقذته بالأمس، وأجزيك عن معروفك وإحسانك خير الجزاء» ومد له يده بمال كثير، فأبى الفلاح أن يأخذه، قائلًا له: «لقد فعلت ما يمليه عليّ ضميري»

ولم تغن محاولات الرجل الثري في إقناع الفقير أن يتقبل مكافأته، وعلى إثر هذا الرفض، كاد الرجل الثري أن ينسحب يائسًا دون أن يكافئ هذا الفلاح الشهم، لولا أنه رأى في أحد زوايا الكوخ طفلًا صغيرًا، فوثبت إلى ذهنه فكرة أباح بها إلى الرجل الفقير فورًا، وهو أن يساعد هذا الطفل ويكفله في كل مراحله التعليمية، وقال للرجل الفقير: «كما ساعدت ابني، فدعني أساعد ابنك» فوافق الفقير، وأوفى الثري بوعده وتعهد ابن الفقير بكفالته ورعايته، وتعلم ابن الفقير بفضل مساعدة ومنحة الرجل الثري.

وتخرج ابن الفقير بعد فترة من كلية طب مستشفى ماري في لندن، وأصبح طبيبًا شهيرًا، وازدادت شهرته وذاع صيته عندما اكتشف للعالم

والبشرية أحد أعظم التطورات في الطب العلاجي (البنسلين) هذا المضاد الحيوي الذي أحدث ثورة في مجال الطب منذ اكتشافه عام 1928م، وبسبب فعل الخير كان هذا البنسلين، لمكتشفه سير (ألكساندر فليمنج) ابن الفلاح الشهم.

ولم تنته الحكاية بعد، فلقد تعرض ابن الرجل الثري للخطر إذ أصيب بالالتهاب الرئوي، ولم يكن له علاج وقت ذاك، لكن بفضل البنسلين تم إنقاذه على يد ابن الفلاح فليمنج.

فمن يا ترى الرجل الثري الذي تكفل بتعليم هذا العبقري الذي أفادت منه البشرية؟ أنه اللورد (أندلوف تشرشل) وابنه المريض الذي عالجه فليمنج هو (ونستون تشرشل) أعظم رئيس وزراء بريطاني على مر العصور، الرجل الذي كان له الفضل في انتصار الحلفاء على دول المحور بزعامة هتلر في الحرب العالمية الثانية، وجنب العالم ويلات حرب كانت لا تبقي ولا تذر.

وبفضل فعل الخير، كانت النتيجة ميلاد فيليمنج كطبيب أضاف للبشرية، وميلاد تشيرشل وحمايته لها، لذلك افعل الخير ولا تنتظر جزاءً ولا شكورًا، وتمثل دائمًا قول الشاعر (الحطيئة)

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

* * *

احرص ألا تكون وردة بلا رائحة

ابحث عن سعادتك فيما تستطيع أن تفعله، لا تجعل أحد يجبرك على ما لا تحبه، ففعلك ما لا تحب فيه إهدار لمشاعرك وقوتك الإنسانية، بل فيه إهدار لطاقاتك واستنزاف لمواطن الإبداع لديك، مما يجعلك عبء على نفسك وعلى مجتمعك.

لا تجعل أحد يجبرك على إتيان ما لا تحب، حتى ولو كان يرى أنه فيه الخير لك، فالميول والاتجاهات مختلفة، فما يكون أصلح للبعض لا يكون كذلك للآخرين، لذلك اعرض الأمر على عقلك ووجدانك قبل أن تقبله، فإن رأيت أنه الأصلح لك من خلال رؤيتك وتقبلك له، فأقدم عليه، أما إذا لم تنسجم معه أو رأيت فيه نفورًا من ناحيتك فلا تقبله، فلا تقع فريسة لنظرات المجتمع وتصوراته، فقد يرى المجتمع أن من يلتحق بكليات ما أو وظائف معينة هم الأفضل داخل المجتمع، قد تستسلم لنظرة المجتمع هذه، فتقدم على الالتحاق بهذه الكليات أو الوظائف دون أن يكون ذلك متوافق مع ميولك ورغباتك مما يؤثر بالسلب على مسيرتك في الحياة، فلو أذعنت لرغبة أهلك أو المجتمع دون رغبتك أنت فقد تخسر كثيرًا لأنك ربما تنجح لكنك بالقطع لن تكون مبدعًا، لأن عمل الشيء برغبة وحماسة وشغف يجعل صاحبه مبدعًا، أما عمل الشيء بدون رغبة، فيكون أداءً مجردًا من الحماسة والشغف ومن ثم يفتقد الإبداع.

والإجبار على فعل ما لا تحب قد يكون في عمل أو وظيفة، أو زواج، أو أي شيء متعلق بمناحي حياتك، إذا أقدمت عليه مدفوعًا بنظرة أهلك أو مجتمعك، دون أن تحتكم إلى ميولك ومدى حبك، ومدى مقدرتك على التعامل معه حتمًا ستخفق ولن تحقق فيه نتائجًا ترضيك، أو بالأحرى لن يجعلك مطمئنًا، لأن ما أقدمت عليه سيظل حجرة عثرة في طريق سلامك الداخلي، وعلى فرض أنك ومع مرور الأيام جنحت إلى

سياسة ترشيد الأوضاع، أو لم تجد بدًا من تبني سياسة الأمر الواقع، أو انتهجت نهج المواءمات والتوازنات، ورضيت، فلن يكون هذا الرضا إلاّ استسلامًا وخنوعًا، وستكون أشبه بالطائر الذي حرموه من الطيران ووضعوه في قفص، لكنه يأكل ويسمن، أو حالك كحال وردة جميلة تسر الناظرين لكن خالية من العطر والحياة، لأنها مصنوعة من البلاستيك.

* * *

سقوط الإنسانية يعني النهاية

ما أحوجنا إلى العودة لأنفسنا لنغسلها بالماء الطهور، ونستجدي شمس الإيمان لتجلونا بنورها، لنشحذ همتنا، ونستنهض قيم نحن في مسيس الحاجة إليها، كالفطرة والبراءة والنقاء والحب.. ربما تعود إلينا إنسانيتنا.. نحتاج لغراب آخر ليُعلّمنا كيف نواري سوءة ضمائرنا.

المؤرخ الفرنسي (ديد بيه شيرات) أستاذ التاريخ والجغرافيا في الجامعات الفرنسية، دأب على أن يثري وجدان طلبته بقصص التاريخ الإنساني التي يزخر بها العالم، ودون هذه القصص في كتاب تحت عنوان «قصص غريبة في تاريخ العالم» عندما وجد أنها لاقت قبولًا كبيرًا لدى طلابه.

كتاب شيرات يحمل بين دفتيه لألأ فريدة، وتحف نفيسة من هذا النوع من التاريخ الإنساني، ومن القصص التي راقت لي، ووقفت عندها كثيرًا قصة ملك الفرس الذي جلدّ البحر بالسوط، حيث أراد هذا الملك غزو المدن اليونانية وقهرها، حتى تدين له، فهي لم تكن بعد تحت سلطانه الممتد من البحر المتوسط حتى الهند.

هذا الملك جلد البحر ثلاثمائة جلدة، بعد أن وضع الجسور عليه، واستعد من خلاله كي يغزو اليونان، وقيل أن الملك قال للبحر وهو يجلده «أنت من حلت بيني وبين مدن اليونان، ولكني سوف أعبرك مهما كانت مشيئتك»، وبالفعل عبر ملك الفرس البحر، لكن اليونانيين هم الذين انتصروا في نهاية المطاف.

قال شيرات معلقًا على ما حدث «إن البحر لا يحب السوط» وهو بذلك يسخر مما فعله ملك الفرس، ويشير إلى أن البحر تأذى من العنف والتعذيب، فحال بينه وبين ما يريد.

هذا حال البحر فما حال الإنسانية التي لا نرحم صوت أنَّاتها، فنحن نجلدها ملايين المرات، ولا نفتأ نجلدها بسياط طمعنا، وحبنا لأنفسنا والغدر بها من خلال العصبية والتمييز بين الإنسان وأخيه الإنسان سواء بسبب عرق أو لون أو لغة أو دين، وبسبب انتشار الحسد والغل والحقد والطمع والمنافع والمصالح، وقتل الضمير، وللأسف ما زالت خناجرنا تلوك في قلب الإنسانية، وسياطنا تنهال عليها جلدًا، فواقعنا المرير يشهد أقسى الطعنات الغادرة للإنسانية، من حروب عسكرية وبيولوجية واعتداء على حق الإنسان في الحياة، وهي لازالت تقاوم بأسنا وغطرستنا، مشفقة على البعض منّا – وهم قليل – يحاول ترضيتها، وجبر كسرها، ورتق ما تمزق منها، ولملمة شعثها، رافعين شعارها الحب والإخلاص والسلام والمحبة، يسعون إلى إدراكها، لأنهم يعلمون أن في سقوطها النهاية.

* * *

الرقي في المعاملة لا يمارسه إلاّ الصفوة.

الرقي في المعاملة لا يمارسه إلاّ الصفوة، وهؤلاء هم من يجعلون الحب والإخلاص دستورًا ومنهجًا لحياتهم، فهم دائمًا في خضم الحياة وتعركاتها يبحثون عن الكمال الإنساني بقلوبهم الصافية النابضة بالمشاعر الفياضة والأحاسيس الصادقة النبيلة.

قيل إن رجلًا تزوج من امرأة ولكنها، لم تحبه يومًا، وبعد أشهر معدودات، ضاقت ذرعًا بحياتها معه، رغم أنها ام تر منه إلاّ كل خير، وكانت تترصد له وتتربص به أن يخطئ، لتجعل من خطئه سببًا للابتعاد والانفصال عنه، لكنها يأست من أن تجد منه ما يضيرها أو يغضبها، فقررت الابتعاد عنه دون سبب، وطلبت منه أن يطلقها، حاول زوجها أن يثنيها عن ما عزمت عليه، وأنفق في ذلك محاولات عديدة بيد أن كل محاولاته باءت بالفشل، وبالرغم من أن ثورة حنينه إليها أقضت مضجعه، وأن حبه إليها غاية الغايات عنده، وأن افتقادها يعني اشتعال نار اليأس والحزن لا تنطفئ أوارها، إلاّ أنه نزل على رغبتها ولم يعلن الانتقام والتشفي والعناد، وإنما قرر موافقتها ورضاها، فرضاها غاية وإن كان فيه غروب شمسها عنه واختفائها في حواشي الأفق البعيد.أرسل إليها ورقة الطلاق ملفوفة بشريط أحمر ووضعها داخل صندوق مملوء بالورود وأرفق بداخله رسالة كتب فيها:

قال تعالى «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»، أخشى أن لا أكون أدركت الأولى ولكني أطمع أن أنال أجر الثانية.

راقت لي الرسالة، لما تنطوي عليه من معاني الجمال والإخلاص والرقة وصدق المشاعر، وحسن المودة، والسكن والرحمة، وفيها أيضًا كل معاني الرجولة الحقة، لقد استأثرت الرسالة بمشاعري وامتلأت له نفسي سعادة وحبورًا، ففيها تجسيد لكل العواطف الإنسانية، ولا سيما هذا الحب العفيف النابع من القلب والروح، فاستغرقتني نسائمه، وحلقت

بي نحو عوالم الصدق والإخلاص فيه، وعرّجت بي وطوّفت نحو النور، وعلمت أن الرقي في المعاملة لا يمارسه إلاّ الصفوة.

* * *

لا تفكر معي.. بل احلم معي

دائمًا ما نسمع عبارة «فكرّمعي» هي عبارة عادة ما تتداول بين شخصين أو أكثر يكون بينهما نقاش وحوار في مسألة ما، وعندما يعجز أحدهما عن التفكير، أو عن تكييف المسألة، أو وضع إطار لها، كان يقول لمحاوره أو مناقشه «فكرّ معي»

لكن نادرًا جدًا ما نسمع عبارة «احلم معي»

أو «احلم مع»

فلماذا الحث على الحلم؟ ولماذا يتوجب علينا أن نحلم؟

لأن الحلم في رأيي هو نور تجلت به الجنة على أهل الأرض، فعندما هبطوا منها، أحست بالحنين إليهم والاشتياق، فاقتطعت منها قبسًا

من نور، يستلهمه، ويستأنس به كل من أراد أن يتنسم عبيرها، ويستروح طيبها.. فالأحلام قبس من نور الجنة.

من أجل ذلك يجب أن نحلم.

نحلم.. لأنه في ظل الجدب والظلام، وانسدال العتمة على كل شيء.. لا ينفعنا إلاّ أن نحلم.

وفي ظل الانحسار والضيق والانقباض، وتقلص الحياة في كل شيء.. لا ينفعنا إلاّ أن نحلم.

احلم معي:

لأن العاجز هو من يفقد القدرة على الحلم.

احلم، ربما تُبصر عالمًا غير عالمك.

احلم بأن تجوب لجة بحر الحب، وتتيه بين أعطافه الجميلة الآسرة.

احلم بالعدل أن يكون أنيسًا وحبيبًا.

احلم بأن يعم الدنيا الحب والسلام.

احلم بأمسيات الفقراء في الليالي الباردة، وهم يتهامسون بالحب، ويلتحفون الرضا، تعلو الضحكة مُحيّاهم، يتوضؤون بالقناعة والإخلاص.

احلم بوطن، فيه حالمة تقف على شاطئ الأمل تُغني لحبيب.

احلم بوطن فيه المعلم يُعلّم دائمًا أن الحق ينتصر، وأن من يتعلم السباحة هو من ينجو من الغرق، لا وساطة لا محسوبية في العدل والشرف.

احلم بوطن لا تبعية فيه لأحد، بحجة أنه على الحق، بل فيه الحق يُعرف أولاً، وبعدها تكون التبعية.

احلم بالحب والايمان، احلم بالسكينة والأمان.

احلم بالحرية، احلم بوطن، يمنحك، الاسم، المعنى، الوجود.

احلم معي، وتيقن أن الأحلام لا تحدها النهايات، لأنها قبس من الجنة.

واحلم مع:

شاعر الجندول «بضفاف خضر، وأزاهير وقيثار، وتراتيل عشق، وسبحات تلهج بالحب، وأحلام فيها يشدو قمر بالأنغام، وعطر يفيض من أنفاس الحور، وأماني تهفو، وجنة خلد تدنو، ووردة تنمو، وسوسنة توشوش النجوى فوق الربا، تعانق الحب، تعانق النسيم، تعانق النور.

احلم مع درويش بالحنين، وكيف كان الحنين إلى خبز أمه.

احلم كما سميح القاسم، احلم معه كيف تكون

منتصب القامة

مرفوع الهامة

احلم، وردد معه:

بكفاحي

بدمائي النازفات

من جراحي

سوف أستل صباحي

من نيوب الظلمات

همتي الساحة، والصدر سلاحي.

احلم مع درويش وسميح وطه، احلم معهم بأن تحيا بفكرة شاعر، يضيق الوجود، ولا تضيق أحلامه، احلم بأن تزرع في الأرض جنة، أو أن تقتلع من السماء جنة.

احلم معي، واحلم مع كل حالم.. فالأحلام هي المتنفس الوحيد إذا تجبر الواقع وطغى، فهي

سندا لمن أعياه الواقع، فتنفث ضيائها، وتسرج ظلام الليل، وتبعث الأمل وتحييه، فترتقي بالنفس وتجلوها، ومن ثم تجعل لها

وجودًا.

احلم، فالعاجز الحقيقي هو من يفقد القدرة على الحلم.

احلم، فالحلم حياة، تحيا فيها الأموات، وتندمل فيها الجروح.. وفيها الصمت العاجز عن الحب يتكلم عشقًا ويبوح.

احلم معي ومع الحالمين.. وقل سلامًا للأحلام

لأنها تجعلنا نبصر لألأة الفجر البعيد

تجعلنا نبصر (الحق.. الحب.. الحرية).

الفضيلة لا يزيدها مال ولا ينقصها فقر

في زمن يكون فيه للمال والنفوذ والسلطة قوة شرائية لتحديد القيمة والمكانة، ولجذب تقدير الناس واحترامهم، لا يوجد مُستقبل.

الغنى: له قوة شرائية وائتمانية، فبه يستطيع صاحبه أن يحوز المكانة والفضيلة، وتتحدد قيمته وفق ما لديه من مالٍ ونفوذ ومكتسبات، وكلما ازدادت ثروته ومكتسباته، ازداد حضوره وتقديره ونما شرفه.

الفقر: عُملة رديئة، تفتقد القوة الشرائية، وهي ساقطة من التداول، وصاحبه ليس له أي قيمة، وهو عُرضة دائمًا للحط من شأنه، ومادة

خصبه للسخرية والازدراء، وفِي الغالب الأعم هو مهبط لكل الشرور والآثام، ومرتعًا لكل الآفات الأخلاقية.

هذا التقييم للغنى والفقير -للأسف- تواتر عليه غالبية البشر، ولا سيما فقراء الروح والوجدان منهم، ولا شك أن هذا التقييم يعوزه العدل والإنصاف، وهو تقييم سطحي لأناس مجردي القلب والعاطفة والضمير.

وفِي عقدي أيضًا أنهم بلا عقل، لأنهم يُقيّمون الناس تقييمًا شرهًا ينبع من غريزة حيوانية دأبها الاستئثار والاستحواذ والتملك، كما أن نأيهم عن الحقيقة جعلهم أكثر تمسكًا بالباطل.

فإلى هؤلاء، متى كان يُقاس الناس بما يملكون ومتى كانت الفضيلة يزيدها الغنى ويمحوها الفقر! لكن على ما يبدو في الأفق أن هذا الفكر سيظل سائدًا ما بقيت الحياة، ولا سيما في ظل وجود النظريات النفعية، وسطحية الفكر، وخواء الروح والوجدان، وانهيار منظومة الأخلاق والتعليم.

الخلاصة أن التمايز بين الناس والتفرقة بينهم على حسب ما يملكون من أموال أو ما يحوزون من مناصب أو جاه أو سلطان، أو حسب فقرهم وغناهم، وتحديد مكانتهم بناءً على هذه المكتسبات والمسميات والنعوت والصفات، ووصمهم بالشرور والفساد إذا كانوا فقراء؛ هو نتيجة منطقية لفساد الذوق وخراب الروح وبوار الوجدان.

وأرى أن هذا التوجه يعد من أهم أسباب التردي المجتمعي والإنساني، فالإنسان ليس بغناه أو فقره المادي، وإنما بأخلاقه وقيمه وفضائله الحقيقية النابعة من اجتهاده وعمله الصالح، وأن أي مجتمع يكون التقييم فيه رهين هذه الحسبة الخاسرة، فهو يشوبه بلا شك الخلل والعطب ويكون موطنًا للعلل والأمراض.

* * *

تقبل حياتك كما هي وواجه الألم

لمـدة عقـد كامـل ظـل الفيلسـوف الألمـاني (فريدريك نيتشـه) مؤمنًـا بـأن الإنسـان يتوجـب عليـه أن يعـيش الحيـاة، وأن يتجنـب آلامهـا وشرورها مـا استطاع إلـى ذلـك سبيلا، ودعـا إلـى نبـذ متـع الحيـاة والركـون إلـى الزهـد والتقشـف، فالإنسـان يتوجـب عليـه أن يتجنـب الألم لكي يعيش في سلام وهدوء.

لقد تبنى نيتشه هذه الفلسفة وأفرد لها ولاءه الدائم لمدة عشر سنوات دون أن يتأملها أو يناقشها، وفي لحظة تأمل واحدة حقيقية تبرأ نيتشه من فلسفته وتنكر لها وكان السبب وراء هذا التبرؤ والتنكر، هي وقفة تأمل مع نفسه انعكست عليه وآتت أكلها، فتمخضت نفسه عن فكر ومعتقد جديد مضمونه أن الحياة تتطلب منّا أن نواجه الألم بدلًا من أن نتجنبه، فالألم شيء طبيعي لابد من وجوده، وإذا تجنبناه لكي نعيش فهي حياة جبانة منحرفة، لا نستطيع أن نفعل أي شيء ولا نحقق أي منجز.

نيتشه في لحظة تأمل بسيطة عاشها بكل جوارحه مطيعًا ومستسلمًا لهدأة نفسه وصفاء روحه، كانت النتيجة التحرر من فكرٍ ومعتقدٍ لازمه سنوات طوال، والتخلص من آراء جنبته أن يعيش الحياة كما يجب أن تكون.

وأرى أن ما نحا إليه نيتشه في لحظته تلك هو عين الصواب، فالحياة يجب أن نعيشها بكل ما فيها من أفراح وأتراح وسعادة وأحزان، وما تضمنه من شرور وآلام، لا نهرب من الشرور والآلام والأحزان بل نجابها ونتصدى لها ونواجهها لكي نشعر بوجودنا، ونخلق من المحنة منحة، ومن الألم أمل، هكذا تعاش الحياة، وهكذا يكون لنا وجودًا، فالحياة يجب علينا أن نعيشها بكل ما فيها، نتعامل مع معطياتها وظروفها وأحداثها، لا نهرب من ملماتها وأزماتها إذا واجهتنا بل علينا أن نجابه هذه الملمات والأزمات وأن نحاول أن نخفف منها أو نمحوها،

أو نسايرها ونتعايش معها إذا لم نقدر التخفيف منها أو محوها، فمواجهة الألم غير من تجنبه، لأننا مهما تجنبناه، ففضلًا أننا لا نستطيع القضاء عليه من الهروب منه، فإنه سيضعفنا ويجعلنا جبناء، لذلك فالتصدي والمواجهة غير من الهروب والانزواء، لأن الهروب سمة العبيد، والمواجهة هي ديدن وعقيدة الأحرار، فمن يحب الحياة عليه أن يتقبل الحياة بكل ما فيها، وأن يتكيف مع التغيرات التي تحدث فيها، في الإقبال والإدبار، في اليأس والأمل، الحزن والفرح، الغنى والفقر، الصحة والمرض، في كل أحوالها عليه أن يتقبلها، وعليه أن يواجه صعوباتها وإخفاقاتها، وأن لا يرفع راية الاستسلام والهرب، لأن الهرب لا يزيد الحال إلاّ سوءًا، فصاحبه يعيش جبانًا ويشرف على نهايته بقلب معتل وعقل مختلط، عكس من يواجه فيكون قلبه جريء، وعقله وثاب، وخاطره مرتاح نقي.

من هنا علينا تقبل حياتنا مهما كانت، وكما يقول الفيلسوف سورين كيركيجارد «علينا أن نعيش حياتنا مهما كانت تعيسة أو مفرحة لأنها محسوبة علينا»

* * *

عندما تكفر المرأة بمن تحب

تكفر المرأة بالرجل، وتبغضه بغضًا شديدًا إذا تبين لها أنه ما ارتبط بها، وما أحبها إلاّ لمصلحة، سواء كانت هذه المصلحة مال أم غيره، لأنه يسقط من نظرها حتى ولو كانت تحبه، هذا إذا كانت امرأة حرة.

فلقد رأيت امرأة كان من فرط أنها تحب زوجها، كانت لا تفتأ تذكره في صحوها ومنامها، منفردة، أو مع أي أحد من أهلها أو لداتها، فما كانت تحتفي وتحتفل، وما كانت تأنس بأحدٍ أنسها بزوجها، فلقد منحته من نفسها كل ما كانت تدخره من أحاسيس، لم تضن عليه ولم تبخل، وأنّى لها ذلك؟!

أكبرته واحترمته، ووصلته بكل مجامع قلبها، وبكل أسباب الحب والاحترام، ورغم سوء معاملته لها، وغطرسته، وقسوته ومحاولة إخضاعها، ما كان كل هذا ليمحو حبها له، فكانت تغتفر له كل هفواته وزلاته، لكنها محت كل شيء داخلها، وقطعت أسباب حبها وودها واحترامها له، وأوصلته بأسباب الكره والبغض، وتنافرت الطبيعة بينها وبينه، عندما علمت أنه ما ارتبط بها ولا تزوج بها إلاّ طمعًا في مالها، ولولاه ما فكر فيها، ومن أجله أمعن في كيده، وختل ومكر، وخادعها حتى جعلها تؤمن به، لكنها عندما علمت الحقيقة، كفرت به بقدر ما كانت تؤمن به، أبغضته أضعاف ما كانت تحبه، فلقد أمات في قلبها كل عاطفة وكل إحساس تجاهه ومزق كل وشيجة كانت تربطها به، فاستحالت كل مرادفات حبها واحترامها له إلى بغض ومقت ونفور، ليس لغلظته وحدة طبعه ومحاولاته إخضاعها وإذلالها، بل لأنه أمات في نفسها معاني الرجولة التي كانت تحلم أن تجدها فيمن تحب، وكانت تظنها موجودة فيه

لقد رأت فيه لصًا يستبيح أمنها وطمأنينتها، ملقيًا بكل قيم وأواصر الحب في وحل طمعه وأنانيته، فهو سارق، ولص خبيث، عمد إلى سرقة

آمالها وطموحاتها، أبطن الغدر، وأظهر عكس ما يضمر، نكث بالعهد، ولم يراع فيها قربة منها ولا ذمامًا، لقد خفر كل شيء، نعم لقد أبغضته بقدر حبها له، لقد حطم فيها كل شيء، وخلف لها جروحًا من الصعب التئامها وإن قدر لها الالتئام مع مرور الأيام، سيظل أثرها، لأن الجروح غائرة أثارها على القلب والروح، لقد خذلها، وترك لها الحسرة والخيبة، لذلك أبغضته بغضًا شديدًا لأنه قتل في نفسها معاني الرجولة، التي كانت تظنها موجودة فيه.

وفي الموروث الديني والقرآني نجد امرأة تحتفي برجل وتكبره بكل معاني الرجولة والإكبار وذلك لأمانته، هذه المرأة ابنة النبي شعيب عليه السلام وهذا الرجل سيدنا موسى عليه السلام، لقد احتفت به وأكبرته لمعاني الرجولة الموجودة فقالت كما ورد في القرآن الكريم «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين» هي من أخبرت أباها عن تلك المعاني، وعندما سألها أبوها عن علمها بقوته وأمانته أجابت: بأنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها عشرة رجال عندما كان يسقي لها وأختها من البئر، وأنه لما جئنا معه تقدم أمامنا ولم يمشي خلفنا.

والمرأة مهما كان وضعها أو مكانتها في الغالب الأعم تحب أن يكون الرجل أمينًا موثوقًا فيه، لأنه لو توافرت فيه صفة الأمانة والثقة تحققت فيه معاني الرجولة، وشعرت بالأمن والأمان معه، وعلى النقيض إذا افتقدت فيه صفة الأمانة أبغضته، حتى ولو اضطرتها الظروف لتعيش معه ستظل على بغضها له.

* * *

أهل الثقة أم أهل الكفاءة

أي بلد لا يتقدم صفوفه نوابغه لا تنتظر منه خبزًا ولا وردًا، لأن العفن لا يرتع فيه سوى المرض.

البلد الذي يوجد فيه من يتحايل على المجد، ويتصنع المواقف ويتزلف ويداهن ويرائي من أجل حظوة أو نيشان، ويتقدم الصفوف دون حق أو علم أو كفاية، فإنه لا يوجد مستقبل لهذا البلد.

إذا سقطت الدول في شرك هذا العبث وانغمست في وحله سواء أكان طوعًا أو كرهًا بحجة استتباب الأمن وعدم إحداث اضطرابات أو إثارة قلاقل، فيتم الأخذ بالأحوط، وإحلال أهل الثقة عوضًا عن أهل الكفاءة، فهذا يعد أمر من الخطورة بمكان، لأنه يخالف الوضع الطبيعي وفكرة بناء الدول وسيرورتها على أساس صلب ومتين لا ينخر فيه الوهن ولا تشوبه الشوائب.

فالدول التي تختار أهل الثقة وتحتكم إليهم دون أهل العلم والكفاءة لأي سبب كان، تورد نفسها مورد الضياع والفشل، وتضحي بكيانها ومكانتها ويكون عمرها قصير جدًا في تاريخ الحضارة، وربما لا يحسب لها عمرًا مطلقًا.

وقد يرجع اختيار أهل الثقة بدلًا من أهل الكفاءة لأسباب عديدة، منها المعرفة والمحسوبية، فالمعرفة الشخصية يكون لها عامل أساسي في الاختيار بغض النظر كان هذا المختار كفؤًا أم لا، وفي الغالب الأعم لا يكون كفؤًا، لأنه لو كان كذلك لا ستنكف أن يلج هذا الطريق، وقد يتم اختيار أهل الثقة نتيجة الولاء والانتماء، وهذا الانتماء والولاء يجعل أهل الثقة يسمعون الكلام دون مناقشة، وينفذون الأوامر على علاتها، دون مناقشة أو إبداء أي أسباب.

وفي الغالب الأعم تكون المجتمعات النامية والدول الأقل تقدمًا هي من تعمد إلى تطبيق هذه الاختيارات وتنفيذها على أرض الواقع، ولا شك أن هذه الاختيارات وتفعيلها، لهو ظلم وفساد كبير، ففضلًا إنه يؤدي إلى وأد أهل الكفاءة وشعورهم بالمهانة وإحساسهم بالظلم، يؤدي إلى انتشار الفساد والظلم في المجتمعات نتيجة غياب المساواة وتكافؤ الفرص وتطبيق العدالة

لذلك إذا أرادت أي دولة أن تؤكد مكانتها في تاريخ الحضارة، فيلزم عليها أن تحتفي بعقول أبنائها وتحتضن مواهبهم، وتنتقي الجيد، وتلفظ كل ما هو غث، وأن تعمل العقل والمنطق، وتعطي كل ذي حق حقه، وأن تحسن الاختيار على أساس الكفاءة والنبوغ والقدرة على العطاء، في هذه الحالة سوف تتأكد مكانة الدولة التي تنحى هذا المنحى، وحتمًا مقضيًا لسوف يكون التقدم والازدهار، وسوف تتبوأ المكانة الراقية بين الأمم، ولسوف تشرق عليها شمس الحضارة، وتضيئها وهجًا وألقًا.

* * *

اسق زهرة قلبك بالإيمان والأمل

سـقيا القلـوب لا تكـون إلاّ بالإيمـان، فتعهـد القلوب بالإيمان تجنبنا الوقوع في بئر الحرمان واليأس، وتجعلنا مشبعين بروح الأمل، وتصد عنًا كل خيبات الحياة.

ماذا كان يريد (أرنست هيمنجواي)، كاتب راوية العجوز والبحر، والتي نال من خلالها جائزة نوبل في الآداب، وطبقت شهرته الآفاق، لقد نال الشهرة وذيوع الصيت، وكذلك المال، لكنه كان يفتقد الأمل، نزع من قلبه زهرة الأمل، وتركه خاويًا قاعًا صفصفًا إلاّ من ظلام يرويه بسواد معاناته وآلامه وأزماته التي كابدها طوال حياته.

لم تغن عنه الشهرة وذيوع الصيت وما يحوزه من مال، استسلم لليأس الذي كلأه وغذّاه بنبش ماضيه الحزين وطفولته المعذبة، وغذاه ورفده بالحرمان الذي عاناه طوال فترة طفولته، لقد استسلم هيمنجواي لجيوش الظلام، وفرّ منها، حاسرًا درع الأمل، كاشفًا عن ضعفه، فتسللت جحافل هذه الجيوش تترًا تبيد زهرة أمله وتسحقها على أعتاب يأسه، وفقدان رجائه، فاستوطنت قلبه وزرعت السواد والعتمة فيه، مسببة له اليأس والعجز، معملة فيه التحطيم والخراب.

استسلم هيمنجواي لهذا المصير، وفي ظل هذا المناخ السوداوي والتشاؤمي، ضغط هيمنجواي على زناد لم يكن به رحيمًا، وأفرغ في رأسه رصاصة، ليخر مسجيًا في يأسه ودمه ويفارق الحياة.

صاحب العجوز والبحر، هذه الرواية الراقية من نفس إنسان، اختار لنفسه هذا المصير السوداوي.

مات هيمنجواي ولم تغن عنه شهرته ولا صيته، ولا ماله، وفي رأيي لوكان تعهد زهرة قلبه بسقياها بالإيمان، لمنحته الأمل، وما آلت حياته لهذا المصير.

فسقيا القلوب وزهورها بالإيمان تمنحنا الأمل.

* * *

اعرف نفسك وفكر لكي تحيا

لتهتدي في عتمة هذه الحياة، ابحث عن النور في داخلك.

إننا لا نحتاجُ إلى خبراء لتطوير الذات، بقدر ما نحتاج إلى معرفة هذه الذات، معرفتنا لذاتنا تجعلنا أكثر قدرة على أن نحيا في هذه الحياة.

ولكي نحيا في هذه الحياة يلزم أن نفكر، ففضيلة التفكير هي من تجعلنا مقبلين على الحياة بكل ما فيها، وبالرغم من إيماننا بزوالها لكننا نعيشها على أمل أن نضيف فيها ما يشفع لنا حال الرحيل عنها.

التفكير إذن هو من يجعلنا نتوافق مع حياتنا، بكل ما يوجد فيها وما يلابسها ظروف، وما يقع فيها من أحداث، كالحزن والفرح، اليأس والأمل، الظهور والخفوت، الإقبال والإدبار، الشقاء والسعادة، الغياب، والحضور، الحياة والموت، الارتفاع والسقوط، الخ، فالتفكير يجعلنا نسمي الأشياء بمسمياتها، ونعطي لكل شيء قدره، لا نزيد من الناقص، ولا ننقص من الزائد، لا نذل لخسارة، ولا نتجبر لمكسب، لا نشقى برغبة، ولا يستولي علينا البرود.

معرفتنا لذاتنا، وأداء فريضة التفكير، يجعلنا نتعامل مع هذا الوجود الفاني بلغة الزائر الخفيف وليس الجشع الطامع، بلغة الطير الرقيق ترويه قطرة وتشبعه تمرة، لا كبرياء ولا تنطع، لا غرور ولا صلف، لا استخذاء ولا مهانة

لا ركض في مساحات الباطل والتزييف، ولا تسابق في مضمار البحث عن المكانة الزائلة بالقلق والاضطراب وانتهاك النفس والروح.

لأن أصل كل مشاكل الإنسان هي طريقة تفكيره العقيمة التي تجعله يتسابق ويتسارع في هذه الحياة، لينعم بالعيش فيها، غير مراعيًا لطريقة تفكيره أو الوسائل التي يتبناها للحصول على الحياة التي يريدها ويتمناها، يقول الفيلسوف (بوثيوس) «ليس الشقاء إلاّ ما تعده أنت»

لكن عندما يتوقف الإنسان ليرى نفسه ويراجعها ويعود إلى ذاته يستطيع أن يدرك سر الشقاء الذي يلاحقه، فيعمل على هدهدة هذا الشقاء رويدًا رويدًا حتى يصل إلى إنسانيته التي فقدها في طريق تكالبه على الحياة، فمن خلال التوقف سوف يطلع على عالمه الداخلي الذي يستطيع أن يتحكم فيه فأفكاره وتصوراته وأمزجته ومشاعره وخيالاته وأحلامه كلها طوع يديه له مطلق السيطرة والتحكم فيها، لا سلطان لأحد عليه فيها، هو وحده من يتمتع بحرية الاختيار ويستطيع أن يصنع ما يرغب فيه.

يقول الفيلسوف (بثيوس) «من يرد أن يكون ذا سلطان، فليبسط سلطانه أولًا على نفسه»

البحث عن ذاتنا، وإعمال الفكر، يدلنا على مقومات الحياة الحقيقية، الكفاف والبساطة حيث الحب المنبعث من النفس والمتصالح مع الأشياء ومع الغير ومع الله.

* * *

الحب والدين

الدين يغسل الإنسان من الآثام والذنوب وينقي روحه من الشوائب، ويجعل الإنسان وكأنه ولد من جديد.

الحب: هو رأس القضية، وهو أصل الوجود كله، يُرقّق القلب ويجعله أكثر شفافية، وينقي الروح، ويجعل الإنسان وكأنه ولد من جديد.

إذن يشترك كل من الحب والدين، في أنهما يجعلان الإنسان وكأنه ولد من جديد.

والميلاد رمز للفطرة النقية، والدين فطرة والحب فطرة.

رمزية الدين في مقدساته التي تهفو إليها النفوس، تأمل في زيارتها لتستقي منها ما يغسل القلب والروح.

رمزية الحب في لحظاته الجليلة، الذي يطوف بها المحب، يمتح منها الارتقاء بنفسه وروحه إلى مراقي القدسية والسمو الوجداني.

والدين والحب، لا يوجد بينهما أسبقية منطقية ولا زمنية، فكليهما ذُرية بعضها من بعض، فهما ممتزجان امتزاج الماء بذرّاته، منتظمين انتظام إشراقة الشمس، وإطلالة القمر.

فإذا سكن الدين في القلب، جعله يرق، وإذا رق القلب أحب، وإذا أحب كان صاحبه تجسيدًا عمليًا للدين.

للدين هيبة، وللحب هيبة، وكلاهما دفء للروح والقلب والجوارح، لا يحلق أحدهما منفردًا، ولا يبزغ أحدهما وحيدًا، فإشراقهما مع بعضهما يملأ القلوب بالجمال والحكمة.

نهفو إلى مقدسات الدين، لأن فيها سر الحب ونهفو إلى لحظات الحب؛ لأن فيها سر الدين.

لذلك من يحتوي قلبه على الحب والدين كان بذاته رمزًا لجمال الحب والدين، لذلك كان نبي الرحمة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم هو

التجسيد الحي لهذا الامتزاج النوراني فانعكس عليه هذا النور، فأضاءه كله، فتجلى على الدنيا بالنور والإشراق.

* * *

مشهد من فيلم هندي

في العيد عندما كنّا صغارًا كنت أفزع كعادة لداتي وأقراني للجلوس أمام التلفاز لمشاهدة الفيلم الهندي الذي كان من ضمن برامج التلفزيون المصري في آماسي أيام آنذاك

لم يغرب عن خاطري مشهد بطلي الفيلم اللذين كانا يتسابقا تسابقًا محمومًا في إظهار خُلة الوفاء؛ ولا سيما عندما اقترعا على العملة المعدنية، فكلاهما كانا يريدان البقاء وسط عصبة الشر، ليحمي صاحبه، وكانا كل منهما يريد لصاحبه النجاة، بأن يترك أحدهما المكان، ويترك الاخر يعمل على تمويه هذه العصبة واستبطائها، حتى يرحل أحدهما وينجو.

وبعد خلاف بين البطلين، اهتديا إلى فكرة الاقتراع على عملة معدنية، أحدهما اختار وجه والآخر اختار وجه آخر، وبعد اقتراعهما خرجت على إحدى وجهي العملة، واحترامًا للاتفاق والعهد، ترك أحدهما المكان، وظل الآخر يدافع ويموه حتى ينجو الاخر، ويبعد عن نطاق الخطر.

وقد بعد أحدهما بالفعل، وظل الآخر يدافع ويموه حتى قُتِل، وبعد ساعات، عاد الصديق الناجي ليرى صديقه الذي آثر بنفسه دفاعًا عنه فوجده ملقى على الأرض، وقد فارقت روحه الحياة، فحزن حزنًا شديدًا، وخر واقعًا على الأرض يرّبت على جسد صديقه ويمسح على وجهه، وإذ هو كذلك، فإذ به يرى قبضة يده تلوح منها العملة المعدنية، فيمد يده ليلتقطها فيتحسسها ويقلب وجهيها، فيجدها عملة وجهيها واحد، أي أن ظاهرها مثل باطنها، عندها نزف قلب صاحبه قبل نزيف مقل عينيه، واعتصره الحزن والألم، وذلك لأن صاحبه آثره على نفسه، وفضل أن يموت وفاءً لصديقه كي يحيا هو.

توقفت عند هذا المشهد كثيرًا، لأنه من المشاهد الدرامية التي يصعب تحقيقها في الواقع إلاّ نادرًا جدًا. فالوفاء قيمة لا يعرفها ولا يتحلى بها إلّا إنسان حقيقي.

وبعد مرور زمن على هذا المشهد وجدتني استحضره كلما سمعت عن قصص الغدر بين الأصدقاء وعدم الوفاء بينهم، فخلة الوفاء قد أصابها العطب، فربما لم يشاهد الكثير منهم هذا المشهد، ولم يستثره الوفاء النابع منه، وربما شاهدوه، وشاهدوا غيره من المشاهد المنظورة والمقروءة في الوفاء، لكن الكثير منهم لم يعد يكترث ولا يهتم ربما لظروف الحياة ومشاكلها، وربما لإيقاعها السريع واختفاء قيم عديدة مثل الوفاء وعدم استعمالها، والحقيقة أن لا ظروف الحياة ولا إيقاعها يؤثر في هذه القيم، فالزمن لا يسلب ولا يسرق القيم، فالزمن كما هو منذ أن خلق الله آدم لا يتغير وعاءه ولا محتواه، لكن الذي يكون عرضة للتغيير والتبديل هو الإنسان، وفق بيئته ومحيطه الاجتماعي ونشأته وتربيته، والأهم هو ذاته وكيف يتعامل مع نفسه، وهل يتعهدها بالتربية والاهتمام، أم يتركها للظروف المحيطة والعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تؤثر فيه، في المشهد السابق، كان الصديقان فقراء، لكن لطيفة الحب جمعتهم وآصرة الصداقة ربطت بينهم، وأوفوا لبعضهم، لأن الوفاء قوت الاستمرارية لهم في الحياة.

* * *

عندما يتحول العلم إلى سلعة

في زمن العبث، يستحيل العلم إلى تجارة، سلعته تباع وتشترى، تشتريه بدارهم أو نفوذ أو جاه أو مصلحة.

يذهب المشتري مهما تكن صفته، إلى القائمين عليه من فاسدي الذمة، وعديمي الضمير ليشتريه، يساومهم ويساومنه، والطرفين كصيارفة اليهود مقبلين على الدنيا بهذا البيع والشراء، الأهم المصلحة.

تجد من يشتريه يتيه بسلعته ويُفاخر، فيلوي عنق العلم، ويلغ في عرضه، ويخرج للناس ببضاعته يرتدي عباءة العلم، فيهمهم ويثرثر ويقول ويرغي ويزبد، ولا تتجاوز كلماته حنجرته، ويكون مثله كمثل الحمار يحمل أسفارًا، لكن يقدمه بائعيه بأساليبهم الرخيصة، فهم أحرص الناس على مساعدته كي لا تبور تجارتهم، فيتحايلون على الناس بالختل والخداع، يستجدون العامة، فيصفقون ويهللون، والعامة لا يجيدون فرز الغث من السمين، فكل ما يلمع في عيونهم ذهبًا.

مشتروا العلم يظلون يتيهون ويفاخرن، ويصدقون أنفسهم، فيتحولون إلى آفة تفسد الثمر والزرع، ويظلون يتيهون ويفاخرون، فيشبه لهم أنهم لسوف يخرقون الأرض، ولسوف يبلغون الجبال طولًا ويتيهون ويفاخرون ويظنون أنهم لمسوا بأنفهم قبة السماء وداسوا بنعالهم هام الجوزاء.

خاب ظن هؤلاء، فسلعتهم كاسدة لا قيمة لها، ليس عيبًا في السلعة، بل عيبًا في بائعها ومشتريها والعامة الذين شهدوا البيع وباركوه.

هؤلاء البائعون، وهذا المشتري، ومن ورائهم العامة يفسدون الحياة، ويسيئون للعلم، والعلم منهم جميعًا براء.

إلى هؤلاء جميعًا... العلم مهما زججتم به في بيعكم وتجارتكم لا يمكن أبدًا أن يخضع لقانون البيع والشراء والمساومة والمزايدة والرهان والمصالح، لأن العلم سلطة مهما احتلتم عليه ووضعتموه موضع المساومة والرهان والمصالح، سلطته أقوى منكم، وسيُعرّي سوءاكم أمام أهله وخاصته، وستظلون دائمًا في أعينهم سارقين محتالين ومهما

بلغ إفككم وافترائكم؛ سيقفر ربعكم ينعق فيه البوم، فهو وإن شبه لكم والعامة أنه عامرًا، فعمرانه سرعان ما يتداعى ويزول لأنه تافه وهين أهون من بيت العنكبوت.

يا سماسرة العلم، وتجار بضاعته... العلم ليس بضاعة، فالعلم سلطة أقوى من كل السلطات ولن ينقاد أبدًا لكم مهما حاولتم، فانقياده لا يكون إلاّ لأهله، فلا يخضع ولا يذعن أبدًا لأفّاك ولا لمحاب ولا مُراء، ولا صاحب سلطة ولا متزلف، لأن العلم سلطة يقلد نفسه لمن يستحق، ومن ثم يجعله ملكًا ولو كان بغير تاجٍ وسلطان، ولو كان بغير صولجان.

* * *

تقديس العهد والكلمة من نور البراءة

تقديس العهد والكلمة الممهور بصك البراءة يتجلّى في أبهى صوره في مخايل صورة وجه طفل بريء، لذلك رأيتني سعيدًا ومقبلًا لرؤيتي إياها، وأي سعادة تضاهي حنان طفل مُقبل بشغف البراءة نحو الحياة، ينثر فيها عطر جمال صفات الإنسان الحق، فقيم الحب والتسامح والإخلاص وصدق العهد والوعد مرادفات تتجسد واقعًا حيًا لا تحايل فيها، ولا مراءة، ولا تشدق ينال منها، فإعمالها هو عين الفطرة السوية النقية التي لم تخرج من إطارها بعد، فما زالت على حالها كما هي، نقية بيضاء نقاء أفاويق السماء الصافية.

فالصدق في الحب، والوفاء بالعهد، واحترام الكلمة، لا تحدها حدود ولا أطر، ولا تتماهى مع معاني تُنقص منها، أو تحد من هيبتها، أو يتم تأويلها على حسب المصلحة أو المنفعة. فهذه القيم الجليلة ورغم تجريدها، إلاّ إنها في عالم الطفولة واقعًا حيًا مُجسدًا، يتم التعامل بها دون تحريف أو تزييف أو مصلحة.

فالاتجاه العام والعقيدة السامية هي الحب المطلق، والصدق في المشاعر والوفاء بالعهد والكلمة، ويظل الإنسان على هذه الحال حتى يشب عن الطوق وعندئذٍ يُصغي لأنانيته، ويوافق مصلحته، ويعرف معنى هذه القيم، لكنه يجردها من مضمونها ويضعها تحت مقصلة زيفه وتزييفه، فينال منها، ويرمي عليها طبقة كثيفة من أطماعه ونفعيته، فتضحى منكرة وما هي بمنكرة، لكن النكران فيه وفي تعامله.

فالقيم هي هي في الطفولة كما في الكبر، لكن الفرق في التعاطي معها وتناولها، ففي طفولتنا لا نعرفها ولا نتطلع على مضمونها لكننا نُعملها بفطرتنا بحبنا الصافي، بقلبنا الأخضر، نُعملها بلا منفعة بلا مصلحة. أمّا في الكبر نضعها تحت مجهر التأويل والاستنباط والاستقراء ومدى توافقها مع رغباتنا وأهدافنا وأطماعنا، في الطفولة لم نعرف لكننا نُعمل القيم بدافع الفطرة، وفي كبرنا عرفنا، ونلنا من القيم بدافع مصلحتنا ومنفعتنا، فتلوثنا الفطرة وسحقنا القيم، فلا صدق إلا صدق المصالح، ولا وفاء بعهد إلاّ عهد المنافع.

فطوبى للطفولة، وطوبى لكل من يحمل في قلبه فطرتها، فيصدق في حديثه، ويوفي بعهده، ويحترم كلمته.

* * *

ما هو التعليم؟

التعليم ليس مجرد تحصيل شهادات علمية والتفاخر بالحصول على أعلى النسب المئوية. التعليم أرقى من ذلك وأجلّ.

التعليم هو البحث والتأمل، والجرأة والإقدام، وشحذ الخيال والفكر والاثراء المعرفي والوجداني، واستنهاض الهمة، وبناء العقل، واثراء الضمير.

لكي تنهض الأمم يجب أن تولي التعليم كل اهتماماتها، وأن تعلم أبناءها

قيمة التعليم، وأمانة البحث، واحترام الذات، وكرامة الشخصية، وصون الحرية. تعلمهم أن التعليم إبداع وليس نقل وحفظٍ وتلقين وتنافس في النسب. تعلمهم أن التساؤل ليس ببدعة، وأن الحوار حلالٌ لا حرمة فيه

وأن رأي الآخر مهما يكن ليس بمعصوم. تعلمهم أن الحرية في عدم الانقياد والتبعية، وأن الفكر المستنير هو المرتبط بقيمة الإنسان ووجدانه وأن الإبداع كل الإبداع في احترام الذات وصون الكرامة.

تعلمهم أن التعليم ليس وسيلة لوظيفة أو منصب أو مكانة أو لمغنم زائف.

تعلمهم أن التعليم غايته نقل الإنسان من براثن الجهل والسطحية إلى نور المعرفة والترقي بالإنسان من العبودية إلى الحرية.

تعلمهم أن العلم يطلب لذاته، حبًا وشغفًا، لا طلبًا لمكافأة، أو مقارنة مع أحد.

هذا هو مفهوم التعليم الملائم والمناسب لكل من يستهدف أن يعيش حياة كريمة، لأن هذا المفهوم إذا تحقق بكل مفرداته وتجسد على أرض الواقع جعل من الدول والمجتمعات التي آمنت به وجسدته واقعًا عمليًا، دولًا ومجتمعات راقية مزدهرة متقدمة، تعيش الحياة ترفل في المحبة والسلام.

أمّا الدول والمجتمعات التي تولي ظهرها لهذا المفهوم ولا تتبناه طوعًا أو كرهًا، فإنها بلا شك ستظل ترفل في الجهل والفوضى وتعاني القلاقل والاضطرابات.

إن تبني هذا المفهوم ينعكس على الدول والمجتمعات التي تتبناه بالخير والنماء، لأنه يؤدي إلى تحسين جودة الحياة، ويجفف بؤر الفساد، ويعمل على تقارب المستويات الاجتماعية، أو خفض الهوة الشاسعة بين هذه المستويات التي تزداد وتتسع في الدول التي لا تتبنى هذا المفهوم.

إن من أهم النتائج التي تترتب على تبني هذا المفهوم هو جعل الدول والمجتمعات التي تتبناه وتعمل على العمل به في قمة الهرم الحضاري، وبالعكس فإن النتائج تكون سلبية ومحملة بالخيبة للدول والمجتمعات التي لا تتبنى هذا المفهوم وتعمل على تطبيقه، وأهم هذه النتائج هو تخلفها عن ركب الحضارة والإنسانية.

* * *

ماذا يعني الحب

إن الدنيا لا تُبنىَ إلاّ بالحب، والحياة لا تستقيم إلاّ به، فهو عين الفطرةَ وكُنهها، والدين نزل والشرائع سُنت من أجل هذا الحب، وعملت على تأصيله، وما بُعث الأنبياء إلاّ من أجل نشره بين الخلائق وإرسائه بينهم، فبالحب يعرف الإنسان نفسه ويعرف غيره ويعرف خالقه.

قال تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببْكُمُ الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم»

وورد في الكتاب المقدس «من لا يحب لم يعرف الله، لأن الله محبة»

وقال صلى الله عليه وسلم «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ ألاَ أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»

ومن أسماء الله الحسنى (الودود) وهو الكثير الحب لعباده

إذن الحب هو الرمز المقدس، وهو عماد القضية ورأسها وسنامها، وبدونه تنعدم ولا تكون، فالحب هو نبع الحياة، هو البذل والعطاء والجود والإيثار هو رحمة الله، فهو المحبة كلها، وهو يتجلى به على أنقى عباده وأطهرهم خلقًا.

والحب ليس مطلبًا يتمرس به الجميع، بل من يريده ويطلبه، ومن يريد أن يملكه، فلابد أن لا يغله طلبه، فلكي نطلبه يجب علينا أن نتجرد من علائق الدنيا وأن لا نُعرّضَ النفس للعلل والأسقام التي تحول دون الوصول إليه، فلكي نحوزه وننعم به يتوجب علينا أن نكون أصفياء القلوب، أنقياء السرائر لا مداهنة ولا مصانعة ولا رياء ولا نفاق ولا شبهة، لا نعبد أحدًا ولا شيئًا من دون الله، وكما يقول أهل الذكر علينا «بالتخلية لننعم بالتحلية»

وعندما نحوز الحب وننعم به سوف نعرف الحقيقة، ونتذوق قيم العدل والحق والجمال، وإذا تذوقناها، صفت أنفسنا، وشفّت أرواحنا، وأضحى تعاملنا العفو والتسامح.

الحب نستدل به على معنى الإنسانية، ونوقن بأنها ما كانت أبدًا قضية منطقية يحكمها العقل، وتخضع للاستدلالات والبراهين، وإنما هي المبادئ والقيم التي تنبع من القلب والروح، يزكيها ويأصلها الدين.

* * *

يتحدد زمننا بمعيار دخيلتنا

زمنك الحقيقي يكمن في دخيلتك والتي تُعد البرهان الحقيقي على وجودك فمنها تبدأ رحلتك في الحياة، ومنها تنتهي، وهي من تكون الملازمة لك في الدار الآخرة.

تصورنا للزمن وحسابه بالثواني والساعات والأيام والسنين هو تصور صحيح لمعطيات الحياة من حيث العمل وعمارة الكون ورصد المعاملات، أمَا أن يكون هناك زمن مختلف عن زمن؛ فهذا تصور خاطئ، فالزمن هو هو لا تبديل ولا تغيير ولا تحريف، إنما الذي يتغير هو من يتعامل مع هذا الزمن وهو الإنسان، لذلك إذا أردت أن ترصد الزمن فارصده داخل كل إنسان، فكل إنسان هو من يحدد زمنه، فالإنسان إن كان مبدأه الحب، وظل محافظًا على هذا المبدأ، غير مكترث لصروف الدهر ونوائب الأيام، سيظل بمبدئه لا فرق بين زمن وزمن، والإنسان الذي يكون مبدأه الغل والحقد ويظل محافظا عليه، سيظل بمبدئه، لا فرق بين زمن وزمن، ويستطيع الإنسان بإرادته وبتوفيق من الله أن يتحول عن الشر إلى الخير، والعكس صحيح، يتحول عن الخير إلى الشر، وأيّما كان التحول فوعاء الزمن واحد، وصاحب التأثير في هذا الوعاء هو الإنسان «إن يك خيرًا فخير، وإن يك شرًا فشر»

لذلك فالزمن الذي تكون فيه البساطة والجمال واحترام القيم، والمحافظة على الأخلاق، هو الزمن الجميل، سواء كان في الماضي أو الحاضر.

ولا شك أننا نحب الماضي لأن فيه فترة الطفولة والصبا، وهذه الفترة في عقدي هي البراءة والطهر، حيث الحب المجرد من الأهواء والمصالح، والذي تكون التعاملات فيها بسيطة، ويرجع هذا أن لغة الصراعات والتسابق في مضمار الكدح في الحياة الدنيا كانت لا تزال في فترة مخاض حروف الهجاء الخاصة به.

كم يغلبنا الحنين إلى فطرتنا

كلما تجبّر الواقع وطغى، لا يكون أنامنا إلاّ أن نسلك طريق الذكريات المحفورة في ذاكرة القلب والمزروعة في حنايا الوجدان والروح، نستعين بها على صدّ هجمات هذا الواقع الأليم من جهة، ومن جهة أخرى نفتح نافذة على سماء الأمل.

نشتاق إلى الأيام المواضي الرابضة في النفس والروح، يستنهضها الحنين.

تلك الأيام المزروعة في ذاكرة القلب، ينبض بها إذا ما داهمته أسراب الأحزان تتلبسه بالفواجع والنوازل، تعصف بنبضاته ريح الحوادث، فيقفر ويجدب لا يترنح فيها فرح، ولا يهتف فيه أمل.

نشتاق إلى عبق المكان، ورائحة التراب عندما ينفث العطر من زخات المطر.

نشتاق إلى ركض الأطفال وراء فراشات الزهور الحائمة في الحقول والبساتين، غايتهم الاستئثار بها، وكأنهم كانوا يفطنون أن النور ينجذب للنور.

نشتاق إلى النظر إلى النجوم وهي تتلألأ في صحفة السماء تأتلق بالنور ونظل نعدها ونحصيها قبل أن تنحدر وتتلاشى.

نشتاق إلى الأزهار المطلولة بندى الصبح، ونسيم الأصيل الذي يتردد في أجوائه مياسًا فرحًا يغازل الورود والأزهار في رياضها.

نشتاق إلى الماء يجري وينساب ويتدفق في جداوله وغدرانه، يتلألأ بهيًا رقراقًا يميس فرحًا كلما مسته أشعة الشمس.

نشتاق إلى خطا الشيوخ إلى المساجد يتوكؤون الرجاء، يلتمسون رحمة ربهم، تلهج قلوبهم وألسنتهم بالحمد والشكر.

نشتاق إلى أحلام الطفولة، وتوسد التراب، والتحاف السماء في ليالي الصيف، والسمر مع القمر، والحديث معه بنفس بريئة وقلب ينبض بالحب.

نشتاق إلى فطرتنا، نشتاق إليها، نحن إليها حنين الشيخ إلى صباه، وحنين الأم إلى وليدها الغائب.

إلى كل من ذوبه الحنين إلى فطرته، أبصرها بقلبك بوجدانك، تلمسها وإن وجدتها توضأ وتنسك، فهي جنة، والجنة لا تقبل إلاّ الطاهرين.

* * *

خيط رفيع بين نجاحك وفشلك... هو أنت.

لن يساعدك أحد على عبور الطريق؛ فأنت وحدك القادر على ذلك، واعلم أنه حال نجاحك وارتفاعك قد ينتبه إليك البعض؛ لكن حال إخفاقك وسقوطك سوف ينتبه إليك الجميع.

لا تُهدر طاقتك، ولا تستنزف روحك في اليأس والإحساس بالعجز والفشل، إذا صدقت نفسك بأنك سوف تفشل، فإنك ستفشل لا محالة.

يجب أن تحرص على مساعدة نفسك، ولا تركن إلى أفكارك الهدامة التي تسيطر عليك، لا تجعلها تستغرقك وتستحوذ عليك، وعندما تهب عليك عواصف الأيام ونوائبها، قف بكل قوة، وإن وهنت عزيمتك حاول مجددًا، وإن خارت قواك عاود مرة أخرى، لا تستسلم، ولا تُسلم قيادك لليأس والعجز والفشل.

كن هادئًا مطمئنًا في التعامل مع ما حاق بك من أزمات، وما ألم بك من ملمات، أعلم أن مطالبتك بالهدوء والاطمئنان في ظل الأزمات والآلام أمرٌ يشق عليك، وصعب تقبله، لكن لا مناص من أن تحاول، فهدوئك سيساعدك على أن تفند أفكارك، تنخلها، وترمي الغث منها، وتختار الصحيح الذي يساعدك على تجاوز مرحلة الإخفاق والفشل، والأزمات والصعوبات

قف بكل قوة وبرباطة جأشٍ، ضد هذه الإخفاقات والأزمات والملمات، لا تجعلها تنال منك وتسيطر عليك، وضع نُصب عينيك أن الأحداث تتداول، والزمن يتغير، وماء النهر في سريان لا يتوقف، فقد يحدث أمرًا، يزيح عنك الألم، أو يخفف من حدته، أو يكون بمثابة الترياق للداء الذي تعانيه، فإن لم يداويه مباشرة، حتمًا سيقضي عليه في المستقبل ولا يضير إن كان الشفاء على مهل.

فقط عليك التفكير بهدوء وروية، وعدم الاستسلام والخنوع، والانبطاح لتيار الإخفاق والفشل.

واعلم أن في استسلامك هذا قبول به، وأنه واقع لا محالة، لكن عندما تجابهه بجمع أفكارك، وإيمانك بتداول الأحداث والتغيير في غمرة عملك على التصدي لهذا الفشل والإخفاق والألم، سوف ترى نتيجة إيجابية، فمن رحم المِحنة تولد المنحة، واشتعال النار في معدن الذهب لا تعني انعدامه، بل تجعله طاهرًا مجلوًا بعد أن نقته من الشوائب والخبث.

إبكتيتوس كان عبدًا، وسامه سيده سوء العذاب، حتى أنه من شدة العذاب فقد قدمه وصار معاقًا، لكنه لم يستسلم، وعمل بجد واجتهاد، حتى صار بعد ذلك أشهر فلاسفة الرواقيين في التاريخ، والأمر ينطبق كذلك على صاحب رواية (دون كيشوت) معجزة الأدب الإسباني، وواحدة من أفضل الروايات العالمية على الإطلاق، كتبها وهو يعاني الألم وراء قضبان السجن، والأمثلة التي تدلل على ما أقوله كثيرة، لا يسع المجال لحصرها، لكن الأكيد أن معناها كله ينبعث من مشكاة واحدة عدم الاستسلام للفشل، وعدم السماح لليأس أن يتسلل إلى النفس، واجتثاث جذور العجز بالتفكير، وتقبل الأمر، والإيمان بالقدر، ومقاومة القدر، وإن لم تنجح مقاومته، فيكون ذلك بمسايرته، ولن يتأتى ذلك إلَّا بشحذ الهمة والعزيمة، والثقة بالنفس والإيمان بالله.

* * *

عندما تنطوي صفحة من كتاب العمر.. يحلّ عام جديد

علينا أن نقف وقفة تأمل ونحن نشاهد عام من عمرنا يستعد للرحيل، فقبل أن نودعه نتأمل أحداثه عن قرب ونأخذ من العظة والعبرة، قبل أن يطل علينا العام الجديد.

كل عام تنطوي صفحة من كتاب عمرنا، بكل ما خطه القدر فيها من آلام وأحزان، وما سطره من آمال وأفراح، ليحل عام جديد.

عام يمضي نودعه وتنطوي صفحته، ونستقبل عام جديد يمنحنا ورقة جديدة لنكتب فيها ما نشاء، وما بين الوداع والاستقبال، علينا أن نقف وقفة تأمل، ننظر فيها إلى ما مضى، لنأخذ من هذا الماضي عظة وعبرة، ربما، نُعدّلَ المعوج، ونُقيمُ المائل، وننقي الشائبة، ونلملم المبعثر، وما أكثره!

عام يمضي بكل ما يحمله من خيبات، وبكل ما فيه ملمات، عام يمضي بآلام فقده، ونوائب قدره، يرحل فيه كثير ممن نحبهم، يتركون لنا الأنين والدموع، وذكريات نعيش تحت ظلالها، نأنس بها، وننعم بنغماتها التي تعزف على قلوبنا أنغام الحنين إلى رؤياهم، نستمع إلى همس أصواتهم، ونرفل في دفء صحبتهم، لم يبق إلاّ الذكريات والحنين إليهم.

وهذه سنة الله، وما هي إلاّ أرزاق وأعمار، كتبت في لوح مقاديره، فجميعنا ستغيب شمسنا في الأفق ذات يوم، لكن للفقد هيبة، وللفراق مرارة، يخفف الله من هذه الهيبة، ويبدل هذه المرارة بالصبر والسلوان.

عام يمضي بنجاحاته وإخفاقاته، بلحظات يأسه، وأوقات آماله، وترحل سفينته المحملة بكل أمانينا، لا شك أنه يترك فينا أثرًا من حزن لفقد أو خذلان، أو خيبة، لتلاشي وعود، وتبخر ثقة، واضمحلال نفوس، واختفاء قيم في زوايا عتمة الصراعات والجهل، لكن ما يعزينا أنه عام مضى، وإن كان قطع جزء منّا، فهذه سنة الحياة، ولنا فيه ذكرى نأخذ

منه العظة والعبرة، نستلهم من خيباته وإخفاقاته كيف نأخذهم جسرًا للنجاح، نتعلم من اللحظات المظلمة فيه، كيف أظلمت، نبحث عن العلة ونتعلم كيف لا نعود إلى الظلام، بأن نضع في أذهاننا عقيدة، أن لا نتنظر من أحد أن يضيء لنا ظلامنا، فنحن – ونحن فقط – من يستطيع أن ينير لنفسه الطريق.

عام يمضي نتعلم منه، كيف تقوى الإرادة، وتشحذ الهمة، ولا نحمل أنفسنا بالآمال الكبار حتى لا يفترسنا اليأس، وتلوكنا الخيبات، علينا أن نجتهد، نخطط في ضوء المتاح، وفي ضوء قدراتنا، نستطلع، نستكشف نروم النجاح والتفوق، نقرأ في الكتاب المنظور والمقروء، لا نفرد في الثقة، ولا نوغل في الانسحاب، لا ننهزم لعثرة، ولا نهلل لطفرة، نكون بين بين، نتعلم كيف نحب، وأن آفة الكره والحقد والغل والحسد، لو تمكنت منَا فهي من تهزمنا، وليس انفراط عقد الأيام ولا تتداول السنين. نتعلم كيف نسقي زهرة قلوبنا بالأمل واليقين بالله، وليس بالبشر، ولا الصدفة ولا محض الأوهام.

عام يمضي، يقينًا أنه يمضي.. حقيقة أنه تتلاشى أيامه، تنطوي أوراق حزنه، وتطوى سجلات خيباته، وتعتمد فيه مكتسباته ونجاحاته، يعتصرنا فيه الألم لفقدان حبيب، أو توديع عزيز، تداهمنا فيه المحن لمرارة خسارة، أو لفقدن ثقة صديق أو قريب، يلامسنا فيه الأمل بوجود بجانبنا من نحب، أو لنشأة عرى حب جديد، وتقوية أواصر محبة لمن لاحظنا وجودهم، وقد غيّبنا عنهم تداول الأيام وما فيها من ركض وصراعات.

عام يمضي، قدر مقدور، وحتمًا مقضيًا أنه سيمضي، وتسقط معه ورقة من أوراق العمر، كتب فيها ما كتب، أورقت لبعض الوقت، وذبلت لبعض الوقت، رويت بالحنين، أنهكتها المآسي، نال من لونها الأخضر مرارة الفقد، فشحبت وانطفأ وهجها وبريقها، لكن كل ما أعلمه علمًا يقينيًا أن العود باق، واللحاء موجود، ويبقى العود ما بقي اللحاء، وما زال القلب ينبض، وطالما القلب ينبض، فماء الحياة لم يفقد خاصية الرواء.

عام يمضي، ونستقبل عام جديد، وعلينا أن نستقبل هذا العام الجديد، بفكر مختلف، ونبض مغاير، نستلهم فيه الأمل من الله، ونطلب منه العون، لا نلعن ما مضى، بل نبارك الحاضر، ونحمد الله أنه وهبنا فرصة جديدة لنزرع وردًا، ونغرس شجرًا، ونرسم بألوان المحبة، ونحرث بمعول الصبر، ونطوف حول قيم الجمال والصدق والمحبة، نستنهض هممنا، ونشحذ عزائمنا، ننقي أنفسنا مما علق به من أدران، ننميها بكل ما يزهرها ويورقها ويبعث فيها الحياة.

* * *

الفن والإنسانية

في الغالب الأعم لا يحفل التاريخ إلاّ بالسادة والنبلاء وذوي الياقات البيضاء؛ لكنه يكون ضنينًا وشحيحًا مع بسطاء الناس وعامتهم، فلا يعرهم انتباهًا ولا تقديرًا، حتى أماكن هؤلاء السادة وأشيائهم من قصور ومقتنيات يتصدى لها التاريخ بالذكر ولا ينساها، فيوليها عنايته واهتمامه من خلال التأريخ الكتابي والروائي والفني، والتأريخ الفني بالذات كان له دورًا مساعدًا للتاريخ في العصور الوسطى ولا سيما في أوروبا، حيث دأب الرسامون والنحاتون آنذاك في أداء دورهم في هذه المساعدة.

لكن على غير العادة، وخروجًا على القوالب الجامدة، والمفاهيم التاريخية السائدة، يومض بريق إنساني يشع رقة وجمالًا وبساطة ولينًا ويسرًا وسماحة، فيبسط وميضه المشع على مواطن الجمال الحقيقي في هذا العالم، ويصور لنا النبل الإنساني، ويزيح الستار عن مكامن الدرر الفريدة ويجلوها ويظهرها بأناقتها وجمالها وحسنها الدافئ الجميل.

ومن هؤلاء العباقرة الذين صالوا وجالوا في حرم الجمال الإنساني، وراحوا بريشتهم يعزفون ألحانًا رقيقة دافئة للإنسانية الرسام الفرنسي، جان باتيست سيميون شاردان

(١٦٩٩/١١/٢-١٧٧٩/١٢/٦)، وهو من أشهر رسامي فرنسا وأوروبا في القرن الثامن عشر، لقد أبى هذا الفنان أن يذعن للاعتبارات السائدة في عصره، فلم يغزل على منوال رسامي هذا العصر باستقصائهم وتسجيلهم أحوال السادة والقادة والنبلاء وأماكنهم ومقتنياتهم، بل تنكر شرادان لهذا الفكر، ورغم تنكره وصدوده له، فإن التاريخ وافقه ولان له وبسط ذراعيه لهذا الفنان الإنسان، وسلط الضوء على أعماله الواقعية الإنسانية.

وفِي هذه اللحظة وأنا أدوّن هذه الكلمات، أجدني شديد الحماسة والشغف، لتناولي هذا الموضوع، الذي يبين

الطبيعة الإنسانية للفنان، وكيف تتجلى عليه إنسانيته ليبدع فنًّا راقيًا، وليس هناك أجمل من أن تُسرج عاديات خيالك، لِتُغيرَ على القوالب الجامدة والسائدة، وتُثير نقع جمال الإنسانية تحت روح الحس الإنساني البديع الذي يقتفي أثر الجمال ويحاكيه، ويتلبس به واقعًا حيًّا ملموسًا يُثير فينا طاقات الحنين لإنسانيتنا.

ولا أدري لماذا تفجر وجداني بالحنين وأنا أكتب هذا الموضوع، ربما لأنني مولع بكل ما هو إنساني، وربما وهذا في أكبر ظني الأقرب للحقيقة أني أعظمتُ وأكبرتُ إنسانية هذا الفنان الذي أربأ بنفسه أن يكون مساعدًا للتاريخ، وأن يُعينه على أن لا يحفل إلاّ بالسادة والقادة والنبلاء وأصحاب الياقة البيضاء من ذوي الثراء والنفوذ، وهذه عادة التاريخ عبر العصور والأزمان، والذي طالما تنكر لعامة الناس والبسطاء منهم، فلم يحفل بهم ولا بحياتهم ولا شئونهم.

وشيردان لم يربأ بنفسه أن يكون مساعدًا للتاريخ فحسب، بل أجبره على أن يتوقف ليرصد أحوال البسطاء والعامة من الناس، وذلك من خلال قيام هذا الفنان بتسليط الضوء على حياة هؤلاء البسطاء من خلال تصوير مواطن عيشهم وحياتهم من خلال لوحاته الفنية التي تعكس واقعهم البسيط بريشة فنان مبدع، غاص في لجة المعاني الإنسانية ليخرج لنا لألأ الجمال الإنساني، وظهر ذلك جليًّا في كل لوحاته التي تصور الواقع الإنساني الجميل، الذي كان لا يأبه له التاريخ ولا مساعديه ولا صناعه.

وعلى غير المألوف يفتح شيردان نوافذ الجمال لنطل منها على حياة البسطاء الذين يشكلون النواة الحقيقية التي تنشطر منها الإنسانية، فيأخذنا هذا العبقري في رحلة صامته، ويطالبنا بخلع أنانيتنا، وأن نتوضأ بماء طهور، قبل أن يُطلعنا على جمال المعاني الإنسانية المتمثّلة في رؤيتنا لامرأة بسيطة بهندامها الرقيق، وملامحها الندية، وهي تقوم بإعداد الطعام، ليست صورة امرأة تقشر بيضة، بل هي انعكاس لرؤية حياة يتعاقب فيها الليل والنهار، وتمتلأ بالأحداث السعيدة والحزينة، ويكتنفها السرور والألم والدعة والمشقة وكل متضادات الحياة.

أنه يصور بفنه مشاهدًا للناس البسطاء وأجواء حياتهم، ولا أجدني أبالغ إذا قلت أنني بتعمقي في لوحات شيردان ارتحلت معه في لوحاته، وخاطبت أبطال فنه من بشر وأدوات، وهذا ليس جنونًا، فالإنسانية تحنّ للإنسانية، تحن إلى فطرتها، لذلك وجدتني ارتحل معه، وأخرج عن مسار هذه الرحلة أحيانًا لأحاكي الأماكن البسيطة التي عشت فيها ومعها وشكلت وجداني، وكذلك مع الناس البسطاء الذين كانت تنبض بهم هذه الأماكن، ويباشرون حياتهم اليومية، فاستحضرت صورة أمي وهي تطهو الطعام، ونحن نتراص حول المائدة ننتظرها بشغف، وتذكرت صورة جدي وهو يصطحبني إلى المسجد في غلس الليل لنصلي الصبح، يعطيني شاله لألتحفه ليقيني البرد، وحالما نفرغ من صلاتنا نتوجه إلى الدار، نفترش أديمها في الهواء الطلق، ويقتعد جدي مكانه المفضل، بعد أن أحضر الخبز والجبن والتمر، وتزامنًا مع تناول إفطارنا، يضع براد الشاي على نار الموقد وكم يغلبني الحنين الآن لصوت خرير مياه براد الشاي المصطبغة باللون الأحمر وهي تتدافع لتستقر في قاع الكوب الزجاجي الشفاف، يتصاعد منها بخار الماء يغازل رذاذ الغيم الذي يعبق المكان.

واستدعيت صورًا كثيرة لمعلميّ ومشايخي، وحوانيت البقالة، وحائكة الثياب التي كانت تبعثني لها أمي لإحكام زر القميص الذي كان دائمًا يترنح من فرط عبثي مع لدّاتي وأقراني.

صور كثيرة لا حصر لها، تسكن في هدوء استطاع شيردان بفنه وإنسانيته أن يبعثها من رقادها، وذلك لحنين الإنسانية لبعضها؛ لأن مادتها واحدة، ونسيجها واحد، ترفد من نبع واحد، ولهذه الوحدة وهذا النسيج وجدتني سعيدًا ومقبلًا ومتحمسًا لكتابتي هذا المقال عن الفن والإنسانية.

لحظة تأمل

«الحرية مع الألم
أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة»

هذه العبارة قالها الدكتور مصطفى محمود الطبيب و الفيلسوف المصري وتعد أثيرة جدا لدي، لا أفتأ أتمثلها وأرددها كلما خارت العزيمة أو وهنت الإرادة.

ولا جرم أن الحرية كذلك، فمن يروم الحرية ويبتغيها، عليه أن يوقن بأنه سوف يعاني، وأن حياته ستكون محفوفة بالآلام والمشقات والصعاب.

ولقد فطن الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه)، لهذه الحرية و استوعبها بعد أن ظل لمدة عقد كامل مؤمنا بأن الإنسان يتوجب عليه أن يعيش الحياة وأن يتجنب آلامها وشرورها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ورأى أن هذا التجنب لن يتحقق إلا من خلال نبذ الحياة والركون إلى الزهد. والتقشف والابتعاد عن كل ما يسبب ضررا أو ألما، فالإنسان يتوجب عليه أن يتجنب الألم، لكي يعيش في سلام ودعة وهدوء.

وقد تبنى نيتشه هذه الفلسفة من الفيلسوف (شوبنهاور)، الذي كان يعد مثله وقدوته والأب الروحي له، لذلك وخلال عقد كامل أفرد نيتشه ولاءه الدائم لفلسفة قدوته ومثله الأعلى شوبنهاور، دون أن يتأملها أو يناقشها، فقد قبلها وتبناها على علاتها، وظل نيتشه يعمل بها إلى أن أتخذ قرارا حاسما بالتخلص من هذه الفلسفة والتبرؤ منها والتنكر لها، والسبب هو وقفة تأمل مع النفس انعكست عليه وآتت أكلها، فتمخضت نفسه عن فكر ومعتقد جديد مضمونه أن الحياة تتطلب منا أن نواجه الألم لا لنتجنبه، فالألم شيء طبيعي لآبد من وجوده، وإذا تجنبناه لكي نعيش فهي حياة جبانة ومنحرفة، لا نستطيع أن نفعل فيها أي شيء ولا نحقق أي منجز.

لقد استسلم نيتشه لهدأة نفسه وصفاء روحه، وكانت النتيجة التحرر من فلسفة تجنب الألم الذي اعتنق مفهومها طوال عشر سنوات، لقد تجرأ نيتشه على أفكار وآراء جنبته أن يخوض غمار الحياة الحقيقية، ونيتشه بذلك فعل الصواب، ففي عقدي أن الإنسان لكي يعيش حرا يجب أن يؤمن أنه سوف يجابه مخاطرا وآلاما، وأن الحياة فيها عمل وكدح

للارتقاء بالذات الإنسانية، ومن ثم ينعكس هذا الرقي الإنساني على المجتمع ومن ثم تفيد منه الأوطان.

والإنسان ولد من رحم الألم، وعليه أن يعي ذلك، وأن قيمته ووجوده يكمن في كيفية تغلبه على هذا الألم، فالحياة لم تخلق جنة، لكن الإنسان يستطيع أن يجتهد فيها ويكدح ويتغلب على المشقات فترق نفسه، وتشف روحه، وبهذا يحاكي الجنة، بسلوكه الحسن، واتقانه لعمله، وحب للآخر والتعامل معه بصفته أخيه في الإنسانية، غاض الطرف عن توجهه ومعتقده، مؤمنا بأن الأرض قاسم مشترك، وأن السماء تظل الجميع

وأن المصير واحد، مهما أشكل على البعض فهم ذلك، أو حاول البعض الافتئات على هذه الحقيقة، ولنا في جائحة كرونا المثل على ذلك، فلقد نزلت على العالم كله، لم تستثن أحدا، وراحت تجرعه الأحزان والآلام

وهرع الجميع للبحث عن حلول لتبديد هذه الاحزان و التخلص من هذه الألآم، وارتفعت الأصوات تنادي بأن مصير الإنسانية واحد، وأن العالم كله كسفينة تمخر عباب الحياة، وأن أي ثلمة فيها أو خرق يعرض السفينة كلها للغرق.

وكنيتشه عندما غير فلسفته في لحظة تأمل، أجبر فيروس صغير لا يرى بالعين المجردة العالم كله أن يعيش لحظات تأمل في وضعه، وأنه يتوجب عليه تغيير فلسفته، وتبني فلسفة الحب و التعاون والتآخي، و الإيمان بأن مصير الإنسانية واحد، وأن الاختلاف بين الأمم والشعوب ليس دافعا للتفرقة و التباعد بينهم، وإنما هو سنة كونية تعمل على التقارب وتلاقح الأفكار، وأن الحضارة لا تقوم بها أمة أو شعوب بعينها، وإنما يساهم فيها الجميع، وإن كان لأمة ثمة تمايز عن أمة فهو بالعمل و الكفاح والكدح لنفع الإنسانية.

إن الحياة ابتلاءات و اختبارات، ولا تنفك الابتلاءات و الاختبارات فيها تهدر على رؤوس الناس و حياتهم كالأمواج المتلاطمة تحمل عذابات والام، وأن الذكي الفطن هو من يجابه هذه الأمواج الهادرة، والعواصف العاتية من خلال رصدها والتصدي لها، والتفكر والتأمل دائما، وبث طاقة الحب والأمل والعمل، و الإيمان بأن الحياة مستمرة ما نبض القلب

وأشرقت الشمس، وأن االنكبات والارزاء والالام لا تنهي الحياة، بل يتوجب العمل و الكفاح و الاجتهاد للتغلب على هذه الألآم والنكبات، والتطلع إلى الأفضل، لا استسلام ولا تخاذل، بل الايمان بأن من المحنة تخلق المنحة، ومن براثن اليأس يولد الأمل، ولا يكون معدن الذهب نفيسا وبراقا ومجلوا إلا إذا ذاق مس النار، عندئذ سيتلاشى منه الخبث

* * *

كُن إنسانًا، واستنشق عطر وردة

كثير من الناس يعيش في هذه الدنيا، حياة عادية، أيامها روتينية ولحظاتها مكررة، شمس تشرق، وشمس تغيب، نهار يقبل، وليل يدبر، مرض وصحة، أمل ويأس، حياة وموت، مرادفات ألفوها وتعارفوا عليها، قرأوا ظاهرها، لكنهم لم يحاولوا الوقوف للحظة ليعرفوا ما وراء هذه المرادفات، ويبحثوا عن معناها الحقيقي، وما هي الحكمة من وجودها؟ وهل هي قابلة للتأويل والتفسير؟، أم إنها عصية على ذلك؟

مثل هؤلاء الناس في رأيي يعيشون حياة فقيرة معدمة، لأنهم أشبه بالآلة التي تعمل دون أن تفكر، حياتهم رقمية لا حس فيها ولا روح، تفتقد لقيمة التأمل والخيال، تلك القيم التي تميّز الإنسان عن الحيوان، بل تميّز إنسان عن إنسان آخر، فالإنسان الذي يطلق العنان لتخيلاته وتأملاته يفهم معنى الحياة والوجود، ويستطيع أن يتكيف مع محيطه وبيئته ومجتمعه وعالمه فكما هو معلوم أن الحياة متقلبة، وأحداثها متغيرة، لا حتمية لسكون فيها ولا استقرار، فلا سلام دائم، ولا حرب دائمة، ديدنها التقلب والتبدل والتغير، فيها النجاح وفيها الفشل، فيها الصعود والهبوط، الصحة والمرض، الأمل واليأس، الجمال والقبح، الخير والشر، باختصار الحياة ليست جنة، والإنسان الحقيقي هو من يستطيع التكيف مع هذه المتغيرات والمتضادات، ليس بتقبل حتميتها فحسب، بل بمسايرتها وتأملها، والبحث فيها عن مواطن الحكمة، يقول الفيلسوف آرثر شوبنهاور «الحياة مليئة بالمتاعب والضيق، إما أن نعلو عليها بواسطة الأفكار التي يتم تصويبها أو علينا أن نغادرها» فلسفة شوبنهاور تدعونا إلى التأمل في الحياة، وذلك من خلال أن نعلو عليها، ويكون هذا العلو من خلال إعمال العقل، وشحذ الخيال والتأمل، والتكيف مع واقع الحياة ومتغيراتها، والتأمل هو من يجعلنا نتكيف مع واقعنا بكل متغيراته وصروفه، لحظات الفرح والتعاسة، الألم والابتهاج، فلا حياة خالية من الفرح، كما لا حياة تخلو من الألم والشقاء وفي كل هذه الحالات يتوجب على الإنسان أن يفكر ويتأمل، فإذا انتابه الفرح أطمأن له، وإن داهمته التعاسة، لا يستسلم لها، بل يحاول أن يقلصها أو يتخفف منها، فالفكر والتأمل عزاء لكل ملماتنا ومآسينا،

ويعطينا القدرة على عيش الحياة بطريقة هادئة تخلو من التأفف والضجر واليأس.
لكن أن نعيش الحياة، بلا فكر وبلا تأمل، بلا خيال، فهي بلا شك لا تعد حياة، ومن يعيشها بهذا الشكل، فقد قتل كل دافع للإبداع لديه، وأضعف قدرته على عيش الحياة كإنسان حر، جدير بأن يعيش هذه الحياة، بغض النظر عن موقعه فيها، غنيًا أو فقيرًا، أبيضًا أو أسودًا، حسيبًا أو وضيعا، شرقيًا كان أو غربيًا.

فالإنسان لكي يعيش الحياة، يتوجب عليه أن يعرف نفسه كما قال سقراط، ولكي يعرف نفسه، ينبغي عليه أن يتعلم كيف يتعرف عليها، ولا تتأتى هذه المعرفة إلاّ بالتأمل وإعمال العقل والفكر، وإذا عرف الإنسان نفسه، فكر في عالمه وتأمل في حياته، ووجد له مكانًا في هذا العالم، بغض النظر عن حقيقة قوته أو ضعفه، غناه أو فقره، بؤسه أو فرحه، يقول الكاتب ديل كارنيجي في مؤلفه القيم (دع القلق وابدأ الحياة) «لكي يجد المرء مكانه في هذا العالم الذي يحيط به، ومن أجل أن يتعلم العيش والعمل فيه، يتوجب عليه أولًا بأول التعرّف عليه»
الإنسان يكون بفكره وتأمله، وشحذ خياله، وبهم يستطيع فهم نفسه، وفهم معاني الحياة، ومن ثم التكيف والتأقلم معها، ومع ما يتمخض عنها من أحداث.

لذلك يتوجب علينا أن نتأمل في أنفسنا لكي نعرفها، ونعرف معنى الحياة، فالإنسان هو من يفكر ويتأمل وهذا ما ورد على لسان الطفل الصغير في حواره مع طيار الطائرة الذي كان قد هبط بها فجأة في قلب الصحراء من أجل إصلاحها في رواية «الأمير الصغير» للروائي «أنطوان سانت أكزوبيري» قال الطفل للطيار: قد عرفت ذات يومًا رجلًا يقوم بجمع الأرقام دائمًا ويردد أنا رجل جاد، أنا رجل جاد. ولكنه لم يعرف في حياته كيف يتأمل نجمًا أو يستنشق عطر وردة.

* * *

في عصر السوبرمان، البساطة هي صك براءتنا.

لطالما أردد دائمًا هذه العبارة «كن إنسانًا واستنشق عطر وردة» وغايتي منها أن يعيش الإنسان حياة هادئة هادفة، يشعر فيها الإنسان بإنسانيته، يُطلق العنان لخياله وتأملاته لكي يستطيع أن يتكيف مع مجتمعه وإنسانيته وعالمه، ولا سيما بعد أن أصبحت لغة العالم تتمثل في التكنولوجيا والرقمنة والانترنت، والخالية بدورها من الخيال والتأمل والشعور، نظرًا لإيقاعها السريع، وتطوراتها المتلاحقة، الأمر الذي أثّرَ على الإنسانية، وجعلها عُرضة للإصابة بأمراض من قبيل القلق والتوتر والاضطرابات، والشعور بالخواء النفسي والإفلاس الروحي.

ولكي يعيش الإنسان حرًا، سليمًا معافًا من أمراض الخوف والقلق والتوتر والاضطراب، وأن يباشر حياته في هدوء وراحة وطمأنينة وسلام؛ يتوجب عليه أن يعود إلى فطرته، والعيش ببساطة دون تصنعٍ أو تكلفٍ، وأرى أن هذه بدهية منسية، نساها إنسان هذا العصر أوْ تناساها في خضم هذه الحياة المصحوبة بالصراع والضجيج والصخب، فالإنسان في هذا العصر الرقمي والتكنولوجي، بات بعيدًا عن إنسانيته، نظرًا لانهماكه في متلاحقات الحياة وتطوراتها، وسرعة إيقاعها، وفي ظل هذه المُتلاحقات والتطورات، سعى الإنسان إلى مواكبتها، مدفوعًا بالخوف من أن يفوته الركب، أو أن يسقط منه، وفي الحالين لا مكان له في هذا الوجود، وسيعيش – إن قُدر له العيش – نسيًا منسيًا، لا أثر له ولا تأثير، وفي رأيي أن هذا التصور ما هو إلاّ محض أوهام، اختلقها إنسان العصر الحديث كوسيلة لتحقيق غاياته وأهدافه، المبنية على الطمع والجشع والصراع مع الآخر، والحقيقة التي يغفلها هؤلاء أنهم هم من تخلفوا عن ركب الإنسانية وسقطوا في وحل المادية التي أودت بروحهم ووجدانهم إلى سواء الجحيم، وقد فطن كثير من هؤلاء إلى هذه الحقيقة وأن تصارعهم وتكالبهم على هذه الحياة المادية، كان صراعًا زائفًا، مبنيًا على الأنانية والجشع، لذلك آثروا الرجوع إلى البساطة والفطرة، وعيش الحياة الهادئة الخالية من المصالح والمنافع والصراع على الزائل، ومن هؤلاء أديب روسيا العملاق، وأحد أساطين الأدب في العالم في العصر الحديث (ليو تولستوي) والذي قرر أن يعيش الحياة

ببساطة بعد أن كان يرفل في المجد والشهرة والثراء، فلقد ندم على حياته السالفة التي كانت تعج بالضجيج والصخب والمشمولة بالصراعات على متع الدنيا وملذاتها، وقرر الرحيل وأن يبدأ حياة بسيطة جديدة فقال «أنا الآن أُفتشُ عن موت نقي صالح» لقد ترك تولستوي بيته الأنيق وفراشه الوثير، ترك المجد والشهرة كي يموت في طمأنينة وسلام، وكفّرَ الرجل عن سنين حياته التي عاشها يُعاني الصراع والتكالب على الحياة، فقرر أن يوزع أرضه على الفلاحين، أراد بذلك أن يُنقي نفسه من دنس جشعه وإقطاعتيه، فوزَّعها عليهم، ولم يكتف بهذا وحسب، بل انغمس معهم في حياتهم، فعاش في كوخ بسيط مع أوراقه وأقلامه، وعصا عجراء يعتمد عليها، وهو في طريقه لمشاركة الفلاحين بمعوله في عملهم في الأرض بحب وطمأنينة وسلام.

ليس ما أدعيه دعوة للكسل أو الانزواء أو الرجعية، بل هو العودة إلى الإنسانية والفطرة والعيش ببساطة وهدوء، وهذا عين ما نادى به المفكر (تشارلز فرانكلي)، بقوله «إن العصر الحديث يتميز بالتبديد الهائل للقوة البشرية»، لذلك أنا لا أقصد بالحياة البسيطة الانعزال والانزواء عن الناس كما فعل الأديب (مارسيل بروست) الذي رجم الحياة بحجارة من سجيل، وأنشأ لنفسه حُجرة من الفلين، واختار الفلين لكي لا يسمع نأمة ولا حركة ولا صوت، إنه أراد الانعزال عن الحياة قاطبة واصفًا إياها بالعبث، . بل ما أقصده هو عيش الحياة برقي إنساني يعرف الإنسان الهدف من حياته، بقيامه بالتزاماته وأدائه لواجباته، يعيش وسطًا لا إسراف ولا تقتير، يتناول من الموارد بقدر الحاجة، لا استئثار بها ولا احتكار، يكون متصالحًا مع نفسه، يحب غيره كما يحب نفسه، يتقاسم مع الناس أتراحهم وأفراحهم، يكون صادقًا في مشاعره، لا يطمع ولا يكذب، يُشحذ خياله ووجدانه، وينطلق من مقومات إنسانيته، مؤمنًا بأن هذا الكون يسع الجميع، وأنه قد يتعرف على السعادة بأبسط الوسائل وأيسرها كإدخال الفرحة على بائسٍ أو حزين أو ملهوف، وأن يعلم أن حقيقة هذه الحياة هي الفناء، وإنها وإن كانت كذلك، فما الداعي للاستئثار والتكالب والأنانية؟، فإن كان لابد من عيش هذه الحياة، فيتوجب أن تكون وفق الحب والوفاق والائتلاف والتعاون والمحبة

والسلام، واليقين من أن كوخًا بسيطًا فيه طمأنينة أفضل من قصر يحوطه القلق والاضطراب.

قد يكون الكلام سهل ويسير، وقد يظن من يقرأ هذه السطور أن الحياة البسيطة سهلة المنال، وأن اختيارها لا يوجد فيه عناء ولا مشقة، ربما يكون ظنهم هذا صحيحًا بمنطق الكلام المرسل، لكن في الواقع أن اختيار هذه الحياة البسيطة، يتطلب طاقة هائلة ومقدرة إنسانية عظيمة، ولا سيما في هذا العصر الذي يطفح بالمادية والتعقيد، وفي ذلك يقول الفيلسوف (فريدريك نيتشه) وهو أحد أعظم الفلاسفة تأثيرًا في القرن العشرين، وصاحب نظرية «الرجل السوبر مان»، الرجل القوي والمتفوق جسديًا ونفسيًا، أي الرجل الذي يستطيع أن يعيش الحياة، وأن يواجه صعوباتها وتقلباتها وتطوراتها بكل قوة وعزيمة ومضاء، يرجع بعد هذا كله ويقول «إن الحياة البسيطة هدف بعيد للغاية بالنسبة لي، وسأنتظر حتى يأتي أُناس أكثر حكمة مني ليعثروا لنا عليه»

* * *

الجنة والجحيم يرقصان على طرف قطعة كيك

«كان أحسن الأزمان، وكان أسوأ الأزمان.. كان عصر الحكمة، وكان عصر الحماقة، كان عهد الإيمان، وكان عهد الجحود، كان زمن النور، وكان زمن الظلمة، كان ربيع الأمل، وكان شتاء القنوط»

هذه هي الجملة الافتتاحية لرواية «قصة مدينتين»، للكاتب الإنجليزي (تشارلز ديكنز) والذي يتناول فيها بقلمه الرشيق وأسلوبه الشجي العذب الأحداث التي وقعت في فرنسا ومهدت لقيام الثورة الفرنسية (1789م)

وهي أحداث مزرية ودامية، حيث كان يقبع فيها الشعب الفرنسي وخاصة طبقة العمال والفلاحين لشتى أنواع القمع والتنكيل والعذاب من قبل الطبقة الأرستقراطية الفرنسية المتمثلة في النبلاء آنذاك.

وأذكر أنني اعتراني اليأس وأخذ مني الإحباط والجمود عند قراءتي لهذه الرواية لأول مرة، لما لمست فيها من معاناة الفلاحين والعمال الذين كانوا يرزحون تحت نير الفقر المدقع والاستبداد من قبل الطبقة الأرستقراطية، فكان النبلاء والطبقة الحاكمة في فرنسا يعاملون هؤلاء الفقراء معاملة لا إنسانية تنطوي على الظلم والقهر والطغيان، وكانوا يرونهم عبيدًا لا حقوق لهم ولا حريات، وليس لهم أي وجود إنساني يُذكر، فهم كالحيوانات أو أقل منهم شأنًا، وقد صور ديكنز هذه المأساة المليئة بالذل والفقر والمعاناة الإنسانية من خلال مشهد، ارتقى بي ذروة الحسرة واليأس، لما وجدت فيه تجسيد لتعاسة هؤلاء الناس، ومدى ما وصلوا إليه من فقر وذل، يقول فيه «انكسر برميل مملوء بالنبيذ الأحمر في أحد شوارع حي سانت أنطوان الذي يعتبر من أفقر أحياء باريس وأكثرها بؤسًا، وعلى الفور ترك جميع الناس أعمالهم وأسرعوا إلى حيث تحطم البرميل وأخذوا يحاولون شرب قطرات النبيذ قبل أن تبتلعها الأرض، وخلع بعضهم ثيابه وأخذ يغمسها في النبيذ المسكوب ثم يعصرها في فمه»

لا شك أن هذا المشهد يوغل في المأساة، لما ينطوي عليه من بؤس وفقر ومعاناة لهؤلاء الناس، وأنهم محرمون من أدنى الحقوق الإنسانية

في ظل هذا المشهد الضبابي التعس الذي يفتقد فيه الإنسان إنسانيته وكرامته، يأتي مشهدًا آخر يصور فيه ديكنز أن إنسان هذا العصر لا قيمة له كإنسان وأن روحه عرضه للبيع والشراء بأزهد الأثمان حيث يصور ذلك من خلال المشهد الذي يدهس أحد النبلاء وهو الماركيز أيفرومند ابن الفلاح الفقير بعربته، لا يحرك ساكنًا وينظر إلى الناس باستعلاء، ويعطيهم عملة نقدية كتعويض عن الخسارة.

في ظل هذه الأجواء المشحونة بالتمييز والحط من الإنسانية، يقال أن (ماري أنطوانيت) زوجة الملك (لويس السادس عشر) ملك فرنسا في هذا التوقيت شاهدة على هذه المأساة، والتي أضافت لها بعدًا أكثر مأساوية عندما قيل لها «أن الشعب يعاني ولا يجد حتى الخبز»، فقالت دون اهتمام جملتها الشهيرة «إذا لم يكن للفقراء خبز، فدعهم يأكلون البسكويت»

وبغض النظر هل تنسب إليها العبارة من عدمه أم لا؛ فإن أسلوب حياتها الرغد المنطوي على الرفاهية والترف والبذخ يؤكد أنها ولت ظهرها لهذا الشعب البائس المسكين، وأن هذا الجفاء هو من أودى بها إلى جحيم المقصلة، حيث اقتيدت مع كثير من النبلاء ومنهم زوجها لويس السادس عشر عقب اندلاع الثورة الفرنسية إلى المقصلة لتجابه مصيرها وهو الإعدام.

وكما كانت قطعة بسكويت ماري انطوانيت سببًا في ورودها الجحيم، كانت قطعة بسكويت أخرى تهب صاحبها الحياة وتورده جنة الإنسانية هذا ما فعلته قطعة البسكويت (بمارسيل بروست) صاحب رواية «البحث عن الزمن المفقود» والتي تعد من أشهر الروايات في القرن العشرين، لأنها تعد بمثابة بحث روائي عن الزمن من خلال تناولها للأحداث التي تقع فيه، والتعرض للشخصيات الذين يمارسون حياتهم في وعائه، فهي تفسر الذات والحياة عبر الزمن، فالزمن كما يقول بروست «هو السيد النهائي لهذا الكون؛ فالحياة في مجراها ليست إلاّ

زمنًا مفقودًا وأوهامًا زائلة، والذاكرة والنفس هما السبيل الوحيد لاستعادة هذا الزمن المفقود، وتحويل الأوهام إلى أشكال ملموسة من الجمال الأبدي»

لقد كان السبب في بعث هذه الرواية الرائعة من قبل بروست، قطعة بسكويت أعطتها له أمه مع قليل من الشاي في يوم ممطر، ورغم أنه في هذه اللحظة كان يعاني من الهموم والأحزان، إلّا أن قطعة الكيك وسحر اللحظة جعلاه ينظر إلى الحياة من منظور مختلف، فقد اجتاحته نشوى لذيذة أحالته إلى إنسان متأمل، لا يأبه لتقلبات الحياة ولا يبالي لكوارثها؛ فلقد ملأ نفسه وروحه بالأمل والحب، وهذا ما دفعه إلى القول المأثور عنه «لقد أحالتني هذه اللحظة إلى الوجود، لم أعد أشعر بنفسي تافهًا، عرضيًا، فانيًا»

* * *

جدّي وإيمانويل كانط
في رحاب الفلسفة والدين والأخلاق

كعادة الناس عندما يفقدون عزيزًا عليهم، تجدهم يلتمسون الصبر والسلوان في ذكر مآثره ومناقبه والجليل من أعماله والمُشاهد منها، والذي كان يتواتر على القيام بها، ويظلون يتحدثون عنه وعن أعماله ويرحمونه ويكبرونه على ما أفضى وما قدم في الحياة الدنيا

هذا شأن الناس مع الطيبين الصالحين الذين تركوا إرثًا أخلاقيًا أو عمليًا ينتفع الناس به من بعدهم.

ووجدتني من هؤلاء الذين يذكرون مآثر الراحلين وممن يترَحمون عليهم لما قدموه من جليل الأخلاق والأعمال، فأثناء قراءتي عن الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانط)، وجدت في سيرته الذاتية منقبة جميلة تدل على عبقرية الفيلسوف، وأنه ما ارتقى مكانته العلمية والأدبية إلاّ بحرصه على هذه الخُلة الناجعة، فقد كان رائد التنوير ومنقذ الأخلاق كما وصفه المؤرخ (ويل ديورانت)في كتابه القيّم (قصة الفلسفة)، حريصًا جدًا على الوقت للحد الذي جعل جيران الفيلسوف يُدركون أن الساعة قد بلغت الواحدة والنصف بالضبط عندما يعود من الجامعة، فكما كان البعض من الناس وأنا أحدهم يُدركون الوقت من خلال تتبع الظل الناتج عن سقوط الأجسام، كانت رؤية كانط تُعني أنّ السّاعة أصبحت الواحدة والنصف، وفي هذا يقول الشاعر الألماني(هايريس هانيه)، ‹‹لست أعتقدُ أن الساعة الضخمة للكاتدرائية القائمة هناك كانت تؤدي عملها اليومي على نحو أكثر دأبًا وانتظامًا مما كان يُؤديه مُواطنها إيمانويل كانط، فقد كان يلتزم وقتا مُحددًا في استيقاظه وشربه القهوة، وفي كتاباته وقراءاته وأكله ومشيه››، وبالطبع أكبرتُ الفيلسوفَ لهذه الخُلَّة، وعلى الفور تذكرتُ رجلاً بسيطًا من جيراني، نشأتُ ودرجتُ على احترامه وتقديره فمكانته من مكانة جدّي فكليهما رقيق الحال لا يعرفون من الدنيا غير العمل والعبادة وما يتخلَّلَهُما من أحداثٍ تقع لهم في الحياةِ، وكيف يتعاملون معها ويُعالجونها كسائر البشر.

هذا الرَّجل البسيط هو جدي عبد الحميد غُنيم، والذي كنت أُجلُّه وأُقدّره، عرفانًا لدماثة خلقه وطيب مُحتدّه وجمال طبعه وخصاله وقد أسلم رُوحه لبارئها فاعتراني الحزن لفقده ولاسيما أنَّني لم أره منذ زمن، فقد حال سفري بيني وبين رُؤيته، لكنَّني وجدت السلوى في عزاء هذا الرجل، ففي سرادق عزائه كان محور الحديث عن مناقبه وخصاله من طيبةٍ وأصالةٍ وكرمٍ، لكن كان هناك خصلةً أجمع عليها المُعزُّون وهي (التوقيت) فيقول أحدهم: كنت أعرف مواقيت الصلاة من خلال رؤيتي له، ويقول آخر: كنت أعلم التوقيت من خلاله، وقد أجمع المعزّون على دأبه على الصلاة وحرصه عليها، مُخلّفًا في وجدان الناس فضلًا عن احترام الصلاة والعبادة، دقة التوقيت وحفاظه على دأبه ونشاطه طوال سنى عمره التي كانت قد شارفت على الثمانين، وهي نفس السن التي توفى فيها إيمانويل كانط، وقد التقيا الرجلان في دقة التوقيت، ومعرفة الناس للوقت من خلالهما، هذا في زمنه وذاك في زمن آخر، لكن التقدير للوقت واحد.

ورغم التفاوت بين الرجلين، فأحدهما وهو كانط كان أستاذًا للفلسفة، وعاش حياته كلها في التماس المعرفة والبحث عنها، وخاصة المعرفة المُتعلقة بحلّ الألغاز الكبرى والقيم المُجرّدة، وبرع في هذه المعرفة أيما براعة، الأمر الذي جعل فلاسفة كبارًا مثل (هيجل وماركس وشوبنهاور وسارتر وميشيل فوكو) يقتفون أثره وخاصة في طرحه الفلسفي المتعلق بطريقة تفسير وفهم عقولنا للأشياء.

وكان جدّي عبدالحميد هذا الفلاح البسيط لا يقل شأنًا عن كانط، في أنه فتح آفاقًا رحبةً لي ولغيري من الذين كانوا يتعاملون معه في معرفة الذات وتحسس الفطرة والتماس الأخلاق من خلال حُسن المُعاملة والحرص على العبادة وتطبيق الشريعة تطبيقًا عمليًا من خلال أدائها وتجسيدها على أرض الواقع بالمحبة والصدق والسلام، تجسيدًا ذاتيًا نابعًا من الخلق والفضيلة الرافدين من تعاليم الدين والفطرة البسيطة، وفي ذلك تأكيدًا على أن الدين لا وساطة فيه ولا وصاية، هذا الأمر الذي تعلمناه من هذا الرجل البسيط نادى به كانط عندما قال: «أن الممارسات الدينية كالتوسل بالصلاة ما هي إلاّ خدمة خُرافية زائفة

للرب، عندما تطرح بوصفها طُقوسًا ضرورية للاستقامة الأخلاقية أو لتبرئة الخاطئ أمام الله»

فكانط كان يعيب على الصلاة في العصور الوسطى اتخاذها الشكليات التي كانت تأخذ من جوهرها وتجعل منها مجرد حركات لا أداء فيها ولا منفعة منها، حيث كانت لا تنعكس على الفرد أو المجتمع، ولا تحقق الغرض منها كالاستقامة وتهذيب خلق المصلي ونفعه لنفسه وللناس وللمجتمع.

وفي النهاية مات كانط كما الكل سيموت وترك أثره من علم وفلسفة ملأت الدنيا بالخير، وحسبي هنا أشير إلى وصيته التي يقول فيها «شيئان يملأن قلبي دومًا بالإعجاب المتزايد والخشوع، وهو شعور لا يُفارقني كُلما أطلت التفكير، السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي والقانون الأخلاقي في داخلي، إنني أراهما أمامي مباشرة، وهما يُثيران فيّ المرة بعد المرة الوعي بوجودي»

كذلك مات جدي عبدالحميد كما الكل سيموت، لكنه ترك إرثًا من المحبة وأثرًا فريدًا يُعرف به ويكون سيماءً له، وحسبه أنه كان وقودًا وجدانياً لي وأنا أكتب هذه المقالة، فلا شك أن هذا الرجل البسيط جعلني أتذكره بالرحمة، ووجدت أنه قدم فلسفة في الحياة متمثلة في احترام الوقت، وتجسيد العبادة خارج المسجد ودور العبادة واقعًا عمليًا ملموسًا يؤكد أن العبادات كلها ما شُرعت إلاّ لتأكيد الأخلاق والتمكين منها.

* * *

الزمن

من منّا يستطيع قياس الزمن؟!

وبأيّ معيار يقاس الزمن؟!

وهل نستطيع رصده حقًّا؟!

إن قصة الميلاد والموت وما بينهما، وما بعدهما، ما هو عامل الزمن ودوره فيهما؟!

المقياس الحقيقي للزمن هو الإنسان، فكل إنسان يستطيع أن يحدد زمنه وفق معطياته.

نعم، كل إنسان يستطيع أن يكون هو مقياس للزمن.. لأن الزمن يكمن في داخله

فالزمن يقاس بمعيار إنسانيتنا، يكون جميلًا إذا صفت النفس وارتقت، وعلى العكس نراه شائهًا وقبيحًا إذا تلبَّدت النفس واعترتها الشوائب وتدنت.

الزمن ليس تداول أرقام، أو مرور أيام، أو تتابع أسابيع وشهور وسنين ودهور وليس طريقة لتحديد وترتيب الأحداث التي تتوالى وتتعاقب.. الزمن أعمق من أن

يرتبط بمكان، أو يكون رهين حركة أو تغيير.

الزمن لا يكمن في تجاعيد الوجه أو في اشتعال الرؤوس بالشيب، فكم من عجوز يبس جنبها واحدودب ظهرها، وكم من شيخ أشيبٍ طعنه الهرم، واستولى عليه

لكنهما صمدوا بإباء وشموخ لعاديات الدهر وصروفه، فلم يستطع أن ينالهم، أو يستغرقه، أو يضعهم ضمن آليته الرقمية التي تتداول على الناس.

إن من يتمسك بالقوة الروحية، والجسارة القلبية، وتنفجر في أعماقه دائما الطاقة الإيمانية بتدفقها وعطاءها هو من يشكل زمنه، هو من يضع إطاره

هو من يصنعه على عينه.

بهذا العطاء وهذا التدفق الإيماني يصنع الإنسان زمنه، يسيره كيفما شاء، فهو رهين صانعه ومحدده، ولا يستطيع الزمن والحال كذلك أن يستغرق صاحبه أو ينال منه أو يحيط به، أو يجترأ عليه، وأنّى له أن يجترأ على أصحاب القلوب الناصعة النقية، المتدفقة بالحب والإخلاص.

إن أصحاب هذه القلوب أخرجوا أنفسهم من زمن الحركة وزمن التغيير وتداول الأيام، فهذا الزمن موجود، لكنهم استبدلوا به زمنًا آخر، اختاروه لأنفسهم

زمن مغاير مختلف لا يرى ولا يشاهد في اشتعال الرؤوس بالشيب، ولا في تجاعيد الوجوه، واحدوداب الظهور، وتيبس العظام، وانطفاء بريق العيون، وجفاف النضارة، وانحسار قوة الأبدان، وإصابتها بالعلل والأسقام.

زمن هؤلاء ليس زمن حركة، بل زمن سكون وطمأنينة، ليس زمن تداول وتتابع بل زمن استقرار وثبوت للنفس والروح.

زمن هؤلاء صنعوه بإرادتهم، ودفنوا بذرته، وهم يعلمون أنها سوف تنمو وتثمر وأبدًا لن تموت.

زمن يحيا ولا يموت، يظل يانعًا مثمرًا يفيض عليهم بالنضارة والجمال والحياة والخلود، لأنهم رووه بالحب والإخلاص، وتعهدوه بالصبر على المكاره والأذى والبعد عن الهوى، جردوه من الضغائن والكره والحقد والختل والأسقام، جعلوه منارة تضيء لهم المسالك، وتحدد لهم الأماكن والمواقع في الدارين الأولى والآخرة.

آمنوا بفطرتهم، فتعهدتهم وأرشدتهم إلى الحق، وعلمتهم كيف يكون الصدق مع النفس ومع الغير، ومع الكون ومع الحياة، وجعلتهم يتسنمون ذروة معالي المعرفة، فعلمتهم كيف يكون الصدق مع الله.

هؤلاء هم من قادوا زمنهم، وحددوه وفق إرادتهم، واستغرقوه هم، ولم يجعلوه مجرد رقم ولا حركة، وإنما جعلوه قيمة لا تتغير لا تتبدل، لا يطرأ عليها تبديل ولا تغيير سرمدية إلى مالا نهاية.

لكن هناك من يأبى _ وهم كثر _ إلاّ أن تتداول عليه الأيام، وتتابع عليه السنين، ويكون رهين الحركة والتداول، يستبد به الزمن ويستغرقه، فيكون تابعًا ومنقادًا لا فرق بين شيخٍ وكهلٍ، أو غادة في ريعانها وفتىً مفتولًا نضرًا في ميعة شبابه وسلاف حياته.

فمن يستبد به الزمن ويستغرقه، ينهشه نهشًا، ويلوكه لوكًا، بعد أن تغرير به وتحايل عليه، فيسيطر عليه ويهيمن، فيجعله يعيش الحياة بمفهومه هو، ويكون هو المعيار والضابط لكل أموره وأحواله، وتدور حياته في فلك حدوده وأطره وأرقامه وساعاته ودقائقه وثوانيه.

ومثل هؤلاء تتداول عليهم الثواني والدقائق والأيام والشهور والسنين، ويكونوا دائمًا في صراع مع الزمن، فيقدمون على الحياة بلغته، ويحددون ماهيتهم ومعيشتهم بناء على هذه اللغة، فيكون الزمن هو المترجم للحياة، ويكون القبلة والموئل والمحراب، فيزج بهم في أحضان الدنيا، يقومون ويقعدون فيها، يتخبطهم الشيطان، يركضون كركض الوحوش فيها، يلهثون، ولا ينالون منها إلاّ الضنك والتعب.

يؤدهم الزمن في غياهبه، فيكون وأدًا سرمديًا لا نهاية له، ومصيرهم هذا هم من صنعوه بأنفسهم، لأنهم تركوا قيادهم للزمن، فاستبد بهم، وأرداهم لمصير هو أشد هولًا ونكرا.

إن من يترك قياده للزمن، كان حقيق على هذا الزمن أن يستبد به، ويؤول مصيره كيفما شاء، وإن كان من يترك قياده للزمن لا يراع فيه تأويلًا، لأنه لا يعرف إلاً معنىً واحدًا ألا وهو الضياع والسقوط.

أما من يقود زمنه، ويحدده وفق إرادته، يؤول مصيره إلى الاستمرارية والبقاء والخلود.

ولعمري، إننا نخضع لحتمية الزمن وإجباره، إذا عميت قلوبنا وأبصارنا، واتبعنا هوانا، ومع هذا الخضوع نفقد الحرية والاختيار،

ونتوه في حواشي الزمن، مثلنا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً صم بكم عمي، وساعتئذٍ لا نستطيع الفكاك ولا الخلاص من براثن هذه الحتمية، وأنّى لنا ذلك؟!

ولات حين مناص!

وبمفهوم المخالفة لا نخضع لحتمية الزمن، إذا صفت أنفسنا، وتتبعنا فطرتنا، وحكمنا ضمائرنا، ولم نتبع هوانا، وملأنا قلوبنا بالحب والإخلاص، عندئذٍ سيكون لنا الحرية والاختيار في أن نحدد زمننا، لا فرق بين شيخ وعجوز أو فتاة وشاب، أو صبي وكهل، إن هي إلاّ مسميات ومراحل حسابية، ليست دليلاً وبرهانًا على الزمن الحقيقي.

فالزمن الحقيقي يكمن في القلب الطيب، والإنسانية التي لا تخضع للأدلة والاستدلالات والبراهين، وإنما تكون بالمبادئ والقيم التي تنبع من القلب والروح، يزكيها ويأصلها الدين.

لذلك فإن دخيلة الإنسان هي التي تحدد زمنه الحقيقي، فسبحان من أعطانا الإرادة ووهبنا الحرية والاختيار

* * *

التاريخ العُنصري
لا يأبه لغارمة ويحتفي بجوني ديب وآمبر هيرد

لا يحفل التاريخ إلاَّ بالسادة والارستقراطيين، هكذا كان على الدوام، اللهم إلاّ على استحياء عندما يُجبر على التوقف لرصد وتدوين أخبار بعض العلماء والمفكرين، وغيرهم من دهماء الناس وعامتهم، الذين يذعن لهم استحياءً نظرًا لما قدموه من بذل وعطاء وتفاني لخدمة الحق والعدل والإنسانية وهم قليل جدًا، لكن دائمًا وأبدًا التاريخ عنصري وانتقائي، يختار من يريد ليدون عنه، فللتاريخ أمزجة وميول ارستقراطية، لا ينزل أحدًا منزلة ولا يرصد أحواله إلاّ بمواءمات وبمقاربات ألفها البشر وتعارفوا عليها، ولفهم البشر توجه التاريخ، راحوا يضعون القواعد والأسس التي من خلالها يستميلونه، لكي يتوقف ويدون ما يريدون من الوقائع والأحداث، ومن أجل ذلك تهالكوا عليه بإغرائه ببريق الذهب والسلطة والجاه، ليستنفرونه ليكتب عن أشخاص بعينهم، يُسلط عليهم الأضواء ليحتفي بهم.

التاريخ ينساق لأهواء هؤلاء البشر ولنوازعهم، وينكب على التدوين والتحبير مُذعنًا لسطوتهم ونفوذهم في سنِّ التراتبية والتمايز بين الناس من خلال عنصر التفوق الذي يمتح من المال أو الجاه أو السلطة أو النفوذ، هكذا كان التاريخ دائمًا عُنصريًا!،

ويستمد التاريخ عنصريته من واقع البشر واتجاههم القائم على سن التراتبية والتمايز بين الناس، فالمجتمعات قائمة على اللامساوة من عصر أفلاطون إلى عصرنا هذا، وإن كان عصرنا يتغنى بتحقيق المساواة التي يظن أنه أحرز فيها شيئًا من التقدم، لكن في رأيي هي مساواة ظاهرية أكثر منها موضوعية، بدليل وجود التراتبية والتمايز في أعتى المجتمعات القائمة على المساواة في العصر الحديث، والدليل تسليط الضوء على أشكال من التجربة الإنسانية التي تأخذ بُعدًا ارستقراطيًا تستمده من عصر أفلاطون مع اختلاف الزمن والمسمى،

وخير من يُجسد هذه الحالة، لاعبي كرة القدم والفنانين، فتسليط الضوء على (جوني ديب وآمبير هيرد) أنموذجًا لإذعان التاريخ للتراتبية التي وضعها بعض البشر، وتقبلها العقل الجمعي الذي استهلكته السطحية عن العمق في الاختيار والرؤية والرصد، وتثمين الغث من السمين، ومعرفة النافع من الضار، والمادي من الروحي، وإن كنت أرى أن للفن والقائمين عليه رسالة، لكن ليس لدرجة جعلها من المقدسات، وجعلها ناموس ومحور الحياة، وبهذه السطحية وهذا الخواء أملى البشر على التاريخ أن يكون ساذجًا وناشزًا، تجانبه الموضوعية، ويجافي الصواب في الانتقاء والاختيار، لا يزحزح مفهومه في تناول مادته في الاختيار، ولا يؤثر على عقيدته ما ينادي به العلماء والفلاسفة والمفكرين من بسط شراع المساواة وتحقيق العدل والمساواة.

لذلك سيظل التاريخ ارستقراطيًا وعنصريًا وانتقائيًا في اختياراته، وفق ما تُمليه عليه نزعات البشر وميولهم، التابعين منهم والمتبوعين على حد سواء، هذه الانتقائية للتاريخ، حجبت عنه ملاحم كثيرة يتطاير نقع غبارها في وعاء زمنه كل يوم وكل لحظة، قد يذعن لبعضها مجبرًا، لكنه يصد عن كثيرها صدودًا، لأنه ليس لديهم من مال أو سلطة أوجاه تغريه، ولا يساندهم أتباعًا وأشياعًا، ليتملقوا التاريخ ويرشونه ويقلبون قلبه عليهم، هكذا هم الدهماء أو السواد الأعظم من الناس، الذين يسطرون ملاحم بطولية كل يوم، هي تجارب إنسانية يزدحم بها وعاء الزمن، لكن لبساطة أصحابها، لا يتوقف عندها التاريخ، لأنه يرى فيها تجربة إنسانية لا تستأهل التوقف عندها، فما الذي يغري التاريخ في عامل أو موظف بسيط يبكر لعمله سعيًا على الرزق ليقيم أوده، ويسد رمق أولاده، ليحييهم حياة كريمة، يتحمل مشاق الحياة ومرارتها، لا يطمع في جاه، ولا يروم منصب، ولا يأمل في سلطة، غايته الستر له ولأولاده، وكذلك ملايين الأحداث التي تدور رحاها تحت شمس الحياة، فقير متعفف لا يسأل الناس إلحافًا، أو مسكين لا يستتندي أكف الناس، يربأ بماء وجهه أن يُراق، أو غارمة نكبها الدهر، تسعى في مناكب الأرض ومخارمها، تعمل وتجد، وقد تقرّح ذهنها من هم التفكير في كيفية سداد ديونها، وما أن يسدل عليها الليل سدوله حتى يقض

مضجعها مذلة هذا الدين، ورغم ذلك كله تجدها بثغر مبتسم، ووجه متتطلق حتى تُخفي ما ألم بها عن أولادها، كي لا تسبب لهم ضيقًا أو ألمًا.

احتفى الناس بجوني ديب وآمبير هيرد، وتعاطف الناس مع أحداث قصتهم، التي شغلتهم، وكانت مثار للنقاش بين مؤيد لأحدهم، ومعارض للآخر، وتصدرت صورهم وسائل الميديا من صحافة وإعلام ووسائل تواصل اجتماعي، لقد شغلوا الدنيا والناس، وهكذا يسجل التاريخ أحداثه ويحتفي بمن يحتفي به الناس، وفي الظل تجد أطيافًا وخليطًا من البشر يعيشون في الظل مهمشين، رغم ما يقدموه من بذل وعطاء وكفاح في الحياة، يعيشون تحت شمس حياة باردة، لكنهم لا يرجون المثوبة إلاّ من الله، فطوبى للمساكين، وطوبى للسواد الأعظم من الناس، الذين يجسدون ملاحم بطولية في مسلسل قصة الابتلاء والكدح.

ولعمري، فكم من الملاحم التي ضنّ بها التاريخ وأشاح عنها في هذا العالم الذي يعُج بالفوضى ويموج بالإضرابات!

وكم من ملايين التجارب الإنسانية التي ذهبت أدراج الرياح في هذا العالم القائم على التمايز والتراتبية وغياب العدالة!

* * *

احذر في تعاملك مع محدث النعمة

ومحدث النعمة:هو الشخص الذي أتاه الثراء متأخرًا، وكذلك المكانة الاجتماعية، أي أصبح ذا مال وثروة بعد أن عاش فترة طويلة فقيرًا أو رقيق الحال، وكذلك ظهر على السطح بعد أن ظل يعاني لفترة طويلة في القاع.

هذا الشخص تؤثر عليه ثروته أو مكانته الاجتماعية فتجعله يتنكر لفقره ولرقة حاله ولفترة تهميشه، ويحاول تغيير الصورة النمطية التي عاشها قديمًا، فيتصرف على نحو غير متزن، فيباهي بثروته، ويحاول الحط من شأن الآخرين، ويعمد إلى الانتقاص منهم، والتقليل من قدرهم، ومحاولته الدائمة في لفت الأنظار إليه، من خلال شططه في الاستهلاك والبذخ، والحديث عن مشترياته ومقتنياته من سلع وممتلكات، وحب الظهور المبالغ فيه.

عليك إذن تحذر هذا الشخص لأنه بسلوكه هذا يفتقد معاني الإنسانية، وقد تضطرك الأيام للتعامل معه، فإذا طلبته في حاجة، أو اعتمدت عليه في أي شأن من الشؤون، قد يهرق ماء وجهك، وينال من كرامتك.

هؤلاء الأشخاص المضطربون سلوكيًا إذا ابتُليت بهم المجتمعات؛ قد يؤثرون على توازنها، ويفسدون العلاقات الإنسانية فيها، فامتلاكهم للمال يجعل منهم أصحاب سلطة ونفوذ داخل المجتمع، ومن خلال هذه السلطة والنفوذ يتصدرون المشهد، فيستشري مرضهم في جسد المجتمع فينهكه ويمرضه، لأنهم لا يوجد لديهم قيم ولا ثقافة تعامل أو أخلاق، ومن ثم يُصدِّرون للمجتمع فساد الذوق، وسوء المعاملة، وقبح التعامل ويؤسسون لقاعدة مجتمعية قد يتبناها ضعاف العقول وعديمي الفكر والتدبر، فحواها أن الثروة والظهور هما المعيار لتحقيق الشرف الإنساني، لذلك يهرع الكثير ممن يتبنوا هذه القاعدة للعمل بها، ومحاولة الوصول للثراء وتبني القاعدة على إطلاقها؛ لأن التطلع للثراء في ذاته ليس عيبًا أو خطيئة، بل العيب والخطيئة تبني الثروة كمعيار للحكم على الشرف الإنساني.

احذر في تعاملك مع جاهل ذو منصب وسلطة

هناك معادلة تقول:أن الجهل إذا اجتمع مع الفقر ينتج عنهما الجريمة.

واجتماع الجهل والثراء ينتج عنهما الفساد.

واجتماع الجهل والحرية ينتج عنهما الفوضى

واجتماع الجهل والدين ينتج عنهما الإرهاب

واجتماع الجهل مع السلطة ينتج عنهما الاستبداد.

لا شك أن هذه المعادلة صحيحة، ويلاحظ أن المقدمة واحدة، والنتائج متعددة، لكن يجمعهما قاسم مشترك ألا وهو الشر والرذيلة.

والسلطة مع الجهل، سيف بتار يقتل بدم بارد، لا يفرق في ضحاياه بين شريف ووضيع، فالكل لديه سواء، والسلطة لا تحكم بمفردها بل هي آلة في يد صاحبها، يستطيع إتيانها متى شاء، وتفعيلها على من يشاء، لذلك إذا افتقد المعرفة وثقافة التعامل بها كانت السلطة معول هدم وأداة فساد، وإذا تجرد صاحبها من الوازع الخلقي والضمير وتجرد من الإنسانية بطش بها غير مبال ولا مكترث لما تسببه هذه الآلة من بطش وتدمير، وانتهاك للقيم والمبادئ والكرامة الإنسانية.

وصاحب السلطة متى كان جاهلًا، مفتقدًا للقيم والأخلاق، مجرودًا من الثقافة استغل سلطته في إعمال الفساد وبث الرعب في نفوس من يتعامل معهم، فهو ينظر إليهم نظرة دونية، ويراهم أدنى منه فيعمد إلى التقليل منهم والحط من شأنهم، لا يسمع لهم، ولا يحاورهم، فمجرد الحديث معهم يراه ترفًا لا يستحقونه، هو فقط من يتكلم، هو فقط من يأمر ويطاع، حتى لو كان في أمره مخالفة لشرع أو قانون أو منطق أو عرف أو قانون.

لذلك فالسلطة بيد جاهل تعني الاستبداد والتحكم فيمن هو تحت سلطته، ولا شك أن الاستخدام لهذه السلطة من جاهل يؤدي إلى انتشار الفساد

وتعميم الفوضى، وإقصاء الفكر، ووأد الحرية الإنسانية، واحلال الظلم، وغياب العدالة.

* * *

عطر الذكريات.. وسعر الدولار

ربما جمعينا نمتلك ذكريات جميلة، نعود إليها في حالات الفرح أو الحزن والرجوع في حالات الحزن أمضى وأشد، هكذا جُبل على ذلك وتواتر أغلب البشر، فالتمسك بالحياة، والتشبث بالخلود يجعلنا نعود إلى الوراء نستمد منه الطاقة والأمل على المُضي قدمًا في حياتنا التي تتغير لحظة بعد لحظة لا ثبات ولا سكون، ولأن التغير يفاجئنا ويدهمنا ليس فيمن حولنا فحسب بل يطالنا نحن، فنحن نتغيّر أيضًا، لكننا ولحب الحياة المزروع فينا، نتحايل على ما يحدث لنا من تغيّر، سواء بالتنكب لهذا التغيّر والتنكر له بعدم التفكير فيه والعمل على التقليل منه بإشغال أنفسنا بالأمل الذي يمنينا بالحياة، أو بالرجوع إلى الماضي نجتر منه حلاوة البدايات وسلاف الحياة وريقها وهدوئها، والصباحات الحلوة الناضرة بوجود من نحب، والمساءات الناعسة العاطرة الدافئة بمن نحب أيضًا، في الحالين نحن نحتال على التغيير طمعًا في الحياة، ليس مكرُمة للحياة نفسها، بل خوفًا ورهبًا من المجهول وجهلنا بالحياة الأخرى.

وأرى أن ذكريات الطفولة هي الأجمل لدينا جميعًا، ربما لأنها تمثل أول تعارف حقيقي بيننا وبين هذه الدنيا، فمن باب الطفولة نلج لعتبات الحياة ونترسم خطاها، ونشكل أول لبنة لعالمنا فيها من خلال رؤيتنا الفطرية لكل مناحي الوجود من محسوسات وغيبيات، وأماكن وأشخاص، يتشكل وعينا الطفولي بشأن الوجود وما فيه من خلال الفطرة الساذجة الحلوة النقية الممهورة بصك البراءة والطفولة.

لذلك نجد أن معارف الطفولة من صداقة وزمالة، والعلاقات الإنسانية التي تنشأ في رحابها لها مذاق خاص، فعقيدة كل منّا تجاه من جمعته زمالة أو صداقة أو معرفة تكون في الأغلب عقيدة مؤسسة على الحب والشفافية الإنسانية المطلقة، وإن كان هناك بعض التباين في هذه العلاقات فإنه وبلا شك تباين محدود، لأنه ومهما كان الاختلاف من حيث الرؤي والنزعات التي تتأثر تارة بالتركيب الجيني أو الوراثي أو للعامل الأسري والبيئي أو العقائدي، فإن هذه المرحلة تكون بنسبة

كبيرة بمنأى عن هذا التأثير، لأن التركيب الطفولي والنزعة الطفولية والمادة التي تشكل هذا التركيب وتتأصل بها هذه النزعة مادة واحدة، تخرج من مشكاة واحدة هي جمال البراءة ونور الفطرة.

ووجدتني كغالبية الناس لديّ ذكريات عن الطفولة، وخاصة عن زملائي وأصدقائي سواء من كانت تجمعني بهم آصرة القربي وطول المكث والحل والترحال، أو من كانوا في حياتي عابرين، لكنهم كوميض البرق يضيء في حالك الظلمة، أو كنسيم الصبح الذي ينعش النفس والروح، لهم سمات براقة من فرط نورها تكاد تضيء، وقد رزقت بزميل هذا بهذا السمت وهذه الصفات، أجله وأحترمه لما أرى فيه من جمال الخصال وفرائد الطبع، فقد كان سمحًا نقيًا، عذب المحيّا، طيب الأخلاق كريمها، لين الطبع يشرف قلبه بالنور، فيه ملاحة وحسن القبول، ومن فرط تميزه كدت استثنيه من البشر، لكنه منهم. ما كان يلقاني إلاّ واحتفى بي وأكرمني مثلي مثل لداتي وأقراني وإن كنت أنا أزيد بالاحتفاء والمكرمة.

وهكذا في طفولة كل منّا مرّ فيها من كان يترك فينا أثرًا من طيب نفسه وجميل معاملته، والنفس تتوق للخير وهو كان منبت خير في سمته وحديثه وكل خصاله، وكان لدى كل منا ما يميزه، وهو أميز ما كان يمتاز به عن الجميع الإقبال والترحاب والابتسامة التي تشرق من وجهه كان ذلك الإقبال والترحاب والابتسامة أشرف مناقبه وخصاله، ولقد أحببته وأحبه الجميع لهذه السجايا الجليلة وهذا الطبع الكريم الأنيق الفريد.

هكذا كان طبعه، وهكذا كنا نراه، لذلك ظل كالعطر قابعًا فينا، طال قصر المقام، أو طال الترحال، فالأثر الجميل كشذى العطر يظل قابعًا فينا ويزداد عبقًا وجمالًا مع توالي الأيام وتداول السنين.

ولأنها سنة الحياة، أفترق جمع الطفولة، توزعتهم السبل، كل سلك دربه وكل هام يبحث عن غايته، لكن ولأن الحياة كالدائرة ومهما طال الأمد فاللقاء حتمًا سيكون طالما كانت الحياة تدب في الأوصال، رأيت زميلي هذا، وقبل أن أتوجه إليه للسلام عليه استحضرت كل مناقبه وخصاله

وتراقص قلبي فرحًا، وهفت روحي للفطرة والبراءة، واشتعل الوجدان بالحنين إلى الأصل وإلى الوجود، وتداولت على ذاكرتي صور الأماكن والأشخاص عبقت نفسي وروحي، وحثثت الخطى مقبلًا عليه إقبال الظامئ للماء العذب الزلال، فأعطاني يده فلم أشعر ببرودتها، لأن حديثه كان أبرد منها، حياني بتحية موظف السجل المدني في زحمة المدارس وقد أنهكته طلبات الناس! لقد وجدت شمسًا مظلمة باردة لا نور لها ولا دفء!، تفرست في ملامحه لقد انطفأ البريق اللامع في عيونه، شعرت بوقدة الاكتئاب التي كانت تستغرقني كلما مررت بأحد الشوارع الرطبة المظلمة.

لقد تجرعت إحساس الطفل الصغير الذي عنفه مدرسه أمام الجمع من زملائه، ليس لأنه لم يجاوب عن أسئلته، بل لأنه لم يدفع المصروفات!

نكصت على عقبي وخطوت خطوات متثاقلة أحمل الخزي والخيبة، لم يحتف بي كما كان يفعل، وكانت الخيبة والحسرة أشد عندما انحنى يتحدث مع أحد الوقوف بجانبه يستفسر منه عن سعر الدولار.

* * *

الحب الذي ولد في زمن الحرب
ومات في زمن السلام

يقول (يوهان جوته) «الحب الحقيقي لا البعد يقدر عليه ولا الزمن»

أجدني متفقًا مع ما قاله هذا الفيلسوف، وأضيف إليه «الحب الحقيقي لا البعد يقدر عليه ولا الزمن ولا الحرب» هذا إذا كان الحب حقيقيًا، ولكن ماذا إذا كان مشوبًا بالأنانية وحب التملك؟! لا شك كل الأحداث والظروف تقدر عليه، تذويه وتذبله وقد تقضي عليه وتنهيه، وهذا ما حدث في قصة الحب التي كان بطلها الكاتب الروائي الأمريكي الشهير (آرنست همنجواي)

فقد انقدحت شرارة هذا الحب في وسط الحرب، ومع نقع غبار الكر والفر ودوي المدافع نبض قلب همنجواي بالحب، وتأجج وجدانه بحرارة هذه العاطفة، ولم يحول بينه وبين الحب دوي المدافع ولا انفجار القذائف وتتطاير ألسنة اللهب وتناثر الشظايا من حوله، والتي أمطر بالكثير منها في جسده، فاستقر الكثير منها في ظهره وساقه اليسرى، ولم يقتصر الأمر على الشظايا، فقد استقرت إحدى الرصاصات في ركبته، وعلى إثر ذلك تم نقله إلى المستشفى ليتم إسعافه، وفي قلب المستشفى ظل همنجواي مدفوعًا بمعاني الحب من خلال صحبته لرواية «قلب الظلام» للكاتب (جوزيف كونراد): «تلك الرواية التي كانت تلخص رؤيته للحياة والمتمثلة في الإخلاص المدقق لحقيقة أحاسيسنا العاطفية»

وفي المستشفى تتوهج هذه الرؤية وتتجسد واقعًا حيًا، فيجد من يزيد نبض قلبه ويشعل وجدانه بتلك العاطفة النبيلة، إنها الممرضة التي تداويه والتي ألهمته ليخط أول رواية له، فيكتب عن الحرب وعن أحداثها وما يدور فيها، وما تنطوي عليه قلوب المحاربين من أحاسيس ومشاعر، وقد جسّد فيها حبه لهذه الممرضة، التي قالت له عقب فراغها من قراءتها «إنك خالي الفكر.. الموت يطاردنا في كل لحظة وأنت تكتب قصصًا عن الحب»

رد عليها همنجواي قائلًا «لم تسلبني الحرب سعادتي لقناعتي أن الحياة نفسها تراجيديا ونهايتها واحدة.. لكني أدرك أنه بإمكان الإنسان اختلاق شيء ما، والإبداع بما يكفي من المصداقية كفيل بأن يجعلك سعيدًا لدى قراءته»

أحب همنجواي الممرضة (آنيس) ورغم أنها تكبره بتسع سنوات أقبل على طلب الزواج منها، لكنها ألحت عليه أن يعاود التفكير في فارق السن بينهما، لكنه أصر على طلبه، وتمر الأيام وتنتقل آنيس إلى مستشفى أخرى، فيتواصل معها همنجواي من خلال الرسائل، وبادلته التواصل، وطال غيابها، فبعث إليها همنجواي برسالة زيّلها بقوله «بسبب غيابك لا أعرف ما الذي سيحدث لاحقًا؟!»

وظلت المراسلات إلى أن توقفت آنيس عن المراسلة، وبعد مدة أرسلت رسالة تقول فيها «إني أحبك بل أعشقك، لكني أخاف عليك، ولن نستطيع الزواج نظرًا لفارق العمر بيننا»

كان حب آنيس ينطوي على الإخلاص، فقد أرادت لهمنجواي حياة أفضل مع زوجة أصغر، لكنه لم يعي هذا الإخلاص ولم يستوعبه، فكانت غريزة التملك تستبد به وذهب إلى آنيس مدفوعًا بهذه الغريزة، وبرصاصة تخترق رأس آنيس أسدل همنجواي الستار على قصة هذا الحب، لم تستطع الحرب ولا دانات المدافع ولا قنص الطائرات أن تنهي هذه القصة وأنهتها رصاصة همنجواي في زمن السلام.

ظل همنجواي بعد هذه الواقعة يعاني كثيرًا، وإن كان أفلت من العقاب على هذه الحادثة، لكنه لم يفلت من عقاب ضميره وهو عقاب أشد وأعنف فظل يعاني من الحزن والألم طوال عمره، حتى جاءت اللحظة التي أراحته من عذابات وتأنيب ضميره، فأطلق رصاصة على رأسه، وكأنه يقول لأنيس سوف اتجرع نفس الكأس وأجابه نفس المصير.

ولقد كشفت رسالته التي وجدت بجوار جثته ما كان يعانيه من حزن وما يكابده من ألم، هذه الرسالة التي كتب فيها يقول:

«لم أعد أحتمل أنها تلاحقني ليل نهار في عينيها الجميلتين نظرة عتاب مروعة. لم تكن خائفة مني.. كم كنت نذلًا. لم أكن أقصد يا آنيس. أنت تعرفين أنني لم أكن أقصد أن تنتهي حياتك بهذا الشكل المروع»

قضى همنجواي على حبه لأنه لم يجعل هذا الحب غاية في ذاته، بل وصمه بالتملك والأنانية، لم يستوعب معنى الحب الحقيقي وأنه ينطوي على التضحية ونكران الذات، لم يتعرف على معناه الحقيقي ولم يتعرف على مضمونه، وأنه التضحية والشفقة والرحمة، وأنه لطيفة ربانية ترتقي بصاحبها مراقي السمو والجمال، فيبتعد عن كل سوء، ويتجرد من كل ضغينة، لا تملك ولا صراعات وإنما الصفاء والنقاء والسمو.

لقد سيطرت على همنجواي آفة التملك وداء الأنا، ربما أحب همنجواي أنيس، لكنه صادر على هذا الحب، صادر على حسنه وجماله وبهائه ونقائه وشفافيته، لذلك كان عاطفة همنجواي لا ترقى لمعنى الحب الحقيقي هذا الحب المجرد من كل العلائق والمصالح والأنا وحب التملك، فالحب الحقيقي في كل الأوقات والأزمان والعصور لا يكون أبدًا صنو التملك ولا ظهيرًا للأنا، فالحب تضحية ونكران ذات وإخلاص لمن نحب، لذلك عندما فطن همنجواي لذلك ما فتأ يؤنب ضميره ويجلد ذاته، ولم يستقر له بال ولم يغمض له جفن طوال حياته التي عاشها بعد آنيس حتى أنهى هذه المأساة برصاصة في رأسه، وكما أنهى على حبه في زمن السلام، أنهى على حياته أيضًا، والتي لم تستطع دانات المدافع ولا شظايا القنابل أن تقضي عليهما في زمن الحرب.

* * *

أسطورة العلم والإيمان يسأل، لماذا خلقنا الله؟

ما خلوت بنفسي إلاّ وألزمتني أن أتريض في جنته الغنّاء الغيّداء المُترعة بالغالي والنفيس، فكتبه ومؤلفاته وتسجيلاته التلفزيونية جنة فيها من الحب والإيمان والعلم والمعرفة ما يجعل الإنسان راقي النفس والروح مجلو الضمير، باسق الفكر، عالي الهمة، مذخورًا بالعطاء والجود.

ولطالما كانت روح هذا الفيلسوف ثاويه معي في كل حرفٍ قرأته له وكل خاطرة تلقيتها منه تجسدت في نفسي حياة.

فما أجمل نغمة صوته الخالية من الكبر والصلف، المكسوة بالإيمان والوجل، وما أجمل إنسانيته السابحة في الملكوت، والتي ظلت تبحث عن الحب والحق والجمال.

ولطالما تجشمت نفسه الصعاب، وعانت روحه رحلة البحث عن الحقيقة

وأكبر ظني أنه توصل إليها، بسمو ذاته وتجاوزها، فكان مبدعًا في إنكار هذه الذات، مبدعًا في الرفعة بها، هذا الإنكار وهذه الرفعة نجما عن علمٍ وإيمان.

فالدكتور مصطفى محمود، أمعن في محاربة المادية بالإيمان، وأفرغ وسعه وطاقته في ذلك ما أمكن له، ففند حجج مؤيديها، والمنتصرين لها، ودحض أفكارهم بفكرٍ راقٍ، وتنظيرٍ واعٍ، ولغة سهلة طيعة، بعيدة عن التقعر والإسهاب والإطناب، لغةٌ تسر منٍ يطالعها، وتجعله يغوص في قراءة ما وراءها.

وأكبر ظني أن النزعة الصوفية الماتحة من الفطرة والدين، كان لها أكبر الأثر في بلورة شخصيته الإنسانية الراقية، وانعكاسها على فكره وأدبه ولغته وأسلوبه، ولا سيما بعد ما أن طرق كل أبواب المذاهب والأفكار والمعتقدات، وبعد أن سبر غورها، وخبر مفرداتها وكنهها

ومضمونها وسبح في لجة التاريخ، وتقلب في تداولاته، ونهل من معين من مروا فيه، وتناول تصوراتهم بالدراسة والتحليل، وربط الماضي بالحاضر وتبنى العلم وربطه بالإيمان.

إن نيفًا وثلاثين عامًا، وأكثر من ثمانين كتابًا، واربعمائة حلقة تليفزيونية، هي رحلة بحث دائب عن الحقيقة للطبيب والفيلسوف والأديب والعالم الدكتور: مصطفى محمود.

وأرى أن هذا الفيلسوف كان صحاب مشروع فكري حياتي تناوله من زوايا متعددة الروافد والقنوات، لكن الأساس والقاعدة في عقدي لرحلة حياته الفكرية والتأملية، تدور حول معرفة الخالق، معرفة الله سبحانه وتعالى.

فلقد سخر فكره وقلمه ووجدانه وحياته كلها لعبادة الله، وأرى أن مشروعه الفكري كله كان إجابة عن السؤال السرمدي الأبدي، والذي سيظل يُسأل ما تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، وهو، لماذا خلقنا الله؟

فالإنسان بطبعه دائم البحث والتنقيب عن وجوده وماهيته منذ أن خلقه الله، ومنذ أن أبصر الحياة، لماذا خلقني الله؟ ولماذا أنا هنا؟

ربما يظن البعض أن هذا السؤال حكرًا على الفلاسفة دون غيرهم من الناس، لكن الحقيقة أنه يُطرح من أغلب الناس، لكن بنسب متفاوتة، ربما كهمس الخاطر عند البعض، وربما كلمح البصر عند البعض الآخر وقلة قليلة هم من يشغلهم هذا السؤال على الدوام، ويحتل مساحة التفكير وحيز القلب والروح والوجدان.

والدكتور مصطفى محمود كان من هذه القلة، واجتهد حياته كلها، وتجشم وعانى وكابد، كي يجيب عن السؤال، الذي يخيل للبعض أنه سؤالاً سهلاً طيعًا، ولا يحتاج، إلى بحث وتأمل وإمعان وكدح، ربما تكون الإجابة عنه سهلة بمفهوم الإجابة العابرة، التي لا تستأهل مجهودًا ولا عملاً، لكن أن تكون هناك إجابة مشفوعة بعملٍ وتدبرٍ وتأملٍ، أكاد أجزم أنها قليلة، بل نادرة جدًا جدًا، كندرة الماس في الصحراء، لأن

الأمر شاق وعسير على أغلبنا، ولا سيما أن السواد الأعظم من الناس يترك قياده لهواه، ويستسلم لنفسه التي ترسي به في المرفأ الذي تختاره، وإن كان فيه هلاكه، هذا الصنف لا يفكر في السؤال، وإن عرض له، فلسوف تكون إجابتهم عابرة لا تجاوز حناجرهم، لأن مثل هؤلاء، تجردوا من كل ما يعينهم، ويكون لهم سندً في الإجابة الحقيقية الواعية الشافية.

وأرى أنهم كانوا يستطيعون الإجابة إذا تخلوا عن هواهم، وأعملوا التدبر والتأمل والاجتهاد.

نعم، كانوا سيجيبون إجابة واعية شافية، مصحوبة بعمل يساعدهم على أن يكون لديهم القدرة على اختيار مرفأ النجاة، كي يرسون عليه.

والرسو على مرفأ النجاة، يتطلب تحقيق الهدف المنشود، والذي من أجله خُلقت الدنيا وخلق الإنسان وهو عبادة الله

وعبادة الله لن تتحقق إلاّ بعد معرفته، لأن معرفة الله هي أنجع وسيلة لعبادة الله، فقصة الخلق كلها هي من أجل العبادة، فالإنسان لم يُخلق عبثًا.

قال تعالى □ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥□ □المُؤۡمِنُون:□□□□

فالإنسان لم يخلق عبثًا، بل من أجل مهمة أوكلت إليه، وهدفٍ ينبغي عليه أن يحققه، وهي عبادته عزّ وجلّ، وعبادة الله تستلزم معرفته، لأن معرفته، هي من ستطلعنا جوده وكرمه وفضله علينا، وتجعلنا نتعرف على عطائه العظيم والمستمر، وأكبر عطاء من الله للإنسان، هو تكرمه عليه بأن خلقه وأوجده، بعد أن كان عدمًا.

قال تعالي □هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا١□ □الإنسَان : □□

وبذلك فالحياة الدنيا هي امتحان للناس، يتفاضلون فيها، كل على حسب درجته التي يتحصل عليها، فالاستحقاق يكون بحجم رتبة العبودية لله.

يقول تعالى ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [المُلْك : ١ - ٢]

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وكرمه وميزه عن سائر مخلوقاته، وفضله عليهم، بأن أودع فيه عقل يميزه عنهم، ويستطيع من خلاله أن يحدد مصيره.

والحياة والموت اختبارًا له، والاختبار يكون بالخير والشر.

يقول تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأَنبِيَاء : ٣٥]

فالله عز وجل، يختبر طاعة الإنسان، ومدى استجابته له، وانصياعه لاتباع أوامره، والكف عن نواهيه في جميع شؤون الحياة، وفي هذا تتجلى علاقة العبودية بين الإنسان وبين خالقه سبحانه وتعالى.

يقول الدكتور مصطفى محمود «في كل لحظة منذ ميلاد الإنسان حتى موته.. منذ يقظته في أو ساعات الصباح حتى دخوله في الفراش لينام وهو يتعرض لامتحان تلو امتحان»

«وفي كل اختبار يكشف عن نوعية نفسه وعن مرتبته ومنزلته دون أن يدري»

«وتتفاوت المراقي بين الناس، وتتفاوت المنازل، فالإنسانية درجات»

رحم الله الفيلسوف، كلمات توزن بمداد الذهب، نابعة من نفس عركتها التجارب، وروح أضناها البحث، حتى وصلت في أكبر ظننا للحقيقة المتمثلة، في أن الإنسان لم يخلق عبثًا وانه خلق لعبادة الله، واللبيب هو من يفهم ذلك، وهو الذي يستطيع أن يحدد مصيره بإرادته، إما أن يلج طريق الخير، أو يلج طريق الشر، فكلا الطريقين متاح، والإرادة هي التي تحدد لصاحبها أي الطريقين يسلك ويختار، فالإرادة هي مناط التخيير، وبها يتم التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والخير هو الحق، والشر هو الباطل، والشر يتمثل في الفتن والشهوات والشرور كلها صغيرها وكبيرها، والخير يتمثل في كبح الشهوات ودرأ الفتن، والنزوع إلى الفضيلة.

إذن الله خلقنا لعبادته، ومراده منا أن يختبرنا، ليعرف مدى حبنا له، فمن يعبده حبًا واختيارًا، فقد نجح في الاختبار، وأما من أعرض ونأى فقد فشل، وعليه أن يتحمل تبعة فشله.

ولن تتحقق العبودية الحقة لله إلاّ بمعرفته، يقول الدكتور مصطفى محمود «خلقنا الله لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه، وإذا عبدناه، تفاضلت عبادتنا، وتفاضل إيماننا وإنكارنا، وتفاضلت منازلنا، وبالتالي تفاضلت استحقاقاتنا حسب ما نتعرض له من امتحانات في الدنيا»

«لقد أخرجنا الله من العدم وكان كل منا حقيقة مكنونة، وأعطى كل منا اليد والقدم ليضر وينفع، فأما اللذين تحروا النفع والبر والخير فهم أهله ومأواهم إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله»

«وأما أهل الضرر والأذى والظلم فهم المبعدون عنه وعن رحمته، والبعد عن الله نار، لأن كل ما سوى الله نار، وعلامة أهل الله هي عرفانهم لربهم من قبل لقائه أن يعرفوه في هذه الدنيا»

لقد سأل عالمنا السؤال، وأظنه أجاب عنه إجابة تعدت الحروف، وتخطت ما ورائها، ونحن استلهمنا هذه الإجابة وتعايشنا معها، ببضعة حروف كتبناها، وخلصنا في نهايتها أن الغاية من خلق الله لنا، أنه يحبنا، وخلقنا ليسعدنا، ويتحقق ذلك بمعرفتنا له، وعبادتنا إياه، وأن كنه عبادته هي في معرفته والتقرب إليه.

والمعرفة لن تتحقق إلاّ بالتأمل والتدبر في الكون وفي النفس، وبالوصول إليهم، سوف نصل إلى الطريق المؤدي لحب الله وعبادته.

يقول تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الرُّوم : ٨]

ويقول تعالى ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فُصِّلَت : ٥٣]

إذن خلقنا الله لعبادته، ولن تستقيم عبادته إلاّ بعد معرفته، ولن تكون هناك مسعفة بدون أسباب من فكر وتأمل ومشقة واجتهاد وكدح.

وبعبادته تتفاوت المراقي بين الناس، وتتفاوت المنازل، وستظل الإنسانية درجات، وستظل الاستحقاقات تتفاوت على حسب ما يقدمه كل إنسانٍ من بذلٍ واجتهادٍ في هذه الحياة.

* * *

فلسفة نيتشه وقط الرافعي في مواجهة الألم.

لمدة عقد كامل من الزمان، ظل الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه)، مؤمنًا بأن الإنسان يتوجب عليه أن يعيش الحياة، وأن يتجنب ألامها وشرورها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ولن يتحقق هذا التجنب إلاّ من خلال نبذ مُتع الحياة والركون إلى الزهد والتقشف.

فالإنسان يتوجب عليه أن يتجنب الألم، لكي يعيش في سلام وهدوء.

وقد تبنى نيتشه هذه الفلسفة وأفرد لها ولائه الدائم لمدة عشر سنوات، دون أن يتأملها ويناقشها.

ولكن وفي لحظة تأملِ وتوقف مع النفس تبرأ نيتشه من فلسفته وتنكر لها، وكان السبب وراء هذا التبرؤ والتنكر، هو وقفة تأمل مع النفس، انعكست عليه، وأتت أكُلها، فتمخضت نفسه عن فكر ومعتقد جديد مضمونه «أن الحياة تتطلب منّا أن نواجه الألم لا لنتجنبه، فالألمُ شيءٌ طبيعيٌ لابد من وجوده، وإذا تجنبناه لكي نعيش فهي حياة جبانة منحرفة، لا نستطيع أن نفعل أي شيء ولا نحقق أي منجز»

نيتشه في لحظة تأمل بسيطة، عاشها بكل جوارحه، مطيعًا ومستسلمًا لهدأة نفسه، وصفاء روحه، وكانت النتيجة، التحرر من فكر ومعتقد لازمه سنوات طوال، والتخلص من آراء جنبته أن يعيش الحياة.

وأرى أن ما نحا إليه نيتشه في لحظته تلك هو عين الصواب، ففي عقدي أن الإنسان لكي يكون إنسانًا يجب أن يعيش لكي يولد، وليس أن يولد ليعيش، فلحظة ميلاد الإنسان الحقيقية هي عندما يعرف لمن يحيا، عندئذٍ سوف يعرف لا محالة كيف يحيا.

والبون شاسع بين من يعيش لكي يولد، وبين من ولد لكي يعيش! فالحياة ابتلاء واختبار، ولا تنفك الاختبارات والابتلاءات فيها تهدر على رؤوس الناس وحياتهم كالأمواج المتلاطمة تحمل عذابات وآلام، وأن

الذكي الفطن هو من يجابه هذه الأمواج الهادرة والعاتية من خلال رصدها، والتصدي لها، من خلال بث طاقة الحب والأمل والعمل، والإيمان بأن الحياة مستمرة ما نبض القلب وأشرقت الشمس، فيسعى ويجد ويجتهد ويكدح، ويتطلع إلى الأفضل، لا يستكين ولا يتخاذل، لا يرضى بالهوان، لا يؤثر الدعة والسلامة، على السعي والكدح وما يصاحبهما من مشقة وألم.

فبالرغم أن القط الهزيل انكسرت نفسه عندما أبصر هذا القط السمين المدلل، وراح يتأمله وهو يتخلع كتخلع الأسد في مشيته، وعليه أثر النعمة انبسطت عليه من كل جانب، فالعناية به والاهتمام جعلته صورة مختزلة من أسد، وما يكاد يراه الهزيل حتى تألمت له نفسه، ولا سيما انه طاوي البطن ضامرها، بارز العظام، متيبس الجلد والإهاب، وقد عابه القط السمين عندما رآه، وانتقده ايما انتقاد، وانتقص من قدره، وعاب عليه وضعه وشكله، بل حياته كلها، فيقول له «ماذا بك، ومالي أراك متيبسًا كالميت في قبره غير أنك لم تمت، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي» وبالغ في التأنيب والتعيير والانتقاص قائلًا: «أوليس الهر صورة مختزلة من الأسد، فمالك _ ويحك رجعت صورة مختزلة من الهر!»

دافع الهزيل عن نفسه، وقال له: «إن جسمك جسم أسد لكن سكنت فيه روح الحمار، انت تعيش حياة رغدة هانئة، تقضي يومك تلطع جلدك ماسحًا وغاسلاً، وتتطرح على الوسائد والطنافس نائمًا ومتمددًا، أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معًا، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، وأحكمت طبعًا ونقضت طباعًا، وربحت شبعًا وخسرت لذة»

لقد عاش القط السمين متجنبًا الألم، رافلاً في المتعة، لكنه افتقد الحياة الحقيقية، الحياة التي تجعله يواجه الألم ليخلق منه الأمل، وعندما يتحقق له ما يريد، فهذه هي المتعة الحقيقية كما يقول الرافعي «أن المحنة في العيش هي فكرة وقوة، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة، وأن لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب، وسعار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعامًا آخر من الروح»

الإنسان الذي يعيش الحياة لكي يشعر بوجوده لا بمجرد تواجده؛ لزامًا عليه أن يكابد الالام والمشقات، والكدح، وأن يتغلب على هذه المكابدات والألآم بالأمل والعمل والاجتهاد والتطلع للأفضل.

والإنسان الذي تكون هذه صفاته؛ يكون حرًا، فالألم ومواجهته وتطويعه لاستخراج الأمل من عتمته هي الحرية الحقيقية والسعادة السامية.

فقط السمين رغم رغد العيش، والمتع والملذات هو عبد، لأنه افتقد مواجهة الألم، وافتقد لتعركات الحياة، وافتقد لفطرته، وقتل غريزته المتمثلة في الوثب والكر والفر، ومعايشة الحياة بآلامها ومشقاتها، أما الهزيل فرغم الضيق والانحسار، ورغم شظف العيش وصعوبة الحياة، إلا أنه طليقا حرا يعيش الحياة بإرادته هو واختياره، لا يملي عليه أحد ماذا يفعل، وما يتوجب عليه أن يكون، يمارس حياته بفطرته بغريزته، يجد لذته ومنفعته في تحقيق هدفه لا يخشى القيود ولا يتحرك بأمر ولا بإشارة.

يقول الدكتور مصطفى محمود «الحرية مع الألم أكرم للإنسان من العبودية مع السعادة»

حقًا هي كذلك، وكانت تغيير فلسفة نيتشه من أجل هذه الحرية، أراد في لحظته الحياة، وكانت لحظة ميلاده الحقيقية، فلم يعش في الحياة مجرد رقم في خانة المواليد، ولم يكن كزبد البحر، لم تحفل به الدنيا ولا التاريخ، ومثل نتشه كثر، فكل مبدع أو عظيم عانى وتألم، خاض غمار الحياة، واقضت مضاجعه مشاكلها وقلاقلها، وذابت جفونه من دموع اليأس والإخفاق والفشل، وأورقت روحه من دموع الفرح والتطلع والنجاح

أنه مزيج بين المتضادات عاشها كل مبدع لكي يكون له وجود، فأحس مرارة اليأس، وتذوق شهد النجاح، ونخر جنبيه القلق، لكي ينعم بالهدوء والاستقرار، حفته لحظات الانكسار والذل، وتوج بأكاليل العزة والنصر.. فالحياة حرب فيها الكر والفر، والمتضادات فيها سجال.

لقد اتخذ نيتشه قرارًا صعبًا وجريئًا وحكيمًا في لحظة تأمل ومكاشفة ومصارحة، غيرّ فيها فلسفته القديمة ووراها التراب، وأشعل جذوة عقله وفكره وإنسانيته، مصرحًا بأنه لكي نعيش الحياة، ويكون لنا فيها وجودًا، ونحقق ما نروم إليه حتمًا مقضيًا لابد أن نواجه الألم.

* * *

المارقون والأشرار ينشدون السعادة

السعادة هي شعور يُضفي على النفس الراحة ويملأها بالبهجة والسرور. هذا التعريف قمت بصياغته، وأعلم علم اليقين أن السعادة أمرٌ نسبي تختلف من إنسان إلى آخر، فهي متباينة كتباين واختلاف البشر، فمنهم من يراها في المال، ومنهم من يراها في السلطان والنفوذ، ومنهم من يراها في الجمال، ومنهم من يراها في المجد والشهرة، ومنهم من يراها في العزوة والولد، ومنهم من يراها في كل ما سبق.

وأنا هنا لست في معرض الاسترسال والإسهاب في مفهوم السعادة، وإن كنت أتوق إلى الكتابة عنها في غير موضع بالإسهاب والإلمام والإحاطة، ولا سيما أنها أصبحت أكثر تطلبًا في زمننا هذا، فلقد جعلتها الأوبئة وأمراض العصر عصية عن التناول، وخاصة مع وباء كورونا الذي حول العالم إلى سرادقات عزاء، فوسائل التواصل الاجتماعي وهي لغة التواصل في العالم الآن أصبحت أكبر سرادق عزاء لضحايا هذا الوباء الملعون.

السعادة على مر التاريخ ينشدها الجميع بلا استثناء، فيراها الصالحون والعابدون والناسكون والزاهدون والأتقياء في عمل الخير والزهد والعبادة والتقوى، ويراها العلماء والباحثون في مختبراتهم ونظرياتهم وما يرمون إليه من تطور وتقدم، ويراها البسطاء من الناس في عيش حياتهم بلا منغصات ولا حوائل تحول بينهم وبين العيش فيها، فأقصى أمانيهم أن يجدوا ما يسد رمقهم ويقيم أود أولادهم.

الطيبون والأخيار، والعلماء والعامة من الناس وخاصتهم ينشدون السعادة كل على حسب رؤيته ونظرته للحياة، الكل يرومها، حتى القتلة والسارقين يبحثون عن السعادة، وما إقدامهم على أعمالهم المشينة إلاّ بدافع أنهم يريدون السعادة، فكم من قاتل برر سلوكه بأنه ما قتل إلاّ لتحقيق آماله وطموحاته ليكون سعيدًا، وأول قصة قتل في التاريخ تُنبئنا عن ذلك، فقتل قابيل لأخيه هابيل كان بدافع التطلع للأفضل، فالإحساس بأنك الأفضل والمميز يجعلك سعيدًا، وظن قابيل أن تقبل قربان أخيه ورفض قربانه يعني أنه ليس الأفضل، وهذا يعني تعاسته وحزنه، فما كان منه إلاّ قتل أخيه لإزاحته من أمامه ويحظى هو بالتفضيل الذي يجعله سعيدًا.

ويسرد لنا التاريخ كم من قتلة وسافكي دماء عاثوا فسادًا في الأرض من أجل البحث عن السعادة، ونيرون ليس عن الأذهان ببعيد، فسعادته في ملكه وحكمه وتسلطه، وطالما أن ملكه في أمان، وأن الكل يدين له ويطيع فهو سعيد، لكن إذا ما حاول أحد أن يمس ملكه أو يأخذه منه فهو يعني النيل من سعادته، لذلك لم يتردد نيرون في قتل أمه عندما نمي إلى علمه ما تحيكه من مؤامرات للاستيلاء على ملكه لم يتردد في قتل أمه واستلابها حياتها من أجل سعادته المتمثّلة في حب التملك، وقام أيضًا بحرق روما وهي جريمة لا تقل بشاعة عن قتل أمه، فالملك ملكه ومن أجله يفعل ما يشاء ولو على حساب حرق رعيته، فهم الجحيم، وهم من يحاولون سلب سعادته، ومن أجلها يحرق روما ويحرق من يعيش فيها.

وسبق نيرون الكثيرون ممن قتلوا من أجل السعادة وتبعه كثر واستمرأوا القتل والتنكيل بضحاياهم بدافع الحفاظ على الملك، أو المال، أو المجد، أو الشهرة وهي في عقدهم أسباب لسعادتهم.

وهناك من يسرق من أجل السعادة، فيبرر ذلك بأن الفقر والعوز فيهما البؤس والعار، فيقدم على السرقة من أجل المال لأن فيه السعادة.

والسرقة واحدة وتختلف مسمياتها، فهناك من يسرق آمال وطموحات غيره وينسبها إليه ظنًا منه أن هذه الآمال والطموحات هو الأحق بها وهو الأهل لها، ولم تقتصر السرقة على المال والآمال والطموحات فحسب، فهناك من يسرقون الأوطان ويحتكرونها ويرمون بذلك سعادة الخلود والديمومة والذكر.

وهناك من يسرقون المشاعر والعقائد والحريات بهدف تجريد أصحابها منها ليملوا عليهم ما يريدون لأن في إذعانهم وخضوعهم لسلطتهم سعادة أخرى أكبر وأجلّ.

هؤلاء القتلة والسارقين أشقوا أنفسهم في البحث عن السعادة، فخيل إليهم أن سعادتهم توجد حيث خرق الناموس الطبيعي، والافتئات على أحقية غيرهم في أن يعيش الحياة، فهم في غي وضلال وما اختاروا إلاّ الشقاء والتعاسة، حتى لو خَيل لهم غير ذلك، فما هو إلاّ محض سراب.

لذلك كان الإنسان طبيعي أو مارق عن الناموس الطبيعي يبحث عن السعادة، لكنها لم تتحقق إلاّ لفئة قليلة جدًا هم من يرضون بقسمة الله، وأنه من قسّم وقدّر، وأنهم يدركون بأن الإنسان يتوجب عليه أن يسعى ويجتهد في هذه الدنيا ويأخذ بأسباب العيش فيها، ويصاحب هذا السعي والاجتهاد الرضا، فالرضا هو إكسير السعادة الحقيقية وهو السبيل المؤدي إليها، فكل نفس بشرية إذا أُلهمت الرضا تصير جميلة، ولجمالها يصبح كل شيء جميلًا، فالقليل يصبح كثيرًا، والمحدود يتناهى، والزهيد يكون ثمينًا، والمقيد ينطلق ويعتق.

فالرضا معناه الإيمان والتسليم بأن هذا الكون تحكمه سلطة عليا بيدها الأمر والنهي، وهي من بيدها مقاليد كل شيء.

والرضا هو عين السلام والمحبة، فاليقين بأن الله خلق الناس متساوون، وأن نظرية الدفع هي المرتكز الأساسي لدائرة الحياة، وأن المساواة حتمية بين البشر جميعًا وفِي الكيان الإنساني، ويأتي التفاضل في السعي والاجتهاد والتقوى والعمل الصالح.

لذلك فالسعادة نسبية، لكن عين موضوعيتها وحقيقتها ووجودها يكمن في الرضا الرافد من الحب المنبعث من نفس راضية متصالحة مع نفسها ومع غيرها ومع الله.

* * *

البؤس هو أن نعيش حياتنا
بين وهم الأمل وسراب الحنين

يقول عمر الخيام: يومان لا أعني بأمرهما.. «يوم تولى ويوم بعد لم يرد»

يتضح لنا من هذا القول أن عمر الخيام لا يلقي بالًا ولا يهتم بالماضي ولا يشغل باله بالمستقبل، فهو يهتم ويعيش الحاضر، ويفرغ فيه مجهوده ويبذل وسعه في أن يكون هو الأجمل، إيمانًا منه بأن التفكير في المستقبل يستنزف النفس والفكر والمجهود، كذلك التفكير في الماضي، يعني الانسحاب إلى الوراء واستنفاد الطاقة والمجهود في شيء أصبح في عداد الذكريات.

إن الإنسان المهموم بالماضي والرجوع إليه والتشبث بأحداثه والبكاء على أطلاله، هو إنسان سلبي لأنه بصنيعه هذا يتعدى على حاضره، بل يأخذ من نفسه لحساب ماض ولى ولن يعود، وهذا هو الشقاء بعينه، لأنه يظل سادرًا في أحداث الماضي سواء كانت هذه الأحداث سعيدة أم حزينة، فتعايشه مع هذه الأحداث، يجعله لا يلتفت إلى حاضره ولا يعيش فيه ومن ثم يجعله غريبًا عنه لا يؤت بجديد ولا يُقدم أي منجز.

كذلك من يكون كل همه هو المستقبل، فيعمل من أجله، ويأتي على نفسه وعلى حياته، ويدخر بعض مقوماته، ويستنفد البعض الآخر من أجل هذا المستقبل، فهو أيضًا بهذا الصنيع يفتئت على نفسه ويأتي عليها لصالح مستقبل لم يعرف عنه شيئًا، فالذي يدخر أمواله كلها خوفًا من المستقبل يحرم نفسه في حاضره، ويعيش رهين القلق وحبيس الاضطراب من أجل مستقبل لا يعلم عنه شيئًا، ويعيش حاضره بين القلق والخوف من مستقبل لم يحل بعد.

كذلك فإن البكاء على أطلال الماضي والذكريات يعيق التقدم في الحياة لأنه يرفض التغيير، لأن عقله ملقى في أروقة الماضي ووجدانه يحلق في سماواته، لذلك تجد من يكون هذا حاله يرفض ويشجب كل جديد معللًا أن هذا الجديد لا يتوافق مع ألفه في الماضي وعايشه وتربى عليه، وهو بذلك فضلًا على أنه لا يعيش حاضره، فإنه يدمر نفسه من

أجل ماض لم يعد موجودًا، أنه باختصار يصادر على التغيير والتجديد، الأمر الذي يشل فكره ووجدانه ويجعله لا يتقدم إلى الأمام، ويعيش محملًا بعداءً لحاضره الذي لا يعيشه حقيقة، وإن كان يعيشه مجازًا فيحرم نفسه من إحراز أي تقدم لأنه يفتقد النمو والإبداع.

ونفس المنطق ينطبق على من يترك حاضره من أجل مستقبل لم يحل بعد ما أقوله ليس معناه أن نترك الماضي كلية أو نعرض عن المستقبل ولا نوليه الاهتمام، ولكن يتوجب علينا أن نأخذ من الماضي العبرة وأن نستعين بما وقع فيه من أجل الحاضر، لا نتخذه هو الهدف والأساس، وكذلك المستقبل نستلهمه في ضوء الحاضر، ولا نتخذ الحاضر متكئًا للمستقبل، فنهمل الحاضر من أجله.

إن من يعيش حاضره يرفل في الماضي ولا يفكر إلاّ فيه، ومن يعيش حاضره لا يضع نصب عينه إلاّ المستقبل، يعيش جل حياته يعاني القلق والخوف والاضطراب والشقاء، ويصبح الإنسان سجين الماضي والمهموم بالمستقبل فريسة سهلة القنص لأصحاب الأيدولوجيات التي تهيمن وتسيطر عليه عبر التحكم في آرائه وانفعالاته ورغباته وذلك بإعمال وتفعيل وهم الحنين، وكذلك اجتثاث قدرة الموهوم بالمستقبل على أن يعيش حياته بفرح وسعادة. يقول الكاتب (سعيد ناشيد) في كتابه «الوجود والعزاء... الفلسفة في مواجهة خيبات الأمل»:

«ليس الأمل سوى نوع من الأوهام التي قد توظفها بعض الأيدولوجيات الغائية لأجل السيطرة على الناس عبر التحكم في آرائهم وانفعالاتهم ورغباتهم؛ كما أن الحنين ليس سوى فخ حزين قد تستثمره بعض الأيدولوجيات الأصولية لأجل شل قدرة الناس على الحياة والفرح والإبداع»

«إجمالًا، فقد ألفنا نحن البشر أن نمضي شبابنا في شقاء الأمل، وبعد ذلك نمضي شيخوختنا في شقاء الحنين، وبين الأمل والحنين يكمن شقاء الوضع البشري»

الملائكة هي من تمنح الأمل

أكثر الناس ملائكية من يمنح الأمل لغيره، ونفسه تضطرم باليأس والقنوط.

أنت كريمًا عندما تعطي، لكن توصيف كرمك وكونه خلة وطبعًا وسجية فيك، يتوقف على حالتك في اليسر والعسر، في الغنى والفقر، في الضيق والاتساع، في الحلم والغضب، في الحرب والسلام.

فأنت كريمًا بلا شك إذا أعطيت المحتاجين من الفقراء والمساكين وكان لديك من الأموال ما أغدق الله بها عليك، لكن كرمك الحقيقي يظهر عندما تملك القليل، أو لا تملك شيئًا، فإذا أعطيت رغم حالتك هذه فأنت الكريم حقًا سجية وطبعًا وخصالًا.

كذلك من قلبت له الدنيا ظهر المجن، وتنكب له الدهر فأذاقه البؤس والحرمان، ومع ذلك الشقاء وتلك التعاسة يبتسم في وجوه الناس لا يعبس ولا يضجر، بل يمنحهم الابتسامة والأمل فهو إنسان عظيم لأنه برغم الألم منح الأمل، وبرغم التعاسة لا يفتأ يرسم الابتسامة.

والأم هي المثال الذي يجسد هذه المعاني، فكم من أم عظيمه نكبها الدهر وعاداها الزمن، لكنها ورغم الصعاب تظل تغدق بكرمها على عيالها، تحرم نفسها من اجل إشباعهم، وتنقص من حظها من أجل حظهم، تداري عنهم المعاناة والألم من أجل أن ترسم على شفاههم ابتسامة الحياة.

وغير الأم يقدم على فعل ذلك كل من يحمل لقب إنسان، سواء كان حبيب يخلص لحبيبه، أو صديق يوفي لصديقه، أو إنسان تعرف على معنى إنسانيته فراح يردد المعنى ويتعلمه ويفهمه حتى يلزمه ويتلبس به ويتشرب به ويجسده واقعًا حيًا في كل معاملاته.

الانتظارُ وهمٌ كبيرٌ، يُضيع منّا الفرص ويُحرمنا الوصول

ما أكثر الحالمين في هذه الحياة الذين خضبوا زمنهم بالحنين انتظارًا لأمل أو لفرح، فظلوا ينسجون من رداء أيامهم شراعًا للأمل، ومن وقتهم وجهدهم راحوا يبنون سفينة لهذا الشراع، مؤملين أن تمخر بهم السفينة في لجة ما يطمحون إليه ويأملونه وقد يظلون على دأبهم ونهجهم في النسج والبناء، وقد يتحقق لهم ما يريدون، وقد لا يتحقق، وفي الحالين الخسارة فادحة والنتائج وخيمة، فحال تحقق حلمهم، فقد أتى بعد خسارة وقت واستنزاف روح وفقدان شغف، وإذا لم يتحقق خسروا كل شيء ولم ينتابهم غير مرارة الانتظار.

في ظل هذا الانتظار قد نهمل فرصًا، وقد تضيع علينا أخرى، وسواء هذه أو تلك كانت كفيلة لو اغتنمناها لكان أفضل لنا وأكرم.

إن من يعيش من أجل الانتظار، تضيع عليه فرص عيش الحياة، فمن ينتظر أن يمر الوقت، يضيع عليه الوقت الذي بدده في الانتظار، ومن ينتظر أن يتغيّر الزمن، فهو واهم لأن الزمن لا يتغيّر فهو مجرد وعاء للأحداث التي نقوم بها ومن ثم يحرمنا من أن نعيش الحياة.

لذلك علينا أن لا نضيع الفرص من أجل وهم الانتظار، علينا أن نعيش الحياة لحظة بلحظة، وبكل معانيها، نصبر على مرها، ونتحمل آلامها، فلا معنى أن انتظر المال الكثير ليغير حياتي، ولا معنى لأن تنتظر الفتاة فتى أحلامها الذي تحلم بأن يردفها وراءه على الحصان الأبيض، وتظل حالمة تنتظر هذا الفارس، وتضيع عليها فرصًا للحب والاستقرار مع غيره، وربما كانت تجد في من رفضته انتظارًا لفارسها نفس مواصفات الفارس، لكنها فضلت وهم الانتظار والنتيجة هي ضياع الفرص وخسارة عيش الحياة، ومن ينتظر المنزل الكبير، والسيارة الفارهة، والمنصب الأنيق، قد يعيش حياته كلها في وهم الانتظار، ويفقد أن يعيش الحياة.

الأم العبقرية التي أضاءت الدنيا

إن التاريخ يحفل بكثيرات من النساء الأحرار اللاتي تسربلن بطبيعتهن الحقيقية وجسدوها رمزًا واقعيًا حيًا وملموسًا، وانطلقن من هذه الحرية الحقيقية يشكلن ملامح تفردهن كنساءٍ أحرار، خلقهن الله أحرارًا، ومن

رحم هذه الحرية ولدت إرادتهن الواعية المتبصرة، فكانت إرادتهن مستقلة في تقرير مصيرهن، بل تجاوزت ذلك إلى تقرير مصير أمم وشعوب.

وأراني سعيدًا لتناولي سيرة أم عبقرية استطاعت أن تبدد العتمة وتضيء الظلام بحبها وإخلاصها وثقتها في نفسها كامرأة وأم حرة أعدت للدنيا من يبدد عتمتها بالنور.

إنها (ماري أديسون) أم أشهر مخترع في التاريخ وهو (توماس أديسون) مخترع المصباح الكهرُبائي، ولهذه الأم الفضل في أن يخرج هذا الاختراع للدنيا، فهي من تلقفت ابنها من دركات السقوط في غياهب الفشل وارتقت به أعلى درجات النبوغ والمجد من خلال مساعدته وبث الثقة في نفسه، وزراعة الإيمان في وجدانه بأنها معلمته، ويلزم عليه أن يكدح ويناضل ويجتهد ليكافئها، ولقد زرعت فيه هذا الإيمان بعد أن أغلقت أبواب مدرسته في وجهه وتقطعت به السبل في أن يعود إليها، فلقد نعتوه معلموه بالغباء والضحالة، وأنه غير مؤهل للاستمرار في المدرسة وعزوا ذلك لإهماله وعدم اهتمامه بدروسه، وسرحانه وعدم إجابته عن أسئلتهم، وأنه لا يحتفل بالتعليم ولا يكترث له.

وبذكاء متقد وفكر راق وبحس متدفق بالعطاء والحنان، فتحت الأم العبقرية مدرستها، ووزعت كل الأدوار على نفسها، فبدأت بتعليمه وتشجيعه على المضي في التعليم، فعلمته القراءة والاطلاع وذادت عنه بكل عزم ومضاء وأولته الرعاية والاهتمام وزرعت فيه الإحساس بأنه أهم شخص في الحياة والوجود.

استجاب توماس لهذا الشعور، وراح يتحدى الصعاب، وعزم أن يكون جديرًا بثقتها وإيمانها، فانكب يقرأ ويطلع حتى قيل عنه أنه في سن الحادية عشرة كان قد أتم قراءة تاريخ اليونان والتاريخ الإنجليزي، وأنه درس الكتاب المقدس، ودرس أدب وليم آلان وشكسبير وفيكتور هوجو.

وواصل توماس مطالعته ومارس شغفه للاختراع والاكتشاف حتى ربت اختراعاته على الألف اختراع، منها التلغراف والجرامفون، وأشهرها على الإطلاق المصباح الكهرُبائي ولهذا الاختراع أسباب،

أهمها حبه لأمه، فمن أجلها فكر في اختراعه، فقد قيل أنها تعرضت لمرض شديد ونصح الطبيب بسرعة إجراء عملية جراحية، ولم يستطع الطبيب أن يجريها لقلة الضوء المتطلب لتلك العملية، فالليل وظلمته استغرقا الضوء القليل الخافت، وحال الظلام بين الطبيب وبين اجرائه للعملية، فانتظر للصباح حتى يتسنى لها اجرائها وهو الأمر الذي لم يحدث لأنها كانت قد فارقت الحياة.

تأثر توماس بهذه الواقعة وعملت في نفسه حزنًا شديدًا، وأصرّ أن يضيء الليل بأي طريقة، فراح يجري التجربة وراء التجربة لا يلوي على شيء إلا ما صمم عليه وعزم، وقد كان وبعد ما يربو على تسعين تجربة فاشلة، حالف أديسون التوفيق ونجح في اختراع المصباح الكهربائي، وأن يضيء للإنسانية عتمتها وغلسة لياليها.

إن ماري أديسون لم تجذع ولم تضطرب لما حدث لابنها، وإنما كانت امرأة عظيمة، وأم فاضلة بثت الثقة في ابنها، وزرعت في نفسه الحب والنضال، وجعلته يدرك الحب الحقيقي من خلال قيمة العطاء والبذل والإيثار، فآمن بنفسه والحياة، وتمخض عن هذا الايمان تحقيق هذا المنجز العظيم، وكان السبب وراء إنجازه

أم عبقرية علمت ابنها أن لا يستسلم، وأن الخطأ ليس معناه النهاية، وأنه يجب عليه أن لا يستسلم للسقوط، وأن يحاول مرة بعد مرة لينهض ويبدأ من جديد.

علمته أن لا يستسلم وغرست فيه فكرة المداومة على التكرار والتجربة، وأن المحاولة الواحدة لا تكفي، وأن الفشل في واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أكثر لا يعني النهاية.

جعلت منه صاحب عزيمة، أدرك بها أن السقوط ليس معناه النهاية، بل نستطيع أن نخلق منه بداية جديدة، إذا كان لدينا الرغبة في أن ننهض من جديد كي نؤسس ونعد لحياة أجمل وأفضل.

* * *

تنمية الذات هو استشراف للحضارة

عندما يهتم الإنسان بذاته ويتعهدها بالتقويم يرفع من شأنها ويجعلها ذاتًا سوية تتعايش مع نفسها بسلام ومع مجتمعها ومن ثم ينسحب هذا السلام على العالم كله.

والاهتمام بالذات يكون عن طريق تغذيتها ورفدها بكل المقومات التي تجعلها أكثر نضوجًا وأكثر رُقيًا.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف أعمل على تنمية هذه الذات وما هو السبيل إلى ذلك؟

في رأيي يكون ذلك من خلال معرفتها وفهمها، وأبلغ ما قيل في ذلك هو القول المأثور عن الفيلسوف اليوناني (سقراط) الذي قال «اعرف نفسك بنفسك» وهو القول الذي قاله إجابة عن سؤال ما هو ملخص الوصايا الفلسفية؟ فقد أجاب بهذه المقولة البسيطة لإيمانه أن معرفة الإنسان لذاته تعني فهمه للحياة وذلك من خلال إدراك احتياجاته وواقعه المعيشي، ومن ثم يسهل عليه أن يعيش هذه الحياة.

وكل إنسان في هذه الحياة إن له ذات مستقلة به ومختلفة عن غيره، هذه الذات لها ما يناسبها، وليس بالضرورة ما يناسب غيرها أن يكون مناسبًا لها، فكل إنسان يولد في بيئة مختلفة، ويتلقى تعليمًا مختلفًا، ويعيش في مكان مختلف وبين أُناس مختلفين، ويمارس عادات وتقاليد عائلية ومجتمعية تلقاها خلال سنى عمره، ومن ثم عليه أن يوازن بين العادات والتقاليد التي توارثها، والمفاهيم والمعارف التي اكتسبها، وما يتأثر به من علاقات إنسانية.

وفي ضوء ذلك يحاول أن يستخلص مبادئه الحياتية التي توافق الدين والشرع والفطرة السوية، وأرى أن الفطرة هي الرافد الأساسي لكل منابع التعليم، فالفطرة السوية تحض على الحب وتؤكد عليه، وتنفر من الكراهية وتستهجن البغض، فالفطرة نقية لا حقد فيها ولا ضغينة، تحث على الجمال وتنفر من كل شائه وقبيح، تروم الطموح والتطلع والإبداع وتزدري السلبية والانزواء والفشل.

لذلك يتوجب على الإنسان أن تكون مرجعيته فطرته فهي الأساس لكل فضيلة، وهي الركن الركين لكل قيمة خلقية وجمالية.

بناء على ما سبق فإن تعهد الإنسان بتنمية ذاته يستدعي منه أن يراعي الفوارق الذاتية بينه وبين غيره، فهناك اختلاف وتباين بين الناس في الذائقة والميول والتوجهات، فما ينفع إنسان لا ينفع غيره، ومع يتناسب مع البعض لا يلائم البعض الآخر، فالناس مختلفين في النشأة والولادة والبيئة والمناخ الاجتماعي، فمن المستحيل أن يكون جميع الناس متفقين في الميول والأذواق والتوجهات، يقول تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين»، لكن هناك قاسم مشترك بينهم جميعًا وهو الفطرة، فجوهر الفطرة واحد بين جميع البشر، والفطرة تعني هي الحالة التي يكون عليها الإنسان عند ولادته قبل دخول المؤثرات الخارجية عليه، وهذا ما أكده الموروث الإسلامي من أن كل مولود يولد على الفطرة من هذا المنطلق، يستطيع كل إنسان إذا تعهد نفسه وعرفها وقام بتنميتها أن يحاكي فطرته السوية، فالتأديب والتثقيف والتعليم والتدبر والتفكر تعمل كلها على تنمية الذات ورفدها بقيم الجمال والنقاء والمحبة والسلام وعندما تنمى الذات ينعكس هذا النمو على محيطها المجتمعي، ومن ثم على العالم أجمع والإنسانية قاطبة.

وبمفهوم المخالفة إذا لم يقم الإنسان بتعهد ذاته بتنميتها، فسوف ينعكس ذلك على نفسه وعلى مجتمعه، بل وعلى الحضارة كلها التي لا تفيد منه، بل يكون عليها عبئًا ثقيلًا.

خلاصة القول وزبدته، يتوجب علينا أن نعرف أنفسنا وننميها من خلال تعهدها بالتربية ورفدها بقيم الجمال والمحبة لا من أجلنا ولا من أجل مجتمعنا فحسب بل من أجل الإنسانية والمساهمة في بناء الحضارة.

إن في البيان لسحرًا

روي أن هناك شابًا غنيًا كان لديه أصدقاء كثر، يلتفون حوله ويقصدون منزله ويعظمونه نظرًا لثرائه وغناه، وفي الغالب النفس تتوق إلى من عنده المال، وقيل في ذلك: «أرى الناس قد مالوا لمن عنده مال، ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا، أرى الناس منفضة إلى من عنده فضة،

ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة، أرى الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب، ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا!»

وصاحبنا هذا الغني، كان هناك من بين أصحابه ومن يسامرونه ويترددون عليه شابًا يجله ويحترمه لشخصه وليس لغناه وثرائه، وكان هذا ظاهرًا لكليهما.

وتمر الأيام على هذه الحال من الوفاق، لكنه لم يدم طويلًا، فنوائب الدهر تحيط بهذا الشاب الغني، وما بين عشية وضحاها ينال الفقر منه، فتسوء حالته ويغتم لذلك كثيرًا، ويقرر الرحيل عن بلدته كلها غير مودع لأحد، ويختفي عن الأنظار والأسماع إلى ما شاء الله، ويعود بعد غياب، ولم يضف له غيابه إلاّ فقرًا على فقر، وما أقسى السلب بعد العطاء والفقر بعد الغنى، والضيق بعد الرحابة والسعة.

يعود صاحبنا فقيرًا معوزًا، وفي ظل حزنه وفقره يومض له بريق أمل يجعل قلبه يتهلل بالفرحة، فقد نمي إلى علمه أن صاحبه الذي كان يجله ويحترمه لشخصه، قد أنعم الله عليه وأصبح غنيًا، ويقرر صاحبنا أن يذهب إليه مفعمًا بالأمل لعلمه بمكانته عنده، وعندما وصل إلى بابه راح يطرقه فرحًا مغتبطًا، فيوقفه حراس القصر، مستخبرين عنه وماذا يريد. فيخبرهم أن زفوا البشرى لصاحب القصر أن صديقًا له وسمى نفسه على بابك يريد مقابلتك، قالها وارتسمت على ملامحه سيماء الثقة بأنه سوف يغنم بمقابلة صاحبه، إلاّ أنه سرعان ما تبددت هذه الثقة، عندما أخبره الحراس أن صاحب القصر لا يعرفه، ولا يريد أن يقابل أحدًا، لم يصدق في بادئ الأمر، وأوعز إليهم أن يتأكدوا وألح عليهم وأسرف في الإلحاح أن يتأكدوا، لكنهم أصروا على رأيهم، وطالبوه بالابتعاد عن القصر، فما كان منه إلاّ النكوص على عقبيه والرجوع إلى الوراء يجر أذيال الخيبة، وطعنة التجاهل توغر في صدره.

حاول أن يلملم شتات نفسه، بيد أن الصدمة لا تزال تزلزل كيانه.

مشى لا يلوى على شيء تجثم على صدره الهموم والأحزان، ويعض على يديه من الخزي الذي ذاقه والتجاهل الذي عصف به، وإذ به وهو في هذه الحالة يرى ثلاثة رجال ينظرون إليه ويتهامسون، في بادئ

الأمر لم يكترث لهذه النظرات، لكن تماديهم وإسرافهم في النظر إليه جعله يقبل عليهم مدفوعًا بالغضب والاستياء ثم قال لهم: ما بالكم تحدقون فيّ هكذا؟!

ولم تهامسكم ونجواكم؟!

قالوا له: نسأل عن فلان ابن فلان، فأخذته الدهشة للحظة، لكنه سرعان ما أخبرهم بأنه هو من يسألون عنه.

قالوا له: إن أباك منذ أعوام طوال أعطانا هذا المرجان وديعة إلاّ أننا سافرنا بعيدًا وافتقدناه، ولم نسمع عنه خبرًا، فبعدت بيننا وبينه المسافات ودهمتنا الحياة، ولم نستطع أن نرد له وديعته، وشاء الله الآن أن نأتي ونستدل عليك لكي نرد لك الوديعة، ثم أعطوه المرجان وانصرفوا.

تركوه حائرًا يتساءل، ما عساي أن أفعل بهذا المرجان؟! وكيف أبيعه؟!

والبلدة كلها لا يوجد فيها من هو أقدر من صاحبي على شرائه!

لقد كانت تأبى نفسه أن تعود لمن تنكر له وأوصد دونه بابه، وإذ به وهو غارق في هذا التفكير يطل عليه موكب فخم تتوسطه امرأة تعتلي هودجًا عليها أثر النعمة، وأقبلت عليه تقول: ألا تدلنا على أحد يكون لديه مرجانًا نريد أن نبتاعه منه.

لم يصدق ما سمع إلاّ بعد أن ابتاعت كل ما بحوزته من مرجان وأعطته الثمن نقودًا كثيرة، ثم ودعته ورحلت.

أخذ النقود وقلبه يلهج بالحمد لله، راضيًا فرحًا شاكرًا لأنعم الله عليه، لأنه ذاق ذل الفاقة بعد عز الغنى، وتجرع مرارة السلب بعد العطاء، وها هو ذا يعود لسيرته الأولى، فقد تاجر وربت تجارته ونمت، فازداد غناءً وثراءً وبعد أن صارت له الأمور لما هي عليه، أراد أن ينتصر لنفسه من صاحب غدر به وتنكر له، ولم يوف بحق صداقته، وجحد معروفه ولا سيما أن صاحبه كان يدعي احترامه وإجلاله لشخصه وليس لماله، إلاّ أنه رأى منه خلاف ذلك، ومن هنا قرر أن يشفي غليله، وأن يبدد غيظه، فبعث برسالة إلى صديقه كتب فيها:

صحبت قومًا لئامًا لا وفاء لهم

يعيشون بين الناس بالمكر والحيل

كانوا يجلونني مذ كنت رب غنىً

وحين أفلستُ عدوني من الجهل

تسلم صاحبه الرسالة، ورد عليه برسالة يقول فيها:

أمّا الثلاثة قد وافوك من قبلي

ولم تكن سببًا إلاّ من الحيل

أمّا من ابتاعت المرجان فوالدتي

وأنت أنت أخي بل منتهى أملي

وما طردناك من بخل ولا من قلل

ولكن خشينا عليك وقفة الخجل

يا الله قرأت هذا الأثر وصمت طويلًا، وذرفت دمعًا غزيرًا، لكم تمنيت أن يطول مداده، لأن شعرت بأن انسيابه وتدفقه فيه تعبيرًا عن روح الوفاء وعظمته، فكانت كل الأحاسيس التي ترتقي بالإنسانية تجتمع عليّ في شعور واحد راح يتقاذفني ويحلق بي نحو ربى شفيفة نقية راقية، لقد ظل هذا الشعور يرتفع به إلى أعالي الجمال المطلق، ولم أستطع من جمال هذا الشعور وعظمته أن أصفه فجماله وعظمته جعلني أسلم بأن هناك من الكلمات ما هي أشبه بالسحر نظرًا لتأثيرها النافذ على القلوب والأرواح وامتلاكها لمجامع الإحساس والشعور الإنساني.

وقد كانت رسالة الصديق ردًا على عتبه نموذجًا للوفاء الحي، والكرم المتناهي في العظمة، وتجسيدًا لمعنى الرقة والبذل والعطاء ومراعاة الشعور.

صان الصديق عهد صديقه وأوفى له بما كان يلاقيه منه، وأثبت له أنه كان يحبه بلا مصلحة ولا منفعة، بل جسد هذا الحب بأجمل المشاعر وأرقاها فلقد أربأ بصاحبه أن يقف على بابه يستندي معروفه وأن يقف

موقف الصاغر الذليل، ولأنه يكبره نأى به أن يقف هذا الموقف لأن مكانته في نفسه كبيره وحبه له لا يقدر بمال ولا مصالح ولا منافع.

راقني هذا الصديق الوفي خصاله ومشاعره، الحيي الكريم، فلا لؤم ولا دناءة طبع، بل نقاء السجية وطهر النفس.

لقد راقني الأثر وراقني ندي الكلمات وسحرها وما تحمله من مضمون يضج بطيب عبق الإنسانية المتمثل في الوفاء والكرم والحياء، لقد كان الصديق هنا لصديقه شجرة إيمان مغروسة في الجنة، تثمر وتونع الجمال والإيمان والتقوى، وما أحوجنا في هذا الزمن لهذه الخصال وهذه النفوس التي تضج بالقيم النبيلة والمشاعر الرقيقة الراقية.

لقد دمعت عيناي عند رد الصديق على رسالة صديقه، وخفق وجداني وانساب وتدفق بكل معاني الحب والسلام، وهذا يؤكد القول المأثور الذي ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في البيان لسحرًا» وهذا يدل على قدسية الكلمة إذا كانت معبرة ومترجمة لما تنطوي عليه النفس الراقية وما تحدثه من استمالة للقلوب والأنفس ولا سيما إذا كانت تحيط بالمعنى وتكشف عن أسرار الجمال لدى صاحبها ومعبرة عن مكنون الشعور الإنساني لديه.

* * *

المرأة هي فلسفة الحياة

تطوف المرأة حول الكمال الإنساني بصبرها وقوة تحملها، ويكمن جمالها في إرادتها التي من خلالها تستطيع أن تؤسس عالم من الرقي والإبداع الإنساني لا يضاهيه عالم آخر إلاّ في الجنة.

والمرأة لديها القدرة على خوض المعارك الحياتية من خلال تشكيل الوعي الإنساني، قدرة تستأثر وتنفرد بها، لا يدانيها فيها أحد.

وكما قال الأديب نجيب محفوظ «إن من يشكك ويستهين بقدرات النساء أتمنى أن تعاد طفولته من غير أم»

وتكمن عظمة المرأة أيضًا في حنانها مبعث طاقتها الإيجابية الذي يجعلها أكثر عطاءً، فحنانها هو منبع إقدامها وثقتها وجرأتها، وهو الوقود المحرك لإبداعاتها الإنسانية، ولعل هذا هو السر في أن الرجال مهما كبروا أوعلا شأنهم وذاع صيتهم، إذا داهمهم الإحساس بالخوف واستوحشوا الحياة فزعوا بقلوبهم وأرواحهم ينادون على أمهم حية كانت أو كانت تحت أطباق الثرى.

لذلك تعد المرأة فلسفة الحياة ومنطقها، وهي مسلمتها وبديهيتها، وهي أعرف البشر بالحياة؛ لأنها هي نبض الحياة.

وفي حديثي هذا أسوق مثالًا للمرأة في أجلّ عطائها، من خلال أنموذجين للإرادة والصبر والحنان في أرقى معانيهما، تجسدوا فيهما، وكانوا أسطورة ستظل يانعة مثمرة ما بقيت الحياة.

هذان الأنموذجان هن (هيلين كيلر) و (آن سوليفيان) تانك الرائعتان اللتان تمثلان المرأة الحرة النابضة بالكفاح والعمل والصبر وقوة التحمل، وجعل الأمل واستشراف الحياة رغم المحن والإحن والصعوبات والعراقيل أنشودة باسقة يانعة مزهرة مثمرة.

إن هيلين كيلر وآن سوليفان، كانتا علاقتهما كعلاقة الفراشة بالزهرة، قصة حياة وولادة وعطاء وتفاني وإيثار، فسوليفان معلمة هيلين كيلر هي من منحتها الحياة بعد أن كانت تفتقدها، فمنحتها الرحيق وتعهدتها

بالرعاية مذ كانت يرقة مرورًا بالشرنقة حتى صارت فراشة تحلق في سماء الإنسانية والإبداع.

كانت آن سوليفان معلمة إنسانة لهيلين كيلر، اعتنت بها وأغدقت عليها من عطائها الروحي والوجداني، ولم تشعر قط بالضيق والضجر، ولم ينل منها القنوط واليأس من ملازمتها ومصاحبتها وتعليمها لهيلين كيلر التي كانت عمياء صماء بكماء، والتي لم يغني عنها ثراء أبيها في أن يدفع عن ابنته مرض الحمى الشوكية التي أصيبت بها في مستهل حياتها، فقد مرضت وهي في عامها الثاني ونتج عن ذلك إصابتها بالعمى والصمم.

بحث الأب عن أياد حانية تتلقف ابنته وتتعهدها بالرعاية وتمنحها العطف والحنان، فساقه القدر إلى أحد المعاهد التي تتبنى من هم فاقدي البصر، وهناك كانت الزهرة الأنيقة التي اختارها القدر لتصوغ برحيقها أجمل فراشة، أنها آن سوليفان التي ارتحلت مع هيلين كيلر إلى عالم الإبداع والجمال والسحر، فكانت آن سوليفان لهيلين كيلر أمًا وأختًا وصديقة ورفيقة ومعلمة، وكانت آن سوليفان آنذاك في العشرين من عمرها تكبر هيلين بثلاثة عشرة سنة.

وعلى مدار هذه الرحلة التي استغرقت سبع وأربعين عامًا، نستطيع أن نؤكد أن العطاء تجسد في أزهى صوره.

وتبدأ الرحلة بهذا العطاء، ففي عامها الأول قامت آن سوليفان بتعليم هيلين تسعمائة كلمة، وعلمتها كتابة الحروف على كفها، وعلمتها الإحساس بالأشياء عن طريق الكف، وبهذه الطريقة كانت هيلين تتحسس العالم من خلال آن سوليفان، وبدأت ومضات النور تتسلل إليها تترًا من خلال معرفة الأشياء الموجودة حولها، وكلما مر الوقت ازداد العطاء، فتعلمت هيلين الجغرافيا برسم الخرائط على الطمي في فناء الحديقة وتعلمت علم النباتات من خلال اصطحاب آن سوليفان لها، وتجولهن بحديقة القصر.

وعندما شارفت هيلين على العشر سنوات من عمرها علمتها آن سوليفان طريقة برايل للمكفوفين، وكانت النتيجة إجادة هيلين للغة الإنجليزية والألمانية واللاتينية والفرنسية واليونانية.

وساهمت آن سوليفان في تعليم هيلين الكلام باصطحابها إلى أحد المعاهد في ولاية بوسطن، وبعد إصرار وعزيمة ومساندة وتشجيع من آلان سوليفان استطاعت هيلين وبعد المعاناة الصعبة وحالات الإعياء الشديدة التي كانت تنتابها يوميًا أن تنطق الحروف.

وتتوالى الإنجازات تباعًا، وبفضل آن سوليفان وحنانها وصبرها، وبعزيمة هيلين وإرادتها وقوة تحملها وتشبثها بالأمل، استطاعت هيلين الكتابة، وكانت هذه الخطوة إيذانًا لدخولها عالم أرحب وأوسع، عالم الجامعة.

وكانت مرحلة تحد أخرى اجتازتها هيلين بمساعدة معلمتها ورفيقة الكفاح آن سوليفان التي كانت تمثل نقطة الوصل بينها وبين هذا العالم، فكانت تسمع المحاضرات، ثم تتلو ما سمعته وكتبته على هيلين، وآتت الثمار أُكلها، وتخرجت هيلين في الجامعة وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، تخرجت وبحوزتها شهادة بكالوريوس العلوم، والذي كان توطئة لانطلاقة مدوية وقفوة هائلة وأسطورية تتمثل في حصولها على شهادة الدكتوراه في الفلسفة.

إن هيلين كيلير وآن سوليفان الزهرة والفراشة هن ذرية بعضها من بعض حيث العطاء والبذل والحنا والإرادة والصبر وقوة التحمل.

إن سبعًا وأربعين عامًا هي المدة التي قضينها معًا لا فرقة ولا فراق، اللهم إلاّ لحظات انخراط هيلين في المجتمع كعضو عامل وعامل، حيث أنشأت منظمة هيلين كيلير الدولية المعنية بعلاج المكفوفين، ومُنحت هيلين أرفع وسام في الولايات المتحدة الأمريكية؛ وسام الشرف، ومنحه آنذاك الرئيس الأمريكي (روزفلت)

تركت هيلين ثمانية عشر كتابًا ترجمت إلى أكثر من خمسين لغة وأبدعهم كتاب «معلمتي»

والذي أهدته إلى معلمتها آن سوليفان تحكي فيه عن معلمتها، وقصة كفاحهن طوال الرحلة التي قطعنها معًا، وهذا في رأيي بعدًا إنسانيًا يضاف إلى عظمة المرأة.

هذه قصة حقيقية قد يتخيلها البعض أنها أسطورية ونلتمس له العذر في ذلك، فعظمة المرأة فيها يرقى إلى هذا الوصف وأكثر.

* * *

أرقى أنواع الحب

الحب هو شعور مبهم وغامض ومع إبهامه وغموضه تزداد جاذبيته، فتارة يشعرنا بالسعادة، وتارة أخرى بالحزن، فهو خليط من المتناقضات والاختلافات، لذلك نعت بالهوى لشدة تقلبه وتفاوت درجات رياحه التي تتأرجح بين ريح عاصف وأخرى مرسلة، فهو قطعًا ينعم ويعذب، فأحيانًا يكون جنة وأحايين أخرى كثيرة يكون سقر.

والحب الذي أقصده هنا هو حب الرجل للمرأة أو العكس إن لم تكن تربطهم عرى الزوجية ورباطها المقدس، وقد أشار المولى عز وجل إلى هذا النوع من الحب في قرآنه الكريم، فقال جلّ شأنه «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا إنا لنراها في ضلال مبين»

فامرأة العزيز أحبت سيدنا يوسف عليه السلام، وتم وصف هذا الحب بأنه الهوى، وهي المرة الوحيدة التي يذكر فيها لفظة الحب بين رجل وامرأة في القرآن الكريم، وتم نعته بالهوى لتقلبه وعدم استقراره، فهو يفتقد السكون ويتجرد من الهدوء، لذلك نرى أن أكثر من تعرضوا له وكابدوه، نجدهم وقد انتابتهم أعراضه من شعور بالحرمان والحزن والشجن ومرارة الفقد ولظى الهجر والغربة الذاتية، الخ من الأعراض التي تعل البدن وتوهن الروح.

ونجد أيضًا من تعرضوا لهذا الحب قد يشعرون بالفرح والبهجة والأنس والهدوء وأنهم حازوا الدنيا وارتقوا للجنة، لكن في رأيي هذا الشعور نادرًا جدًا، لأن الغلبة لشعور الحزن والحرمان والقلق.

إذن جوهر هذا الحب هو التناقض، وهذا التناقض انعكاس لهذا الحب المتقلب الذي لا يعرف الاستقرار والسكون، وها هو ذا الشريف الرضي، وهو من هو في قومه من حيث نقاء الآرومة وطيب الأصل، فهو الكريم في قومه، وإمامهم ونقيبهم، وصاحب المرؤة فيهم، وقاضيهم الجليل الذي ينظر في المظالم، والمرشح لديهم لإمارة المؤمنين، وأحد علماء عصره في الدين واللغة والأدب، ورغم هذه المكانة التي كان

ينعم ويحظى بها، إلاّ أنه تعرض لهذا الحب، ولم يستطع كبح جماح مشاعره ورغباته الدفينة، ولم تستطع تحفظاته أن تنأى به عن مكابدته لهذا الشعور المتناقض فيقول مخاطبًا من يحب:

أنت النعيم لقلبي والعذاب له

فما أمرك في قلبي وأحلاك

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لبلغتها فاك.

ولا جرم أن هذا الحب تتفاوت درجته من شخص إلى آخر، فهناك من يمتطي صهوته، ويطلق اللجام لغرائزه وشهواته معللًا أنها غاية هذا الحب، فمنصة التتويج في رأيهم هي إشباع الرغبات والتخلص من سطوة الشهوة.

ومثل هذا الحب في عقدي لا يفتأ تخبو ناره وتنطفئ جزوته، ولا تكون للروح فيه نصيب، فيفتر وينمحي بفتور الرغبة والشهوة، وذلك لأنه تعلق الزائل بالزائل، وبانتهاء الرغبة ينتهي المرغوب فيه، وقد عالج القرآن الكريم هذه الجزئية بين الزوجين، ففي حالة الفتور وانعدام الرغبة، تكون المودة والرحمة لأنهما – وبحق- هما الأساس الذي تنبني عليها العلاقة الزوجية الصحيحة.

وهناك نوع آخر من الحب يرتقي بالإنسان ويسمو به سموًا يتجلّى في اعتزاز المحب بهذا الحب والتضحية في سبيل الإبقاء عليه من خلال ما يبذله من جهد وما يستنزفه من آلام وما يكابده من معاناة وحرمان، فهذا الحب ينأى بصاحبه عن الشوائب والعلائق الدنيوية، ويجعله زاهدًا في المحرمات، ومتحلّيًا بتقوى الله، فحرمانه ممن أحبه جعله يترفع عن التدني في أوحال المحرمات والموبقات، ولا شك أن هذا الحب لا يتذوقه إلاّ الصفوة من الناس الذين يؤمنون بقيم ومبادئ روحية منبتة الصلة تمامًا عن رذائل الجسد، فهذا الحب يشعل جذوة العفة فتضيء درب من أحب، وتجعله يرتقي ويواصل ارتقاءه، حتى يذوب فؤاده

وتلين عريكته وتصفى نفسه، فيصبح كالنسيم الشفيف لا تراه، بيد أنك تحس به وتتنفس به ومعه.

لذلك فإن هذا الحب الذي يحرص على القيم الإنسانية والمثل العليا يكون بمثابة المقدمة لبدايات حب آخر أسمى وأعلى وأرقى لا أستطيع وصفه ولا أجترئ على ذلك، لأنه، _وبحق_ لخاصة الخاصة (وهو حب الله)

* * *

الكمال الإنساني

اكتمال وعيك، وازدهار نضجك الإنساني، يجعلك تتغاضى عن السفهاء والساقطين من الناس، ليس بدافع التقية أو الانزلاق إلى مستواهم المتدني والبذيء فحسب؛ بل تكمن حكمة هذا التغاضي بأنك بصنيعك هذا تُحسن إلى الفضيلة.

وفي ذلك يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي «إن مسّك الأذى من رقيع أو سقيطٍ أحسن إلى الفضيلة بنسيان ذلك»

هناك بعض من الناس يكون لديه قصور في النواحي الإنسانية، فيحكمون على الآخرين بمنطقهم هم دون أن يتحرّوا الموضوعية في حكمهم، فينتقدون من أجل الانتقاد بدون سبب أو مسوغ يحملهم على ذلك، وقد يتجاوزن الانتقاد للتجريح والتنكيل والتشهير، والسبب في ذلك قد يرجع لحقد تغلي به أنفسهم وإمّا لغلبة الطبع السيئ فيهم، فيشهرون وينكلون ويسومون غير مراعين عهدًا ولاذمامًا ولا أخلاقًا ولا إنسانية.

ويعتقدون أنهم بفعلهم هذا انتصروا لأنفسهم ولا سيما إذا رأوا من الآخر استسلامًا ونكوصًا بعدم الرد عليهم، ويرون في ذلك الاستسلام نخب الانتصار.

أعتقد أن هؤلاء ممن يفتقدون معاني الإنسانية وأن عدم الرد عليهم هو أوفق السبل وأنجعها، فعدم الرد عليهم هو صون للكرامة، وعدم السقوط في الوحل، وهو أيضًا لا يرجع لضعف أو خذلان، بل من يترفعون عن عدم الرد عليهم أو مجاراتهم لهو قوة وجسارة، ويعد قمة التسامي بالنفس من أن تنزلق إلى غياهب التدني والسقوط في بئر الظلمات.

وقد وصف الله تعالى من ينأى بنفسه من الدخول في صراع مع هؤلاء بعباد الرحمن وأنهم من أهل الحلم والسلام، يقول تعالى «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا»

عباد الرحمن هؤلاء أرادوا السلام، وأبصروا النور من خلال إرادتهم هذه ومن ثم لا يريدون أن تسلب منهم هذه النعمة، والنور هو الحقيقة.

لذلك فالإنسان الذي يفطن إلى الحقيقة ويستوعب كنهها ومراميها، ويتذوق حلاوتها، يلازمها ويتسربل ويتمسك بها، ويألو على نفسه أن لا يبرح ساحتها أبدًا.

لذلك يغض الطرف عمن يسيء إليه، أو يتجاوز في حقه بالتشهير أو الإساءة، فهو يراهم أصحاب نفوس ضعيفة اهترأت قلوبهم من الغل والحقد والحسد، ويرى أن هؤلاء الناس هم في أشد الحاجة لمن يعزيهم في أنفسهم، لأن الضرام والسعار أحرقهم وجعلهم كأعجاز نخل خاوية، فهم بسواد قلوبهم، وبطريقتهم المجرودة من الحب والسلام، الظاهر منها الغل والحقد والحسد وعدم التقدير لا يستطيعون إضافة شيء للحياة، بل يسلبون راحة من يتعامل معهم، ويستنزفون طاقته وقد يلوثون روحه ووجدانه إذا رد عليهم أو عاملهم بنفس طريقتهم وأسلوبهم.

فهؤلاء الجاهلون والسفهاء لا يضيعون وقت من يجاريهم أو يرد عليهم فحسب، وإنما يورثونه بالانفعالات السلبية وغير المفيدة، لذلك فإن مجاراتهم شر وبيل، وخسران للنفس وتعكير للمزاج، وهدر للطاقة واستنزاف لقيم الجمال والمحبة والسلام.

وفي هؤلاء يوصينا الإمام الشافعي بعدم الرد عليهم، وتجنبهم، من خلال السكوت والابتسامة فيقول:

إذا نطق السفيه فلا تجبه

فخير من إجابته السكوت

فإن كلمته فرّجت عنه

وإن خليته كمدًا يموت

ولا تتعمد الثأر لنفسك بمجاراتهم والرد عليهم لأنك بذلك لا تنتصر لنفسك بل تهزمها بتعكير صفوها وبإنزالها منزل السفاهة والحمق، وحتى لو انتصرت عليهم بردك عليهم، فهو انتصار بطعم الهزيمة، لأنهم نجحوا أن يجعلوك مثلهم، وأبلغ ما قيل في ذلك مثل انجليزي يصور الخسارة الفادحة التي تتكبدها لو صنعت صنيعهم أو جاريتهم فيما يفعلون بالرد عليهم، هذا المثل يقول «لا تصارع خنزيرًا في الوحل، فتتسخ أنت ويستمتع هو لأن القذارة أسلوب حياته»

لذلك من الحكمة أن تتجنب الرد على هؤلاء أو محاورتهم والولوج معهم في مناقشات، لأن من ينطوي قلبه على الحقد، ومن نشأ ودرج في مستنقعات الكراهية لن يعطيك وردًا ولا حبًا، بل سينقص من قدرك وينال من إنسانيتك إذا جاريته بالرد عليه أو مناقشته.

لذلك فإن العاقل الأريب هو من يعمل في صمت، ويجتهد في عمله، ولا يرجو المثوبة إلاّ من الله، وأنه لن يبلغ الأيفاع إلاّ بالصبر والتغاضي عن السفهاء والحمقى، وتحمل الآلام اللامحدودة، فإن من يروم الوصول إلى الكمال الإنساني فعليه بالحلم والأناة والصبر وأن ينهل من مراشف الحب والسلام، فبلوغ العلى يستأهل تجشم الصعاب، ولله در من قالوا:

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

ومن يخطب الحسناء لم يغنه المهر

لابد دون الشهد من إبر النحل.

الحب من طرف واحد

الحب من طرف واحد يقتل صاحبه أو يجعله مجنونًا، ومن لا يؤمن بذلك، فهو لم يُجن، ولم يواريه التراب.

لذلك فالحب من طرف واحد هو الموت البطيء للطرف المحب، فهو يتألم وحده، ويقاسي وينفعل ويتعذب وحده، لأنه سلك دربًا من الجنون والخيال، فهو يبني حبه على لجة الماء، ويشيده من نسمات الرياح والتي سرعان ما تفتك به وتجعله عرضة للمرض والغربة الذاتية، والتي قطعًا ما تورثه السلبية والانزواء.

ويحفل التاريخ بهذا الحب المرضي الذي يسلب الألباب وييبس الفكر ويضمر الجوارح وينحل الأجساد، ويورث الحزن والتعاسة، وفي التراث الغربي هناك العديد من الأمثلة الشاهدة على هذا الحب، فجوته يعاني مرارة هذا الحب ويدون مأساته وجراحاته في روايته الشهيرة «آلام فرتر» فقد أحب فرتر محبوبته شارلوت، لكنها كانت تعده وتمنيه، فرغم ما كانت تكنه له من حب، إلاّ أنها آثرت في النهاية أن تقصيه من حياتها، فهي متزوجة من إنسان غيره وقررت أن تنهي هذا الحب، لكنها لم تكن لتعلم أن بقرارها هذا أنهت على حياة فرتر الذي قرر الانتحار، لكي لا يكون أنانيًا تجاه من يحب، ولكي لا يتعذب من مرارة البعد وجفاء الحرمان.

لقد آثر فرتر الموت على أن يعيش يعاني الوجود دون من يحبه، وكأنه يطبق وصية الفيلسوف فولتير الذي يقول «على المحب أن يلح في حبه حتى يظفر بمن يحب أو يموت دونه»

وقد فضل فرتر العدم دون الوجود، فوجود بدون من يحب يجعله يتألم ويتعذب تتقطع آماله وتسحق أمنياته ويعيش بلا هدف ولا غاية، فمعاناته هي معاناة للروح ومعاناة الروح هي أشد وأمضى ألمًا من معاناة الجسد، ولعل ذلك يثبت أن الحب من طرف واحد لا وجود له، لأنه يفقد معناه إذا لم يكن متبادلًا ومتكافئًا.

وفي التراث العربي نجد قصة مجنون ليلى، فقد هام هذا العاشق المستهام على وجهه واختبل عقله وأدركته المنية وهو على هذا الحال شاردًا ذاهل اللب فيما يشبه الجنون، فحبه لليلى أخذ منه كل مأخذ، وفقدانه لها ونأيها عنه جعله يشبه المجنون وبدلًا من أن يثوب إلى رشده ويسلم بقدره، استسلم لرياح هذا الحب العاصف تقتلعه من جذوره، فهذا الحب الذي ملك عليه كيانه، وجرى منه مجرى الدم، كان السبب في القضاء عليه.

وهناك قصة أخرى لمحب كابد هذا الحب وعانى من عذاباته واثخن في قلبه الجروح، وكانت نهايته حزينة وأشد مأساة وألمًا، هذه القصة لعروة بن حزام الذي أحب ابنة عمه عفراء بنت عقال، وقد فرقهما القدر، فتزوجت عفراء بغيره، فظل يكابد مرارة الهجران ويعاني آلام الفراق، فهام على وجهه ونحل جسده، وظل يبكي عليها أسيفًا حزينًا ملتاعًا مكسور القلب والوجدان، ونهشه المرض وظل ينهش فيه، حتى وافته المنية، وقبيل وفاته كان يتوسل لها أن تعود، ويناجي حبها ليل نهار، وهو الذي أنشد هذا البيت الأثير الذي يقول فيه واصفًا حالة هيامه وحبه لها:

كأن قطاة علقت بجناحيها
على كبدي من شدة الخفقان

لقد حرم عروة من عفراء، فأكل منه الحزن والشقاء والتعاسة حتى الموت، وتعلم عفراء بما آل إليه حاله فحزنت عليه حزنًا شديدًا، وتستأذن زوجها لزيارة قبره، فيأذن لها، وعلى قبر عروة تظل تبكيه إلى أن تسلم روحها لبارئها فتدفن بجانبه.

وبذلك فإن هذا الحب في إدراكه صفة الجنون والموت كما في آلام فرتر وكما ورد في قصتي مجنون ليلى وعروة، وهناك صفة أخرى قد تدرك هذا الحب فقد يكون حافزًا للإبداع والنبوغ، فقد يكون مثار إلهام لمن يكابده ويعاني من آلامه، وهذا ما حدث مع الفيلسوف فريدريك نيتشه الذي هام بعشق فتاة تصغره وهو في سن الأربعين، لكنها صدت عنه وجافته، وعندما تيقن من تنكرها له، انزوى بخيبته يصب اللعنات على هذا الحب، يستثير فيه العذابات ويوقد في جوانحه وأضالعه نار المعاناة

التي ظلت تشتعل فيه، حتى أومضت بنور عمله الرائع «زرادشت» فقد انكفأ على نفسه يرفد من عذابات هذا الحب وأحزانه ما يعينه على تفسير الوجود الإنساني وسبر غور الحياة التي يعيش فيها، فأنتج وأبدع روائع الأعمال الفكرية والفلسفية التي خلدت أسمه كواحد من أعظم فلاسفة القرن العشرين وأكثرهم شهرة وسمعة بين الناس.
ومثال آخر للحب من طرف واحد، لكن هذه المرة هو من افتعل البعد وآثر الانزواء، فلم يقابل بالصد أو النكران من قبل من يحبها، ولم تحول الظروف بينه وبينها، بل هو من آثر البعد، مفضلًا أن يحبها من طرف واحد، لأنه رأى في هذا البعد المتنفس الذي يلهمه الحب المطلق والجمال الأبدي، إنه الفيلسوف (سورين كيركيجارد) الذي فضل أن يبتعد عن محبوبته (ريجينا) فقد ضحى بالقرب منها ليقترب من الحب المطلق السرمدي، فحبها كان وقودًا لهذه الرحلة، فهو يريد منها الجانب الروحي لينتقل منه إلى الجانب الروحي الأبدي، فلقد رأى كيركيجارد أن قربه بمن يحبها والزواج منها سوف يجعله رجلًا عاديًا، وبذلك تفنى العبقرية، وهو يريد لها الديمومة والبقاء، وديمومتها وبقاءها يعني هجره لريجينا، وهجرها والبعد عنها هو وسيلة لغاية أرقى وأجل وهي الحقيقة.
إذن الحب من طرف واحد نتيجته يا إمّا الجنون ثم الموت، وإمّا أن يكون حافزًا وملهمًا للإبداع والعبقرية الروحية والإنسانية، ولخصوصية هذا الحب وما يتلبسه من أحداث كتب له الخلود والديمومة، فتم نعته بالحب العذري.

وأرى أن هذا الحب ما هو إلاّ ضربًا من الجنون، قد يفضي إلى العبقرية أو إلى الجنون، فقد أحال نيتشه إلى العبقرية وكذلك كيركيجارد، فتركوا لنا ميراثًا من الأعمال الفكرية والفلسفية التي تثري الروح والوجدان، ومن جهة ثانية قد يحيل إلى الجنون ثم الموت كما أحال فرتر إلى الانتحار وعروة وقيس إلى الجنون والموت، وها هو ذا قيس الذي أعياه هذا الحب وأوصله إلى هاوية الجنون أنشد يقول:

أراني إذا صليت يممت نحوها

بوجهي وإذا كان المصلى ورائيا

وما بي من إشراك ولكن حبها

وعظم الجوى أعيى الطبيب المداويا.

* * *

ألبير كامو وفلسفة كيف نحيا في هذه الحياة

هناك قصة أسطورية تقول: أنه كان هناك رجلًا فطنًا يمتلك ذكاءً ومهارةً استطاع من خلالهما أن يخدع إله الموت (ثانتوس) حين تحايل عليه، وقال له عليك أن تجرب الأقفال والأصفاد، ودخلت الحيلة على إله الموت وتركه سيزيف مكبلًا في أقفاله وأصفاده، وبذلك لم يعد هناك موتًا ولا أموات.

هذا الفعل الذي اجترحه سيزيف أغضب عليه آلهة الأولمب فحكموا عليه بأن يحيا حياته الأبدية في عملٍ غير مجدٍ، يقوم من خلاله بدحرجة صخرة ثقيلة إلى أعلى الجبل ثم يقوم مرة أخرى بدحرجتها إلى الأسفل، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

هذه الأسطورة، تناولها بالبحث والتأمل الفيلسوف (ألبير كامو) ليستخلص منها كيفية العيش في هذه الحياة، وشبه الحياة التي نحياها بحياة سيزيف الذي آثر العيش مع الشقاء عن الموت، وأبدى كامو الدهشة من حياة سيزيف وقيامه بهذا العمل الغير مجد، وعدم قيامه بوضع حدًا لهذه الحياة المأسوية!

لقد وصم كامو حياة سيزيف بالعبثية، وشبه حياة الناس بها، فالعبث ينطبق عليها أيضًا، فشقاء سيزيف، هو نفس شقاء الناس في الحياة من خلال ما يكابدونه في حياتهم اليومية وما ينفقونه من جهد وكدح من أجل لقمة العيش، وهو جهد وكدح لا جدوى منه ولا غاية!

فالإنسان يظل يعمل ويجتهد في هذه الحياة دون طائل، وليس أمامه سوى إعادة العمل والاجتهاد، ويظل هكذا ضمن حلقة مفرغة يعاني الشقاء والألم.

أمعن كامو البحث في هذه الأسطورة ورأى أن الإنسان وما يعتريه من آلام وأحزان في هذه الحياة يحضه ويستنفره للبحث عن ذاته، عن وجوده، وعن معنى الحياة.

يتساءل كامو هل الحياة تستحق منا أن نحياها؟ يجيب على هذا السؤال بأن الناس يعيشون الحياة أسارى للعادات، وإنهم في غمار آلية التكرار لهذه العادات يصعب عليهم إدراك معيشتهم، لأن الآلية والتكرار تفقد الحياة معناها وتكون حياة بلا هدف، وإذا تم اكتشاف هذه الحقيقة من قبل الإنسان يشعر بالغثيان ويرى أن الحياة ما هي إلاّ عبثًا، وأن هذا العالم مليء بما ينافي العقل ويجافي الصواب.

يرى كامو إن إدراك الإنسان لهذا الواقع المرير يجعله أمام خيارين، فإمّا أن يتخلص من حياته من خلال الانتحار، أو يسلم بأن الحياة الحقيقية سوف تكون في العالم الآخر.

يرفض كامو الخيارين، فإقدام الإنسان على الانتحار للتخلص من حياته هو هروبًا والهروب هو إلغاءً للضمير، وإرجاء حياة الإنسان للعالم الآخر هو خضوع واستسلام وهو يرفضه تمامًا.

ويقرر كامو أنه يتوجب علينا أن نعيش الحياة، حتى ولو لم يكن في استطاعتنا التغلب عليها وذلك من خلال التمرد على هذه الحياة من خلال عيشها وإبراز التحدي والكفاح المستمر، فعلينا أن نعيشها بكل ما فيها وبكل ما تحمله من أفراح وأتراح، بؤس ونعيم، نصب وراحة، علينا أن نعيشها بكل مواقفها، نعيشها بعلاتها، أن نتمرد عليها، إن التمرد على الحياة هو الذي يجعل لهذه الحياة قيمة.

يقرر كامو أنه يلزم أن نعيش الحياة وأن نتحدى أقدارنا، وأن نمضي قدمًا في مواجهة مصائرنا.

ليس بالضرورة أن نحقق أهدافًا في هذه الحياة، أو نحقق منجزات، ولكن علينا أن نعيشها وأن يكون هدفنا الأسمى هو الحياة ذاتها، علينا أن نواجه مصيرنا وأقدارنا وأن نناضل من أجل صناعة قدرنا الخاص.

إن الحياة التي يريدها كامو أن تعاش يتمثل معناها في إسباغ القيمة على كل عمل نقوم به، وأن الحياة نفسها هي الهدف والغاية، وبذلك يريد كامو من الناس أن يكونوا أحرارًا، ولا ينكفئوا على ذاتهم، ولا يتقوقعون في شرنقة عادتهم المكررة والآلية، عليهم أن يتمردوا على

عبث العالم وخلوه من القيم، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا من أجل خدمة الآخرين.

ولقد طبق كامو فلسفته ورؤيته حال حياته، فنبذ الأعمال الإرهابية، وكان نبده وتنديده للإرهاب الحكومي أشد، وظهر ذلك من خلال تنديده وشجبه للاستبداد الستاليني في روسيا إبان حياته، وهاجم الثوري لرؤيته أن الثوري هو شخص تسلطي يعقلن القتل دائمًا، وأقر بأن العنف غير مبرر حتى إذا كان وسيلة لغاية.

لقد شجب كامو الوصيات اللاهوتية وسيطرة الدين، فهو يرى أن الدين له مفهوم مغاير من حيث تفرده، فهو غير تابع لأحد ولا وصاية فيه، ورأى أن الحياة وعرة وشاقة دون مساعدة الدين، كذلك تكون بدون فن وحب.

يدعونا كامو لعيش الحياة بهدوء وسلام وأن نستمتع بها لذاتها دون هدف منها.

إنها كانت دعوة منه للتمرد وليس الثورة، فالبون شاسع بينهما، ويتمثل هذا البون في علاقتهما بين العدالة والعنف، فالثورة تؤدي إلى العنف، والتمرد يؤدي إلى العدالة.

ربما رؤية كامو لا تسلم من النقد كونه يبعث على الخيبة والإحباط، كونه يرى أن الوجود بذاته لا يمتلك أي معنى، وعلينا أن نواجه قدرنا بأنفسنا لنتحمل هذا الخواء، وهو بذلك ينفي فكرة الإيمان التي تعتبر هي المهيمن الأساسي والملاذ الأول والأخير، لأنه ورغم نجاعة العقل وقوته في إحداث طفرة في الحياة، إلاّ أن هذا العقل يعجز عن سبر غور حقيقة الموت وتشريحه ووضعه تحت منظار التجربة والتحليل، ولعل قصور كامو عن تفهم هذه الفكرة الإيمانية هو ما جعله يتعلق بالحياة بطريقة مفرطة، فيقول «كل رعبي من الموت يكمن في غيرتي على الحياة..» «أنني حسود لأنني أحب الحياة حبًا جمًا لا أستطيع معه إلاّ أن أكون أنانيًا، ولكن الموت يأتي ليخطف كل شيء»

كذلك قوله بعبثية الوجود ونفيه النظام عنه هو مآخذًا عليه، فالحياة عندما نتأمل فيها لا يمكن وصفها بالعبث أبدًا.

لقد غالى كامو في تقديس الفرد وحريته المطلقة، ويرجع السبب في ذلك إلى معاناته فقد ذاق الحرمان في طفولته وعانى من ويلات الحروب الأمر الذي جعله ينتهج النهج الوجودي، ويصم الحياة بالعبثية.

ورغم هذه الانتقادات فإنه يحسب لكامو صدقه وتواضعه، ومعاناته وخوفه ورجائه وقد ترجم هذا كله في تمرده واستهجانه للاستبداد والدكتاتورية، وانتفاضته الإنسانية والأخلاقية والذي طالما ما نادى في كتاباته وتنظيراته بتحري العدل وتحقيق السلام، وذلك من خلال بغضه للظلم وتنديده للاستعمار.

تنتهي حياة كامو بطريقة مأساوية إثر حادث أليم، لقد انتهت رحلته في الحياة الذي تركزت جل فلسفته عن هذه الحياة وكيفية عيشها، انتهت حياته التي كانت لا تخلو من العبث والتمرد والمليئة بالتفوق والعطاء ونبذ الظلم وتحري العدل والإنسانية.

يقول كامو «لا أبغض العالم الذي أعيش فيه، ولكن أشعر بأنني متضامن مع الذين يتعذبون فيه»

* * *

الآخرة ليست جنة فقط يا زيدان
ورحمة الله هي عدله يا سلاف

لا بد في الحياة من وجود الخير والشر، فوجود أحدهما لا يمنع وجود الآخر، بل لمعرفة أحدهما لابد من معرفة الآخر، فلولا الخير ما عرفنا الشر والعكس صحيح، هكذا مثل الليل والنهار، العدل والظلم، الحق والباطل والخ من المتضادات.

والخير نعمة، والشر نقمة، وكل نفس لها الحرية في الاختيار، فكل نفس تتوق إلى جبلتها، فهي تختار ولها الإرادة ولا معقب عليها في ذلك، والله يوفق النفس أيًا كان الدرب الذي تسلكه والطريق التي تختار خير أو شر فالنفس التي تتحرق شوقًا إلى الغل والحقد يمدها الله في ذلك ويبارك لها فيه، والنفس التي تتحرى الخير وتتعلق به وتجسده عملًا، يمدها الله في ذلك ويبارك لها فيه.

إذن من جنس النفس تخلق الأعمال يقول تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها»

فالنفس هي من تختار وبناء على هذا الاختيار يكون توفيق الله تعالى فمن يختار الخير يمده الله تعالى بأسباب الخير وينير بصيرته للتمادي فيه، ومن يختار الشر، ولا يرى طريقًا غيره، ولا يقف مع نفسه ولا يراجعها على ما أسرف في حقه نفسه، يطبع الله على قلبه وييسر له طريق الشر يقول تعالى «وكلًا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا»

إذن فالخير من نفس الإنسان، وكذلك الشر، فالله لا يصنع الأخيار والأشرار، بل هم من يختاروا لأي المعسكرين ينتموا، فحاشا لله أن يخلق الناس أشرارًا أو يعدهم لوظيفة الشر كما ذهب إلى هذا الرأي الفنان السوري أيمن زيدان الذي جاء على لسانه في تصريحه مع أحد المذيعين قوله: «الأشرار صناعة إلهية، وعلى هذا الأساس هم ليسوا مدانين بالمطلق، وكون هؤلاء الأشرار صناعة إلهية، فالله أعطاهم حرية الاختيار»

في رأيي لم يوفق زيدان الممثل العبقري في تصريحه فهو بذلك يجعل الله ظالمًا، وحاشا لله أن يكون كذلك، وهو الذي حرم الظلم على نفسه، فكيف يظلم خلقه بأن يصنع فئة منهم أشرارًا، بل الله خلق الخير والشر فتنة ليبلوا الناس ويختبرهم، وجعلهم كلهم سواء أمام ومنحهم حرية الاختيار، فلم يحابي أحدًا على أحد، ولم يفضل أحد على أحد، تعالى الله على ذلك علوًا كبيرًا، يقول تعالى «ونبلوكم بالخير والشر فتنة» فالخير والشر ابتلاءً، وقد أوجدهما الله تعالى اختبارًا لعباده ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، فقد أوجد الله عباده في هذه الدنيا وأمرهم ونهاهم وابتلاهم بالخير والشر ليجازيهم بأعمالهم فإن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا قمة العدل الإلهي. يقول تعالى «وما ربك بظلام للعبيد»

وهذا الجزاء يوجده الله من جنس العمل فمن يختار الخير ويعمل به فسوف يرى عاقبة عمله «فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره» ومن يختار الشر ويعمل به فسوف يرى عاقبة عمله «ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره»

وهذا قمة العدل الإلهي، فالناس كلهم خلقوا على الفطرة ومنحهم الله الحرية والاختيار، فمن يسلك طريق الخير، فبإرادته يكون الاختيار، ومن يختار طريق الشر فبإرادته يكون الاختيار.

وبناء على هذا الاختيار جعل الله الجزاء جنة لمن يختار الخير، ونارًا لمن يختار الشر.

إن الجنة هي نتيجة الخير، والنار هي نتيجة الشر، وهذا هو المنطق الطبيعي لسير الأمور، فلو تم مساواة من يجترح الشر بمن يفعل الخير وإدخالهما سويًا الجنة، فهذه المساواة فضلًا أنها تتنافى مع العدل فهي تجعل من الدنيا فوضى ومترعًا للفسق والفجور، لأن كل من يعلم أن الله سوف يساوي بين المحسن والمسيء، والقاتل والمقتول ويدخلهما الجنة لأنه رحيمًا والرحمة تتنافى مع العذاب، سيعمد إلى ارتكاب المعاصي واجتراح السيئات وانتهاج سبيل الشر، والنفس معروفة أنها أمارة بالسوء ومن ثم سيطلق الإنسان العنان لغرائزه ومن ثم تتحول الدنيا إلى فوضى.

وفي القول المأثور «من أمن العقوبة أساء الأدب»

من العدل أن لا يستوى المحسن والمسيء، ولا يستوي من يفعل الخير مع من يفعل الشر.

قال تعالى «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون»

هل يساوي الله بين من اجترحوا السيئات من الأعمال، وسلكوا طريق الشر وخالفوا أوامر ربهم وعبدوا غيره، مع الذين آمنوا به وصدقوا رسله وعملوا الصالحات وأخلصوا العبادة له، كلا ما كان الله ليفعل ذلك، لقد ميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير، وهذا هو عين عدل الله ورحمته.

لقد وقع أيمن زيدان في وهم الالتباس، كما وقعت فيه سلاف فواخرجي الممثلة السورية التي صرحت هي الأخرى لا يوجد نار في الآخرة فالله أحلى من أن يحرق عباده.

إن الله رحيم، ووسعت رحمته كل شيء، لكن لو ساوى بين المحسن والمسيء، ووعد كلاهما بالجنة لتحولت الدنيا إلى فوضى، وانتشر الظلم والفساد بين الناس، لعلمهم أن النتيجة واحدة وهي الجنة، لذلك فإن رحمة الله وعدله تقتضي وجود جنة للمطيع، ونارًا لمن عصاه، وهذا هو العدل بعينه.

إذن الجنة حق والنار حق، ولا غرو أن تكون الجنة في اشتياق للأنفس التقية، وأن تكون النار في اشتياق للأنفس الفاجرة، وهذا عدل الله الذي عامل به خلقه جميعًا، فقد منحهم الإرادة للاختيار، فاختاروا، وكان الحكم لله، لذلك فلا عجب أن نرى طواغيت وجبابرة ظلموا أنفسهم واختاروا طريق الضلال وظنوا أنهم يحسنون صنعًا ولا عجب أن نجد الله يوفقهم لما هم فيه لأنهم اختاروا بمحض إرادتهم، لذلك كان حقيق على الله أن يجعلهم وقودًا للنار.

إنها لم تكن أبدًا جنة فقط يا زيدان، فالنار كما الجنة أوجدها الله وجعلها حقًا، ورحمة الله وعدله يا سلاف أن يجازي كل إنسان بما قدم، وهذا العدل في الحكم لا يتنافى مع رحمة الله.

* * *